

رواية

مفهي النبي دانبال

للکاتب الروائي / خيري حداد

الناشر

المکتب العربي للمعارف

عنوان الكتاب : رواية مقهى النبي دانيال
اسم المؤلف: خيرى حداد
تصميم الغلاف: محمد خيرى حداد

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للناشر

الناشر

المكتب العربي للمعارف

٢٦ شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي
ميدان هليوبوليس - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون/ فاكس: ٠١٢٨٣٣٢٢٢٧٣-٢٦٤٢٣١١٠
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى يوليو ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٨٠٩٠ / ٢٠١٤

I.S.B.N.978-977-276-278-1: الترقيم الدولي

جميع حقوق الطبع والتوزيع مملوكة للناشر ويحظر النقل أو الترجمة أو الاقتباس من هذا الكتاب في أي شكل كان جزئياً كان أو كلياً بدون إذن خطي من الناشر، وهذه الحقوق محفوظة بالنسبة إلى كل الدول العربية . وقد اتخذت كافة إجراءات التسجيل والحماية في العالم العربي بموجب الاتفاقيات الدولية لحماية الحقوق الفنية والأدبية .

إهداء
إلى أخي محمد حداد
طيب الله ثراه...

.. كانت لحظات شديدة التأثر حين ودَّعت زميلي وصديقي بالجيش سيد حبيب المهندس الزراعي، وهو من قرية أولاد سراج بالمنزلة دقهلية، أربع سنوات شديدة القسوة في خندق واحد؛ حيث كنا نعمل في محطة رادار لكتيبة صواريخ تنقلت بين حلوان وأسوان وأخيراً جرّشنا أثناء الحرب في رست السويس في طريق يقع قرب قصر عباس، ودَّعته عند محطة القللي برمسيس؛ حيث ركب عربة أجرة إلى المنزلة، ولأول مرّة أبكى في حياتي على فراق رجل..

.. عُدت إلى شقتي بشبرا قرب ميدان الخلفاوي أستجمع ذكرياتي بالجيش من أكتوبر ١٩٧٠ وحتى أول سبتمبر ١٩٧٤، وكنا نزن أننا لن نخرج من العسكرية أبداً فكان يوم تسريحنا من تلك الحياة القاسية كأنه يوم مولد جديد".

.. نمتُ في هذه الليلة وحدي أدغدغ ذكريات تلك الأيام الخوالي غير مصدّق أنني أصبحت رجلاً مدنياً، وكنت قد عُيِّنت تعييناً خاطئاً قبل دخولي الجيش في ١/١٠/١٩٧٠ مدرساً للمواد التجارية في مدرسة إمبروزو الثانوية التجارية للبنات في حي محرك بك بالإسكندرية، وبقيت على ذمة هذه المدرسة أتقاضى راتبي فيها بشيك يصلني على عنواني بشبرا حتى انتهت مدة تجنّدي، ولم أكن أستطيع أن أرفض تعييني هذا كمدرس؛ لأن الوقت كان ضيقاً ونصحتي الكثيرون بقبول التعيين لأنني سوف أحصل على راتبي بعد قضاء عام واحد بالجيش، وأنني في ذلك سعيد الحظ؛ لأنني عُيِّنت قبل دخولي العسكرية، وأجلت موضوع رفضي للعمل في التدريس إلى وقت تسريحي؛ حيث سأذهب إلى مهنتي التي أرغب في ممارستها كمحاسب في أية شركة بالقطاع العام.. وكانت عقدتي في أثناء

دراستي الابتدائية والإعدادية حتى المرحلة الثانوية أنني لا أحب المدرسين فكيف أعمل مدرساً..

.. وغلبتني رغبة في داخلي أن أستلم عملي كمدرس في تلك المدرسة؛ لأجرب حياتي في تلك المهنة، والذي دفعني أكثر لهذه التجربة أنني سوف أذهب إلى الإسكندرية؛ التي أتوق إلى العيش فيها لما سمعته عنها وعن شواطئها..

.. في اليوم التالي استيقظت من نومي بعد الظهر، ومضى قليل من الوقت بعده جاءني أخي محمد حداد مسرّحاً من الجيش؛ حيث كان يخدم في الجيش الثاني مع أول من عبروا القناة لحظات تحطيم خط بارليف.. حكي لي كثيراً عن ذكرياته القاسية أثناء الحرب وكيف أن زملاءه قد ماتوا حوله خاصة ذلك الملازم أول احتياط حلمي ولیم، الذي كان صديقاً لأخي، وكنت أعرفه حيث كان كثيراً ما يأتي إلى شقتنا لزيارة أخي أثناء إجازتهما.

.. كنت وأخي محمد قد أمضينا أياماً جميلة في هذه الشقة منذ أن أستأجرها لنا أبي في أول عام ١٩٦٤، وكان أخي يعمل في شركة إيديال منذ حصوله على دبلوم الصنایع، وكان حارساً لمرمى شباب شبرا في كرة القدم، بعدها كان حارساً لمرمى فريق الزمالك الأشبال في عامي ١٩٦٦ حتى عام ١٩٦٨، ولما وصلتنا النكسة توقف كل شيء، وتجمد النشاط الكروي..

.. وفي اليوم التالي سافرنا معاً إلى القرية؛ حيث أودع أبي وأمي للذهاب إلى الإسكندرية لاستلام عملي في مدرسة إمبروزو الثانوية، ويعود أخي محمد بعدها إلى شبرا في شقتنا الصغيرة؛ حيث يعمل في شركة إيديال (المظلات).

.. أبدت أُمِّي تخوُّفها عليَّ من الذهاب إلى الإسكندرية، وحاولت تهدئتها وإقناعها بأنها مرحلة جديدة من الحياة ولا بد من اجتيازها، وفي هذا اليوم كانت دموع أُمِّي غزيرة حتى أنني بكيت بحرقه أثناء احتضانها وتوديعها وكذلك دمعت عينا أبي، وأوصلني أخي محمد بحقيبتني إلى موقف العربات في قبلي البلد؛ حيث ركبت عربة إلى شبين الكوم ومنها إلى طنطا ثم إلى الإسكندرية.

.. نزلت في حي سيدي جابر لأقصد بيت ابنة عمِّي عليَّة، تركت عندها حقيبتني بعد أن قدّمت لي واجب الضيافة، وعرّفتني على بناتها الأربعة اللاتي يدرس منهن ثلاثة في جامعة الإسكندرية.

.. وصلت إلى حي محرّم بك للبحث عن سكن مفروش؛ لأكون قريباً من عملي، تجرّلت كثيراً في الشوارع وبين المقاهي المعروفة بوجود سماسرة فيها إلا أنني أثناء تجوالي نصحني صاحب محل اشترت منه باكو بسكويت بأن أذهب إلى سمسار يدعى كامل في شارع الرّصافة؛ حيث سأجد عنده متنوعاً من الغرف المفروشة فذهبت إليه.. كان يجلس تحت مظلة عند ناحية شارع وحوله بعض الصبية الصغار، الذين يساعدونه في الذهاب مع الزبون إلى العقارات المعروضة، جلست بجانبه قائلاً:

- عايز أوضة مفروشة

- هنا ولاّ فين

- هنا محرّم بك.. الرّصافة.. إمبروزو.. الحضرة..

- مع عزّاب ولاّ أسرة..

- مع أي حد المهم تكون مناسبة
- في حدود..
- المتوسط..
- عندي حاجات بسبعة وبخمس وبتلاتة وفيه بعشرة..
- خمسة كويس..
- خمسين قرش فرجة
- مش كتير..
- دا حق نص كيلو لحمه هو دا سعرنا..
- اتفضّل
- ياواد يا شيكا.. خد الأستاذ فرّجه على حاجة أبو كوثر وأم
فضلول في شارع المستشفى الإيطالي..

.. أعجبتني حاجة أبو كوثر "عم فوزي" حيث تقع الغرفة بالطابق الأرضي وتطل نافذتها على شارع المستشفى الإيطالي، واسعة ذات سقف عال ونافذة مرتفعة كفتحات المندرة، وأضفت صنعة أرضيتها الخشبية مزيداً من سعة وشعوراً بأنها ستكون دافئة في فصل الشتاء.. سرير خشبي قديم تم فرشته بشرشف مزركش ومسند سميك يحجز فرش المرقد عن الجدار القديم للغرفة، ويبدو أنها لم تُدهن منذ وقت طويل.. منضدة متوسطة يتم جرّها في أي مكان بأربع عجلات يحضنها مقعدان من الخشب كمقاعد المقهى، ودولاب تم تصميمه في داخل الحائط به ثلاثة أرفف عريضة تتسع لملابس أسرة، ويعلو الأرفف شماعة تعلّقت بها خمسة مشاجب من البلاستيك.

.. جلس صاحب السكن بجانبني نقدته خمسة جنيهات قيمة الإيجار الشهري خالصة المياه والكهرباء، الرجل في الخمسين من عمره يرتدي جلبابًا خفيفًا بنصف كُم، أعلمني أنه من طنطا، ولكنه وُلد في الإسكندرية ويعمل في شركة النصر للكاوتشوك وليس له من الأبناء غير ابنة وحيدة من زوجته التي توفيت منذ عامين وأنه تزوج من امرأة مطلقة ابنة أحد زملائه في الشركة وهي تصغره بأكثر من عشرين عامًا، وأن ابنته كوثر تدرس في دبلوم التجارة بمدرسة الأميرة فائزة الخاصة..

وارتحت لحديث الرجل وطيبته وصراحته؛ حيث إنني علمت كل شيء عنه في خمس دقائق. وهو لم يعرف عني شيئًا.. أخبرته بأنني سأذهب لإحضار حقيبتني من سيدي جابر فناولني مفتاح الغرفة، وأنه سوف يزودني بنسخة من مفتاح البيت في الغد..

.. ولمّا عدت إلى سكني رتبت ملابسني بالدولاب، ووضعت أوراقني فوق المنضدة، وكان عليّ أن أخرج ثانية إلى الشارع لأتناول طعامي، واشتريت بعدها أطباقًا وأكوابًا وأطعمة جافة وخبزًا.. وتناولت طعامي ثم صليت أوقات اليوم كله بعدها نمت فوق سجادة الصلاة على أرضية الغرفة الخشبية من شدة التعب، وفي منتصف الليل قمت إلى سريري، وأكملت قسطي من النوم..

كوثر فوزي فتاة تقترب من الواحد والعشرين عاماً تعيش في صراع نفسي بعد أن ماتت أمها منذ عامين، وتأزمت نفسيتها أكثر عندما تزوج والدها الطيب من تلك المرأة المطلقة، التي تصغره بربع قرن، كانت تسمع النقار الدائم بين فايذة وأبيها.. وتتعجب كوثر من عادة فايذة الدائمة عندما يخرج والدها إلى المصنع تخرج بعده تلك الزوجة ذاهبة إلى بيت أبيها كما تدعى، إن أبي قد علم بهذا وهو يثق فيها ثقة عمياء، هل هي تذهب إلى أبيها حقاً، أشك في هذه العادة وتحكي.. وأن أسبوع أبي في عمله بالنهار لا تهمد لهما عافية في الشجار والنقار وفي يوم سمعتها تقول لأبي:

- لَمَّا إنت مش أد الجواز بتتجوز ليه
- واحدة تخدمني
- أنا بقه مش خدامة..
- الست خدامة الراجل والراجل برضه خادم لها..
- الكلام ده لَمَّا بيحبوا بعض..
- بلاش كلام العيال ده يا فايذة..
- يعني فقر في كل حاجة.. لا فلوس ولا ..
- أعود بالله من الشيطان.. اختشي..
- شوف أنا زهقت منك ومن بنتك..
- هي بنتي عملت لك إيه.. بنتي في أوضتها مكنونة في حالها..

- عينيها كلها خُبت ولؤم ومن غير ما تتكلم بعينيها بتقول
كل حاجة

- وأنا مالي ومال عينيها.. يعني إنت عايزة إيه..

- أبداً هاعوز إيه..

- أسبوع شغلي بالليل بامشي من هنا وبتروحي عند أبيك من
هنا عايزة إيه أكثر من كده وساعات مابتجيش باليومين..

- أنا تعبت مش قادرة أعيش معاك متجوّزة ومش متجوّزة..

- عيب كده مالك على طول مش راضية..

- طلقني يا فوزي..

- خلاص قولي لأبوك وإذا وافق أطلقك..

- أبويا مش ها يوافق..

- اهدى بقى واستغفري الله.. واحمدي ربنا على عيشتك..

- هاتيحي في يوم تلاقيني موت نفسي..

.. كنت أشعر بالحسرة على أبي، وألزم الصمت الحزين عليه خاصة
أنني أشك في أنّها تذهب إلى بيت أبيها وأبي نوع طيّب من الرجال
يدع الأشياء تذهب على حالها، ولا يتأكد من شيء هنا أو هناك، أبي
رجل عادي جداً لم يحصل على شهادة الإعدادية، وكان يعمل
ميكانيكي سيارات قبل أن يلتحق بشركة النصر لصناعة الكاوتشوك
كعامل فني فيها.. المشكلة يا أستاذ أن أبي رجل بسيط ودماغه على
أدّه..

.. هكذا راحت كوثر تحكي للساكن الجديد ظروفها وحياتها مع أبيها في صباح يوم الجمعة وهو اليوم الثاني لوجوده في بيتهم.. وكان شريف قد استيقظ بعد الفجر بقليل وصلَّى وقته وفتح نافذته وجلس إلى المنضدة يقلب في أوراقه، ويقرأ في كتب التجارة المختلفة، طرقت بابه فهرول من الطارق؟ .. ولما فتح وجدها أمامه فقالت له في حياء:

- عايز حاجة.. أنا بنت صاحب البيت..

- لأ شكرًا.. حاجة زي إيه..

وفتح الباب عن آخره:

- طب اتفضلِّي.. خشِّي.. أهلا بيك..

دخلت مترددة وأشار لها أن تجلس.. جلست وهي تتفحصه متظاهرة بالرقه، التي يلقها الخجل مثل كل بنات أولاد البلد:

- فيه حاجة عايز تحطها في التلاجة..

- لأ مافيش أنا كل اللي عندي حاجات جافة.. الكلام ده لو

فيه طبيخ أو لحمه.. أنا مش باعرف أطبخ أصلاً..

- ياعيني..

- إنت في الجامعة..

- أنا في دبلوم التجارة ثاني سنة في الدبلوم..

- ياه معقولة.. دانا مدرس في إمبروزو..

- أيوه معقولة

- طبُّ أنا ضعيفة في المحاسبة والبيزنس ..
- لَمَّا تعوزي حاجة أنا معاك ..
- أيُّوه جالي الخير لحد عندي ..
- هوَّ فين أبوك وفين مرات أبوك ..
- أبويا نايم بعد ماجه من المصنع
- ومراته
- قالت وهي تهزُّ رأسها وتمتعض:
- عند أبوها ياسي .. اسمك إيه ..
- شريف ..
- اسمك حلو .. إنت منين وفي إسكندرية من زمان ..
- وإنت اسمك أحلى ..
- قوليَّ منين
- من بلد اسمها أشمون ..
- ماعرفهاش .. إنت في إمبروزو من زمان ..
- اتعينت في المدرسة من أكتوبر ١٩٧٠ .. لكن مادرسّتش
- فيها كنت في الجيش الأربع سنين اللّي فاتت .. لسة جاي،
- أول سنة أدّرّس فيها هاروح بكرة المدرسة ..
- يعني إحنا أول ناس تسكن عندهم في إسكندرية ..

- الليّ جابني هنا سمسار الرصّافة.. أول مرّة أسكن في
إسكندرية
 - ياسي شريف إنت منورّ إسكندرية كلّها..
 - إنت أميرة يا كوثر..
 - إنت الأحسن.. إنت قمر ياسي شريف..
 - إنت قمرين ما تكسفينيش بقي..
 - هوّ الراجل يتكسف.. تعرف.. وسكتت..
 - قولي تعرف إيه..
 - أنا كنت قرّبت أطق ولما شفتك دلوقتي عمري ما هاطق..
 - ليه زهقانة من إيه..
 - من أبويا ومراته ومن الدنيا كلّها..
 - امّال أنا أعمل إيه، سايب أهلي كلّهم وجيت بلد غريبة..
 - لأ لا تزعل ولا تحتار.. اسمع ياسي شريف.. و ..
 - وإيه قولي ..
 - كل مازهق آجي أقعد معاك..
 - وأنا هلاقيك فين لمّا أزهق..
 - انده.. قول يا كوثر.. هاكون بين إيديك..
- وضحكت كوثر بصوت عال ضحكة جلّلت الغرفة وسقفها
القديم..

- هايلة يا كوثر..
- هايلة في إيه..
- في ضحكك..
- هوَ إنت لسه شفت حاجة
- طيب بالراحة على يا كوثر دانا غلبان وغريب..
- هاخليك تنسى الغربة والغلب بس على شرط..
- شرط إيه..
- ما تعرفش فائزة مرات أبويا..
- مش فاهم
- ماتدهاش وش ..
- بس الكلام العادي مش مشكلة..
- ولا الكلام العادي..
- طيب مش إنت بتقولي هيَ واحدة طريقها.. يبقى مش
- هاتبص لي..
- دي ما بتسبش حد في حاله..
- أفهم من كده إنت هاتصادريني لكوثر بس..
- طبعًا هوَ فيه واحدة تلاقى واحد زيك وتسيبه..
- كوثر.. هوَ إنت عايزاني في إيه بالظبط..
- أيوه منك.. تبقيه ليّ بس..

- مش فاهم..
- اسمع ياسي شريف بلاش أكل السوق..
- مش باعرف أطبخ..
- أنا أطبخ لك في الأسبوع مرتين وهدومك هاغسلها لك..
- وأبوك ومرات أبوك هايقولوا إيه..
- مالکش دعوة.. إنت بس هات لي الحاجة..
- دا كده كتير.. طيب وأنا هادّيك إيه مقابل التعب دا كلّه..
- ولا حاجة.. عايزاك تبقة بتاعي أنا بس..
- مش فاهم..
- بكرة تفهم.. هو لازم تفهم كل حاجة دلوقتي سيب الدنيا
تمشي وبعدين اتكلم..
- عايزك تفطري معايا..
- يعني عندك فطار..
- عندي..

.. وقامت كوثر لتضع في الأطباق ما لدى من جينة بيضاء وجينة رومي وطورشي وحلاوة، وتناولنا إفطاراً شهياً قدّمته لي تلك الفتاة السكندرية الرائعة والتي دخلت في حياتي مرّة واحدة، وشعرت أنني أملك بيتاً وفيه امرأة تقترب مني بقوة..

.. تكلمت مع كوثر كثيراً حتى اقتربت صلاة الجمعة فأخبرتني بقرب المسجد، وأنه خلف البيت، كما أخبرتني بأن أتى لها بكيلو من اللحم

وبعض الخضار والسمن لكي تطبخه، وأن السوق بعد المسجد بقليل، وهكذا دخلت كوثر مرّة واحدة في حياتي ومن أول يوم في بيتهم، ولم أكن أرغب في رفض أي حديث لها فعاملتها برقة متناهية، وتجاوبت مع كل كلمة قالتها، واعتبرت ذلك من عادات وتقاليد هذه المدينة، وأن العشرة في الإسكندرية عشرة طيبة وما تكون كوثر إلا امرأة منها.. ويبدو أن كل بناتها ونسائها بهذا الود والالطف والحنين، وما جعلني أندمج معها وأساعدتها على قربها مني أنني فعلاً أرغب فيها..

.. كوثر لها وجه خمري وعينان واسعتان كحيلتان وشفافة قرمزية دهنتها بزبدة الكاكو، رسمت حواجبها كما ترسم المرأة المتزوجة لزوجها حاجبين رفيعين كأن قلمًا من الفحم خطّها فوق رموش عينيها.. أسدلت شعرها الأسود على كتفيها وكأنه خيمة من فروع شجر البنت المتدلي فوق سواقي البحر الصغير، ترتدي جلبابًا ربيعياً رقيقاً يظهر ساقين بضتين ولولا قميص داخلي فوق ركبتيها لكان جسدها كله قد انكشف، وكأنها تنتزه على الشاطئ، كوثر فتاة مثيرة ولكنها تدخل واحدة بعد واحدة.. فإذا وجدت الرجل أمامها يفتح لها وينسجم ويتجاوب دخلت إليه فإذا بلغت واحدة ذروتها دخلت واحدة أخرى.. كوثر فتاة هادئة لكنّها جريئة، تتربص ولكنّها تتدبر هي حلوة اللسان ملفوفة الجسد طويلة مشوقة.. كوثر فتاة مثيرة لكن إثارتها تأتي على دفعات منظمّة مرتبة.. كوثر وجدت ملاذها في سي شريف وراحت تغني وهي تطبخ له بل وراحت تتراقص بجسدها السفلي وتتمايل في بداعة مردّدة..

يامّه القمر عالالباب.. يامّه أناديله يامّه القمر عالالباب..

وأخذ صوتها يعلو ويصدح حتى أن جدران بيتها القديم بدت وكأنها تهتز مبهجة..

.. كان يوم الجمعة حافلاً بالتعرّف على تفاصيل كوثر وحياتها مع أبيها وأمها وزوجة أبيها، وكان يوم السبت يشغلني كثيراً؛ لأنه أول يوم أذهب فيه إلى المدرسة حيث سأعمل عملاً مدنياً حُرّاً، وتخيّلت أنني سوف أجد متعة جميلة في التدريس لطالبات التجارة، ولم يكن صباح السبت يختلف عن صباح الجمعة مع كوثر فمنذ الساعة وهي معي أعدت فطوري، وعملت لنا شايًا، وحكيّت لي الكثير حتى أنني رأيت حياتها أمامي خاصة منذ بلوغها حتى وصلت إلى الدبلوم وما كان عندي بعد ذلك إلا أن أقلب صفحاتها الحزينة والمبهجة، وقررت أن أنسيها أشجانًا مضت وأن أكون لها نافذة تجد فيها الأمل والانطلاق والحب نحو الغد، خاصة وأنها تُشبعني ودًا وحنانًا ومساعدتها لي في أول يوم غربة أعيش في بيتها.. وذهبتُ إلى المدرسة فُرب العاشرة:

.. قابلني الفَراش عند الباب، وأعلمته بأنني المدرس الجديد فأدخلني غرفة وكيل المدرسة حلمي ناشد والذي أحسن الترحيب بي وجلست مقابلته وأعطيته أوراقه وأخذ يقرؤها ثم هزّ رأسه نحوي وقال مرحبًا:

- مدرسة إمبروزو اتشرفت بيك

- أنا اللّي اتشرفت بيك وبالمدرسة..

وكلّمًا دخل مدرس علينا عرفه بي فأقوم من جلستي وأصافحه، ونادى السكرتير وسلّمه أوراقه فقلّب فيها وقال في أدب:

- ممكن تيجي معايا يا أستاذ شريف..

تبعته وقمت بالتوقيع والاستيفاء على أوراق الحضور والقيود واستلام العمل في غرفة سكرتارية المدرسة، بعدها أوصلني إلى غرفة الأستاذ ناشد مرة أخرى، الذي ألحقني بلجنة تبييض النتيجة؛ حيث قمتُ ومعى بعض المدرسين إلى غرفة في آخر الممر لنقيدًا في دفاتر طويلة أسماء النتيجة الخاصة بالعام الدراسي الفائت، وبعد ساعات من العمل قمنا بالجلوس في حديقة المدرسة، وتناولنا الشاي والماء البارد، وعرفت مزيدًا من المدرسين والمدرسات، وكانت الزميلة نجوى المغاوري والتي كانت معي في تجارة الزمالك تقوم بالدور الرئيس في مسألة التعرّف على الزملاء والزميلات، ونجوى سكندرية الأصل وتسكن في حي أسبورتج، وهي من عائلة تنتمي إلى الطبقة الراقية في الإسكندرية، كثيرة الكلام ومهزّجة ومضيافة وذلك أسعدني كثيرًا وتحظى بحب واحترام الجميع لها، حتى أنها جاءتني بسيدة الفراشة والحاج زكي رئيس الفراشين لأصافحهما وأعرفهما، ولا أعرف كيف تكون سيدة هذه فراشة؛ حيث تتمتع بجمال بديع لم أجده على مدرسة في المدرسة..

.. ولما غادرنا الحديقة إلى الغرفة لاستكمال التبييض في الدفاتر، استدعاني وكيل آخر للمدرسة يدعى وليم مطر؛ حيث حررت ورقة تفيد بأنني سوف أعمل مدرّسًا للمحاسبة والبنزنس والاقتصاد، وأخبرني بأنني سوف أبدأ بتدريس المحاسبة للصف الأول أمّا مادة البنزنس (وهي مادة التجارة الداخلية والخارجية باللغة الإنجليزية) فهي تدرّس للصف الثالث وكذلك مادة الاقتصاد للصف الثالث أيضًا، وأسعدني ذلك كثيرًا؛ لأنني أحب هذه المواد وزوّدني الأستاذ وليم بمنهج المواد الثلاثة..

- خرجت من المدرسة ومعى نجوى المغاوري وسعاد إبراهيم ونادية جرجس وثلاثتهن مدرسات محاسبة؛ حيث أبدین سعادتھن باصطحابی للتعرف على الشوارع المحیطة بالمدرسة، وأسعدنی ذلك حیث أبدت كل منهن تقدیم واجب الضیافة لی خارج المدرسة، شربنا البارد ومن محل آخر تناولنا الآیس کریم ومن ثالث الشیکولاتة واللبن حتی بلغنا فی سیرنا شارع أبی قیر إلى أن وصلنا إلى کلیة الهندسة فدخلناها وجلسنا فی الكافتیریا؛ حیث عزمنا نجوى على سندوتشات جمبری.. وقضینا وقتًا طویلًا فیہ عرفت أن نجوى آنسة، وهی وحیده والدیها ولها شقیق واحد یعمل فی آمریکا، وسعاد زوجة لضابط بالجیش، ویبدو من قسامات وجهها بعض الحزن ولها جسد بض وتهوی وضع ساقًا فوق الأخرى غیر مبالیة بعری ساقیها المثیرتین وهی فی أغلب الوقت صامتة لكنها تبتسم لما تثیره نجوى المغاوري من حكايات، أما نادیة جرجس فأول مره أجد رقة متناهیة تتصف بها فتاة وهی تحكى لكن حكاياتها قصیره، وبعتری وجهها بعض الحیاء لكنه حیاء جذاب وفاتن، وكانت تقول من وقت لآخر.. عامل إیه.. یاعیني.. عایش إرأی.. إحنا برضه سکندریة جدعان قول بس أي خدمة.. ساکن مع مین.. إحنا فی المدرسة ما فیش بینا إلا الحب..

.. سعدت کثیرًا بحفاوة الزمیلات، واستفدت من معلومات نجوى عن تفاصيل أهم الأحداث، التي جرت فی السنوات الأربع الماضیة حتی أنها قصت حكاية عن كل مدرس ومدرسة وكأننی كنت معهن عامًا بعد آخر.. وشدنی کثیرًا رقة وأدب نادیة جرجس، لكن سعاد فكانت

نظرات عينيها فاحصة نافذة نحوى وكم شعرت بمعنى ضحكاتها الخافتة وهزة رأسها كمن قررت شيئاً في داخلها كالتي وجدت إحساساً ما بداخلها قد وجد ضالته خاصة بعد أن خلعت جاكِتًا خفيفًا. فكشفت عن ذراعين خمريتين جذابيتين، وكنت أسأل نفسي كأنها لم تتزوج فصدرها صدر فتاة يعتلي ساقان رشيقتان، ليس هذا جسد امرأة تزوجت منذ ست سنين مما دعاني عندما قامت كل من نجوى ونادية إلى دورة المياه أن أسألها:

- متجوزة ضابط احتياط ولأً حربية ولأً..

ضحكت وقالت مبتسمة:

- ولأً

- إزاي..

- أهلي خافوا على أكبر ويفوتني القطر فجوزوني راجل
أجيب منه عيال..

- سنه كام..

- أوائل الخمسينيات..

- معاه شهادة إيه..

- ساقط إعدادية..

- وأنت مبسوطه.. سعيدة..

- أهى عيشة.. أنا كسبت منه الولد.. مش مهم الشهادة المهم
يكون راجل بيعيش من حلال ويقدر يفتح بيت.. وأهم من
دا كله يكون راجل يفهم الست عايزة إيه..

- وكل دول مش عنده.. واستطردت..
- .. عنده بيت وقادر يفتح بيت.. بس مش فاهمني ولا بيعرف أنا عايزة إيه..
- فيه رجالة كثير مش عارفة يعني إيه ست..
- ياه دي مشكلة عند ستات كثير..
- شوف أنا متجوّزة.. ومش متجوّزة.. بس خُصت يا شريف..
- كأنك فرقت قنبلة يا سعاد..
- وإيه الفائدة.. هوّ فيه رجالة تفهم كده يا شريف..
- قالتها بود ولمحتُ نجوى ونادية قادمتين فألّقت قنبلتي بسرعة:
- تعرفي لو كنت بنت يا سعاد.. وحياء عينيك الحلوة دي كنت اتجوزتك النهارده..
- أيّوه.. بكفاية علىّ كلمتك دي.. أيّوه ياريتتي كنت بنت..
- كده أنا فهمتك يا سعاد.. تعرفي إنت أهم حاجة لقيتها النهارده.. إنت عندي أحسن من المدرسة ومن كل اللّي فيها..
- أيّوه يا شريف.. كده كثير علىّ أوي..
- على فكرة نجوى ونادية اختفوا.. كانوا جايبين قصادي راحوا فين..
- سيبك منهم يا شريف قول كمان..

- أقول إيه..
- قول إنك عايزني بنت..
- الواقع إنك مش بنت يا سعاد
- قول إنَّك عايزني وخلص..
- عايزك بس إزاي..
- أنا عايزة أشوفك لوحديك..
- فبين..
- بكرة في محطة الرمل.. محطة ترام الرمل بكرة بعد ما نطلع من المدرسة..
- طيب ياللا نقوم ندور عليهم..
- ياللا.. بكفاية كده النهاردة.. أنا مش عايزة أكثر من كده..
- وأنا كمان..

ساق ووجه وعينان جريئتان ونهد عذراء سبب جنوني بسعاد في كافتيريا كلية الهندسة، ومن فرحتي بأحداث هذا اليوم مشيتُ وحدي أقطع الشوارع حتى وصلتُ إلى بيتي في شارع المستشفى الإيطالي فقابلتني كوثر خلف الباب، وكأنَّها زوجتي:

- أيوه.. خُفت عليك.. كنت فين دا كُلّه..
- اهدى.. فيه إيه..

- هي المدرسة لحد المغرب..
- طولِّي بالك..
- كنت مع مين..
- مع زملائي
- فيهم ستات..
- طبعًا فيه ستات..
- اسم الله عليك مين بقى..
- طولِّي بالك.. أنا باضحك معاك..
- طيب خش..

تركنتي ودخلت المطبخ.. خلعت ملابسني، وارتديت ملابس البيت وتوضأت وصليت أوقات النهار قبل أن يوذن المغرب، وجاءتني تحمل ما أعدته من طعام وضعته أمامي فوق المنضدة، وقالت كمن تأمرني:

- ياللا بقى كل..

.. لم أكن أعرف أن ذهابي إلى المدرسة سوف يأتي لي بوحدة مثل سعاد.. كنت أسعد الرجال بكوثر عندما غادرت منزلها في الصباح، وعندما عدت ثانية في المساء فإن زميلتي سعاد هي التي تسيطر على كل ذهني، كوثر هي بنت الشارع الضيق وأبوها هو ذلك العامل المكافح، الذي يرتدي جلبابًا طيلة حياته وبالعافية يرتدي قميصًا وبنطلونًا يذهب إلى المصنع ولو كان بخاطره لارتدي نفس الجلباب وهو يذهب إلى المصنع، وإذا ارتدت كوثر جيبية وبلوزة سعاد لما

كانت بنفس الشياكة والفلذكة والأنتكة التي تتمتع بها زميلتي هذه، إنَّها رائعة دائماً خاصة إذا وضعت ساقاً فوق الأخرى وخلعت جاكثها الصيفي، الذي ترتديه فوق بلوزتها الرقيقة، وشعرت بأن كوثر هي درجة ثانية لكن زميلتي هذه درجة عالية، هي بنت حي المنشية؛ حيث شارع الجمرك فيه تقطن كثير من الأسر التي يعمل أربابها في الميناء والجمرك، وبعضهم يعمل في التخليص الجمركي.. سعاد فتاة كانت من طبقة اجتماعية أرقى كثيراً من اللائي يسكنُ في حوارِي وشوارع إمبروزو وما جاور شارع المستشفى الإيطالي، عامل المصنع غلبان إذا قارنته بمدير في الجمرك أو مخلص جمركي له مكتب كبير، هذا ما دار في ذهني المزدحم وأنا أتناول طعامي وكوثر تجلس بجانبِي، وكأنها تطمئن على تناولي طعامها في هناء، ولكن لماذا هذه المقارنة إنني لن أتزوج امرأة متزوجة وحتى الآن فإن كوثر تلميذة في دبلوم التجارة وهي في الأول والآخر ابنة عم فوزي عامل شركة النصر البسيط الغلبان.. ماذا أريد وما الذي يعنيه هذا الوش الذي يدور في رأسي، ثالث يوم في الإسكندرية وتمتلئ دماغي بهذه وتلك، ولمَّا لاحظت كوثر أنني سرحان وبعيد عنها حتى أنني لم أنظر إلى وجهها مرّة واحدة أثناء تناول طعامها فقالت وهي تقطب جبينها:

- إنت مالك.. عاجبك الأكل..

- آي طبعاً.. ربَّنَا يخليك..

- طيب قولِّي بقي مشغول بإيه..

- أبداً أنا بس جعان قوي..

- هاتعمل إيه بعد الغدا..

- هانام.. فين أبوك..
- راح المستشفى يزور واحد قريينا..
- وفين مرات أبوك..
- لسه عند أبوها من إمبراح..
- وهيَّ عند أبوها بصحيح طريقتك في الكلام بتقول غير كده..
- طالما أبويا راضي وساييها دايرة خلاص..
- طيب قوليله خُليه يشوف مراته بتروح فين بصحيح..
- لو قلت لأبويا كده يمكن يرحمني وهاعمله مشاكل بينه وبين نفسه..
- يعني إنتو ماشيين كل واحد مع نفسه..
- اسمع كل واحد مع نفسه هدو سر
- إزاي مش لازم الناس تعيش ومافيش حد يضحك عليها..
- الحقيقة لو كل الناس واجهت بعضها بالحقيقة بتبقى فيه مشاكل كثير، إنت عارف الحارة اللي جنبنا فيها كل يوم خناقة لرب السما..
- ليه..
- علشان الناس فيها كلُّها شايفة بعضها وكل واحد وواحدة ماسك على جاره شيء وشويات..

- فيه فرق بأن كل بيت يمشيّ دنيته بشكل صح، وكل بيت بعد كده يمشيّ حاله مع نفسه.. المشكلة إن البيوت في الأحياء الشعبية كل بيت مدّخل مناخيره في البيت اللّي جنبه..

- علشان نغيّر الدنيا دي لازم نعمل أحياء جديدة بقي ونجيب ناس تانية

- أنا غلطان يا كوثر مش هاكلّمك على مرات أبوك تاني..
أنا جيت لنفسي وجع دماغ..

.. بعدها انتهيت من تناول طعامي وصلّيت المغرب ثم تمدّدت في سريري وجاءتني كوثر بعد أن وضعت بقية الطعام في ثلاجتها، واتفقت معي على أن تطهو طعامي بصفة دائمة، وأنها لن تتركني أبدًا آكل من السوق، كما أنّها سوف تغسل ملابسي في غسالتها الخاصة بعيدًا عن غسالة أبيها وزوجته.. وتعجّبت على اندماجها معي، وكأنها تعرفني منذ سنين، إنّها تدخل إليّ من أوسع أبواب الحياة حنان ورعاية والتقرب مني بشكل أندھش له، وكأنّها خطيبي أو زوجتي وأنا في الوقت نفسه سلّمت لها قضاء حاجتي، والأكثر أنّها بعد أن جلست بجانبني فوق حافة سريري راحت تتأمّلي مليًا وتركتها تفعل، وأغمضت عيني ومّر بعض الوقت فقامت إلى النافذة وقلّبت الشيش، وتركت الزجاج مفتوحًا وقالت:

- الدنيا برّدت شوية..

ولم أرد عليها.. كان النوم يثقل رأسي فسكتت ثم أردفت ثانية:

- إنت هانتام..

انقلبتُ على جنبي الأيسر وأعطيت لها ظهري فهمست:

- أَعْطَيْكَ

- أَيُوهُ غَطِينِي..

- أَسِيْبِكِ..

- إِنْتِ حَرَّةٌ..

.. ووقفت وغطته بكبريتاية وأحكمتها فوقه وقالت:

- هاسيبك تمام.. أجيلك بعدين..

.. وجمعت ملابسها الوسخة بين كفيها، وأغلقت الباب عليه في رفق، وكأنه طفلها تخاف عليه أن يصحو، ودخلت غرفتها لتضع ملابسها في سلة لتقوم بغسلها غداً، وتناولت طعامها ثم قامت تصلياً بعد أن غسلت أسنانها بمعجون الأسنان، واستلقت بعدها في فراشها، وحاولت أن تتام بعد أن احتضنت مخدتها بين ساقها لكنها لم تنم وراحت تحلم به وهي بين اليقظة والنوم..

.. دخل عم فوزي بيته فلم يجد في غرفته أحداً ودفع باب ابنته فوجدها نائمة وطرق باب شريف فلم يرد عليه أحد.. دلف إلى غرفته ثانية وخلع ملابسها وارتدى جلباب النوم ولم يبال أين زوجته لكنه قال في نفسه.. ياه دا بقى لها يومين.. أخاف يكون أبوها تعبان.. بكرة أروح أشوفه لو ماجتش..

راحت في نومها بعد ساعة من أحلام اليقظة، نامت نومًا عميقًا لم تتمه من قبل لأنها تفكّر بكل مشاعرها في جاراها الجديد وتجدد سرحانها في شريف كلما انقلبت على أحد جنبها، واستيقظت على صوت رافع أذان الفجر في المسجد، الذي يقع خلف بيتهما بقليل، أشهد أني أنثى.. أول مرة أحس بأني ست لما فكرت الليلة قوى في شريف.. هوّ أنا كنت فين قبل كده هوّ اللّى خلّاني أعرف أني ست.. ياريت أتجوز.. أتجوزه وأخلص من الدبلوم اللّى عقطني، أيّوه هوّ الدبلوم هايعمل لي إيه..

.. تناولت ملابس جديدة من دولابها كانت قد اشترتها من شركة بيع المصنوعات بالمنشية، كانت يومها تحلم بأن ترتدي قميص نوم وأخرى داخلية، وتعود إلى غرفتها وترتديها لنفسها كي ترى بنفسها جسدها البض والذي يصرخ بالأنثى فيها منذ أسبوع عندما اكتملت أنوثتها منذ أكثر من عام، وشعرت بها عندما لامسها مدرس المحاسبة وحسس بيده على مؤخرتها أثناء تناولها الدرس عند زميلة لها تُدعى نعمة، احتضنت ملابسها بكفي يديها فوق صدرها، ودخلت الحمّام كي تستحم وتتعطر له، هيّ بتحب ولاّ إيه وراحت تغني.. أغنية.. الحلو ليه تفلان قوي.. لصباح..

.. صدحت بالكلمات بصوت عال لكن لم يسمعها أحد من الجيران، جيرانها في بيوت أخرى وليس في بيتهم ساكن آخر أمامهم أو فوقهم، إنه بيتهم بيت من طابق واحد قديم ورثه أبوها عن أبيه، الذي شيده في أوائل الخمسينيات لابنه فوزي والذي كان له تركته الوحيدة..

.. تعشق ارتداء الجلباب الرقيق التي اشتريت منه خمسة فلبست واحداً منها وراحت تمشط شعرها بعد أن دعت به بزيت، ونشرت خصلات شعرها الذهبي فوق كتفيها.. كانت تريده يتطاير ليراه شريف حراً طليقاً مثل ما كانت أعماق نفسها تنبض بالحرية فهي ولأول مرة في حياتها تشعر بأنها تستحم وتتعطر وترتدي جلبابها الرقيق لتسعد وتبهج رجل حتى أنها قلمت أظافرهما ثم طلعتها حتى أظافر قدميها.. وكريمات للوجه واليدين وأحمر شفاه وزبدة كاكاو كانت مخزّنة في حقيبتها ولم تستخدمها من قبل..

كوثر تتزين كأنها تتزوج في صباح اليوم.. تتزين لأن شيئاً ما قوياً بداخلها يدفعها نحو شريف.. سكن في بيتهم كي تنفرد به وتمتلكه.. لكن كيف تعلقت به سريعاً فهل أصابها جنون الشوق؛ حيث ذهب العقل.. أي عقل، منذ سنين أعيش بعقلي حتى أصبت بالغباء.. أصابني عقلي بالجمود والصمت كأنني طوبية من جدران هذا البيت القديم، أشهد اليوم على نفسي أن يحتضني شريف ويحسس على مؤخرتي كما فعل المدرس، سأنام في فراشه وأدعه يحررني ويطوحنني كما طوحت شعري فوق كتفي، أشهد اليوم أنني مثل بحر هائج فلأدخل إليه لأوقظه على عالمي فماذا هو فاعل لكن كيف وهو في بيتي منذ يومين ألا أخاف أن يهزم من تباريحي ويغادر بيتنا، إذا كان عاشقاً للجمال سوف يأخذني إلى كهف الحب، وإذا كان صلفاً وجلفاً من شباب القرى المفقولين فسوف لا يقدر أي معنى للجمال عندي وقد يقذفني بأفطع الألفاظ.

.. دخلت غرفته حافية من شدة حرارة جسدي فلم أستطع تحمّل شيء في قدمي، إن دفناً يصرخ في جسدي يجعلني أذهب إليه حافية،

فرحمة في جنوني توقفت ودخلت إليه متحفظةً مهذبة بردائي الرقيق
والقدم الحاف يثير كما يثير الكحل في عيوني والعطر في ثنايا
جسدي.. أنا مازلت بنت فوزي الرجل الهلهلي الغلبان العامل في
مصنع.. نسيت أن أصلي قبل الدخول إليه فهل خريطة الحلال
والحرام في داخلي تاهت، هل ثورة في جسدي أنستني ذكر الله،
أزلزال الجسد أغرقني في عالم النسيان وغداً سيحرقني.. من يشعل
النار ومن يطفئ ناري إلا شريف..

.. دخلت تتحسس أرضية الغرفة بقدمين حافيتين.. كان ما زال نائمًا
ولم يدر بها، جلست عند حافة فراشه وهمست وأنا أمدُّ أصابعي
وألأمس كتفه:

- شريف.. شريف..

.. استيقظ ونفذ عطرها إلى أعماق صدره.. هرش في رأسه وجال
بناظريه فاندesh ومدَّ كف يده وأمسك بذراعها وطفق:

- مين..

- كوثر يا شريف..

- لأ إنت مش كوثر..

- هو أنا.. بس..

- بس إيه..

- أنا الصبح..

- هو إنت إسكندرية..

- أيوه..

- عمري ما شفت كده..
- ولسه هاتشوف..
- كده مش هاعرف أذاكر منهج التجارة..
- ذاكرني الأول..
- مش هاقدر.. إنت كوثر صحيح.. كوثر بنت عم فوزي..
- أيوه بس النهاردة غير امبارح..
- هاتبقى كده على طول..
- شجّعني..
- بس كده هاروح في داهية
- ليه هوّ إنت هاتنتحر
- ها ضيع..
- خلاص هارجع زي إمبارح..
- لأ خليك كده.. بس أنا غلبان مش هاقدر على كده..
- لمّا الراجل مايقدرش.. لمّا شريف ما يقدرشي أروح لبنت
زيّ
- أنا غلبان زي أبوك..
- لو كنت زي أبويا عمري ما كنت هاعملك كده
- فائزة مراته مش بتعلمه..
- لأ فائزة بتعمل كده لما بتروح عند أبوها..

- أمك عملت كده لأبوك..
- ما شفتهاش .. أصل فيه ماركة من الستات ماتقدرش تعمل كده
- وأبوك كان ماركة زي أمك..
- كل الماركات الغلابة البيومي مابتعرفش تعمل..
- وإزاي إنت بنت الغلابة دولت عملي كده..
- بيخلق من ضره الجاهل عالم..
- سبحان الله.. لسه سنك واحد وعشرين سنة وهائلة بالشكل ده..
- صحيح عجبتك..
- دا انت رهيبة يا كوثر..
- طيب حبّني..
- مش فاهم أحبك إزاي..
- خش جوّه شوية.. خدني جنبك..
- تعال .. والمدرسة..
- لسه بدري وبعدين دي عودة بتروحوا تقعدوا في الجنينة..
- أنا خايف يا كوثر..
- أيوه عليك.. شوف بص قرّب ضمّني.. شوف أنا حلوة إزاي يا شريف..

- أيوه بس..
 - بس إيه.. دا إنت جيان قوي..
 - هيّ دي إسكندرية..
 - اسمع إسكندرية زي مصر زي المنصورة..
 - يعني كل البلاد كده..
 - أيوه يا شريف هوّ أنت عبيط ولأ إيه..
 - أنا فعلاً عبيط لأنني مش عارف حاجة..
 - وأنا زيّك..
- وراحت كوثر تخلع جلبابها.. فأطلق نفساً من أعماق صدره وطفق كأنه يزعق:
- يا خرابي.. أيوه..
 - إنت كده ها تعرف تحبّني.. قول معايا أيوه..

تركها وذهب إلى مدرسة إمبروزو واشترك مع زملاء الأمس في تبييض النتيجة، وما أسعده أن سعاد ونادية انضمتا إلى اللجنة وعملا معه وكالعادة جلسوا جميعاً في حديقة المدرسة بعد الانتهاء من عمل هذا اليوم، ومَرَّت قرابة الساعة حتى إنصرف الجميع إلى بيوتهم عدا سعاد التي ذهبت إلى محطة الرمل تنتظره هناك حسب اتفاقهما يوم الخميس..

.. كان غريب على نفسي أن أترك كوثر صاحبة البيت عارية فوق سريري والتي أعطتني في صباح هذا اليوم من نفسها وجسدها ما زاد على قدرتي في ممارسة الحب، غريب على أن أذهب إلى امرأة أخرى في محطة الرمل ولا يقنعني امرأة في بيتي ملكتني نفسها، وكيف أذهب إلى امرأة متزوجة.. مالذي تريده سعاد وماذا أريد أنا؟ أفتحت أبواب النساء بلا حدود، أكنت محروماً في القاهرة فكان جنسي بلا حدود في مدينة البحر الكبير.. أشهد أنني جننت حين اندفعت نحوي فصافحتها وتركت كفَّ يدها في يدي فضغطت عليه بأصابعي.. هي التي أخذتني إلى مقهى الرمل المطل على الكورنيش ناحية شارع سعد زغلول.. جلست أمامي صامتة لكن عينيها تقولان الكثير وأنا أتململ في جلستي تارة وأخجل ثانية لكن شيئاً مثل خاطر الشعر ألم بي فقلت هامساً في محاولة للطير بها:

- يا سيدتي تتركين شعرك هكذا يطير حول وجهك ولا تعرفين أنني أهيم بشعر النساء لماً يرفرف هكذا..
- اسألني من أنا؟ حتى أعرف من أنت؟..

- أنا غريب يسكر من الهوى..
- وأنا أبحث عن الهوى منذ زواجي الأغبر، فلا دليل على زواجي من رجل إلا هذا الابن..
- في عينيك ينغمس الكحل وفي وجهك يتوه من يطرق بابك..
- لم يطرق بابي أحد أحبه حتى اليوم..
- لماذا تأتيني اليوم..
- فيك غرابة وهدوء وفي وجهك قرأت من ينقذ الهوى من فقدان الأمل..
- وجهك حكاية وجسدك غابة شائكة تجرح من تمتد يده إلى فروع أشجارها..
- أريدك..
- هل أنت عاشقة..
- أبحث عن الهوى في رجل يعشقتني..
- منذ متى وأنت تبحثين عن ذلك الهوى..
- بعد الأسبوع الأول من زواجي خرجت من مشاعري.. خرجت من كل مشاعر المرأة التي تتمنى أن تجد في زوجها ملاذًا لما في نفسها من شوق والذي أخرجني هو زوجي والذي جنى عليّ هو أبي وأمي..

- أسألك عن الكثير والوقت اليوم غير كاف، ولكنني سوف أترك أسئلتني تحت خصلات شعرك..
- لن أجيب على سؤال واحد تتركه.. خذني حيث تجد الإجابة بلا كلام..
- إلى أي مكان آخذ امرأة مثلك فليس لي في المدينة غير غرفة مشتركة في بيت رجل مكافح وتحرسه فتاة تقتل من يقترب مني..
- بعيدًا عن بيتك هذا وعن أي امرأة تراك معي.. تعال أنت..
- إلى أين يا امرأتي..
- إلى بيتي.. أو إلى بيت أمي..
- أيتها البحرية أنت تأخذيني إلى حيث قتلى..
- أنا مجنونة بلا حدود..
- منذ متى..
- منذ رأيتك يوم الخميس..
- أليس من المجنون أن أكون عاشقًا لامرأة متزوجة أو صديقًا لزميلة في عملي..
- هذا شيء عادي.. إن أحدًا لن يدرى بي وأنا معك..
- لماذا أتيت لأقابلك هذا اليوم..
- أسأل نفسك يا شريف..
- احلف أنني أعشق نوع المرأة التي تختلف مثلك..

- بماذا اختلفت عن الأخريات..
- أشهد أن لا امرأة مثلك في مدينة البحر هذه..
- شهادة تسعدني.. إذا أنت عشقت نوعي..
- أنا لم أعشق بعد.. لكن شيئاً فيك يأخذني..
- إن العشاق في هذا العالم يبحثون عن امرأة مثلي ليتعلموا العشق..
- بالأمس كنت بحرًا من بحور النساء..
- لا أفهم..
- يبدو أن كل يوم في بلادكم تكون امرأة.. إنني أشعر أنني لا أستوعب كل هذا الغرام في حياتي..
- لا تظن أن مدينتي تمتلئ بنساء مثلي..
- شعرت بهذا ولمسته في مدرسة إمبروزو.. يعني إيه إمبروزو؟
- إمبروزو عالم إيطالي سوف أحكي لك حكايته في يوم آخر..
- على فكرة يا سيدتي ليس في المدرسة إلا أنت كنوع من النساء ونادية جرجس كنوع آخر منهن..
- أنا اختلفت عن نادية..
- أعرف نادية مثل ثوب حرير رقيق وهي لا تتكلم بجسدها..

- إنَّها سكندرية راقية ويساعد على رُقيها أنها حسنة الملامح، وتحسن الحديث بكلمات مهذبة ورغم إمكانياتها الجميلة فهي متدبنة وتواظب على حضور قدّاس الأحد في الكنيسة والاستماع إلى دروسها..
- ونجوى.. نجوى كانت زميلتي في تجارة الزمالك..
- نجوى كثيرة الكلام لكنها محبوبة من الجميع بشكل عام ولكن عيبها.. وسكنت..
- عيبها أنّها تريد أن تتزوج بالعافية، ولكن هذا العنف الاجتماعي الذي يأخذها إلى الرجال لا يجعل الرجال يقبلون عليها؛ لأنها تندمج مع الجميع أضف إلى ذلك أنها ليست جميلة الوجه ولها جسد رفيع يشبه جسد امرأة عجوز.. فهي امرأة ليس لها معالم..
- هكذا أنت يا سعاد لم تترك شيئا في غيرك إلاّ وفصلتني تفصيلاً..
- يا شريف أنت تأخذني بعيداً.. أشبعتني شعراً وكلمات ملأتني غروراً والآن تتكلم عن الأخريات، وتجُرّني إلى أمور لا تهمني.. لماذا لا تنزل معي إلى أرض الواقع..
- خذيني أنت إلى الواقع الذي تحببته..
- تعال معي..
- أنا معك منذ ساعتين فيها شربنا كل مشروبات المقهى أليس لنا الآن أن نذهب إلى بيوتنا..

- لا.. هذا لا يفيد تعال معي إلى أي بيت من بيوتي..
- ألك بيوتاً غير بيتك..
- بيت أمي وبيت أخي المسافر وبيت أختي الأرملة..
- إلى البيت الذي لا يرانا فيه أحد..
- هكذا أنت واقعي ودعك من الكلام أريدك رجلاً واقعياً، أنا امرأة في حاجة إلى رجل يخلصني من معاناتي التي طالت.. إلى رجل يعشقني وأعشقه.. أريد أن تكون أنت..
- بدون مجاملة.. أنت امرأة تروق لي.. وجديرة بالعشق..
- انتهينا.. وصلنا.. تعال إلى بيت أمي..
- .. أخذتني والهوى إلى شقة أمها.. حيث كان الهوى يغلي ويختمر..
- .. امرأة شهية بهية مازالت فتاة مثل فتاة تعبت بجسدها في غرفة مقفلة، وكسرتُ صنم الحيرة في داخلي، وخلصتُ أنه لماذا لا تكون هي امرأة خلوقة وأنا رجل فاضل.. لماذا لا تكون هذه هي الفضيلة.. أسقطتُ في نفسي كلمات كانت تدعو إلى التقاليد والعادات القديمة، أليست الفضيلة في داخل نوازعنا التي ولدنا بها إذا استجبنا لها لماذا لا تكون هذه قمة الفضيلة، في بلاد بعيدة هناك يحاكمون من اغتصب امرأة غصباً عنها وفي بلادنا يحاكمون لقاء الرضا والقبول وكلاب الآداب يعيشون من تجارة الأدب في حرية الناس من تجارة قلة الأدب والسفالة، إننا بائعو أدب ولسنا أصحاب أدب أو فضيلة..
- هكذا جال بخاطري وأنا مع مدرسة المحاسبة زميلتي زوجة ضابط المخلة أركع وأسبح في عشقها بشقة أمها المريضة القعيدة، التي لم تستطع أن تبرح فراشها وتشاركنا طعام الغداء، الذي أعدته سعاد

بصالة البيت والذي يقع في أحد شوارع المنشية القديمة، سعاد ابنة عمي إبراهيم الشلقاني، الذي مات منذ عشر سنين والذي كان يعمل مديراً بجمارك الاسكندرية..

وهو في الأصل ابن دمنهور بالبحيرة لكن أبناءه جميعاً ولدوا في مدينة البحر الكبيرة، وعشقوا حياتها رغم أنها تمتلئ بالصخب، ولم يذهبوا إلى دمنهور موطن أبيهم أبداً في حياته أو بعد مماته، سعاد هذه كانت الفتاة الرائعة الجمال والتي دخلت تجارة طنطا، وكانت تذهب لدراستها يومياً بالقطار فتعرّفت على كثير من ركابه، الذين يذهبون إلى طنطا ويعودون كل يوم إلى الإسكندرية وهي في صحبتهم..

- أنت امرأة كالعذراء يا سعاد..
- هكذا رأيت بعينيك..
- أنت حمامة..
- ولكن حمامة حمراء
- ألم تستمتعي من قبل بهذا الجسد
- أنت اليوم من أشعربي بأن لي جسداً.. وما زال في مدينتي رجال..
- أليس من العيب أن تكوني مدرسة تدرّس للتلميذات وتكوني عاشقة لمدرس زميل لك.. وأن تكوني زوجة.. في كل هذا وتذهبين في غيِّك وتصبحين عاشقة فاجرة..

- إنني لم أدرّس للتلميذات أن يكن عاشقات.. وإذا لم تكن زميلي فإنني كنت أبحث عنك في أي مكان تكون فيه لأتخذك عاشقاً، وإذا كنت زوجة عاشقة فلستُ أنا الوحيدة ففي كل مدينة تمارس المئات هذا الشأن..
- أليس لي أن أذهب إلى بيتي.. لقد حَلَّ المساء..
- ليس لك أهل يا شريف ينتظرونك..
- يعني..
- خليك معايا الليلة..
- وزوجك وابنك
- في مرسى مطروح
- .. وابني مع خالته.. أختي الأرملة..
- وأمك ألا تتدهش من وجودي هنا طيلة الليل..
- إنها لا تدري بشيء..
- بهذا الحال ذهبت الدنيا بك.. بلا حدود..
- أجمل ما في حياتنا أن تعيش بلا حدود لكن دون أن يدري بك أحد..
- هذه ليلتي يا شريف..

.. منتهى الحضارة مارست الحب معها.. في تلك الليلة عرفتُ أن للحب عدة حضارات وفي كل مدينة نوع من الحب، وأن عشقها في بيت أمها نوع من المنتهى بلا مسافات تتسع له كل الحدود ولا يدري بك أحد.. إن أحد كنوز الحب أن تدعوك امرأة بحب وأن تعشقها دون أن يتجاوز أحد معك الحدود أو يطرق بابك، وأنه لو عرف زوجها أن يحبها بلا حدود أو حتى إلى حد الكفاية لما ذهبته هي مع أحد يقيم معها حدودًا أخرى.. وعرفت من هذه الليلة أن هناك امرأة ترتبُ جسدها وتتقفه وإمرأة أخرى تقدّم جسدها كالكلب المسعور، لم أكن أملك رسمها أثناء لقائي معها لأقدمها لأهل المدينة نموذجًا للحب وتمثالاً كآلهة الحب المنحوت.. إن أهل مدينتي فقراء إلى الخبز، الذي يشبع بطونهم وفقراء؛ لأنهم يعتبرون الحب طعامًا يغني بطونهم عن الخبز، إنهم فقراء؛ لأنهم إذا شبعوا من الطعام فإنهم لا يذهبون إلى الحب ولذلك كان حرمانهم من الخبز ضروريًا لكي يذهبوا إلى الحب، ولكنهم إذا ذهبوا فإنهم يذهبون إلى الحب كالكلاب المسعورة والقطط المطرودة من البيوت، إن الحب في مدن أخرى بعيدة عن الحدود يذهبون إليه قبل الطعام؛ لأن الطعام موجود ولا تنهيه أنياب قذرة، إننا لا نعرف كيف نضع للحب شيئًا؛ لأننا نذهب إليه ونحن غير أمنين على رغيف العيش..

.. لا أعرف كيف أنني وصلت إلى ذلك المعنى وأنا أمشي من بيتها إلى محطة الترام لكي أعود إلى بيتي في شارع المستشفى الإيطالي.. أشبعنتي سعاد كلاً وشوقاً وأنغاماً يعجز لساني عن وصفها.. سعاد حضارة جديدة عرفت فيها ابواباً جديدة في معاني الحب ودروب العشق، الذي لم أكن أتخيله في شوارع المنشية القديمة..

- إن هذه المدينة غنية بأحيائها التي تقدّم أنواعًا من الحب، إنني لم أكن أتوقّع أنّ للحب مكانًا آخر في غير قلبي، إن معظم الناس حولي والذين قابلتهم في حياتي مشاعرهم في داخل صدورهم وقلوبهم تظلّ تخزّن معاني الحب حتى يمسحها عامًا بعده عام، ولا يجد الشعب الفقير مكانًا لتفريغ مشاعره، إن مدينة القاهرة التي كُنْتُ أعيش فيها كانت أكثر حبيسًا ودفنًا للحب منها عن مدينة الإسكندرية، الذين وجدوا أمكنة أخرى في بيوتهم وشوارعهم، وكان شاطئ البحر يساعد على ذلك؛ لأنه ممتد بطول المدينة.. وأن في الإسكندرية أناسًا قد تأثروا بمرور السنوات برغاب البواخر، الذين ينزلون فيها ويأتون من بلاد أخرى لم تكن قضيتهم هي نفس قضية أهل بلادي التي ما زالت التي تحبس الناس في فقر الحصول على رغبة فيضيّعون أوقاتهم في المعاناة حتى لا يبقى وقت للبحث عن الحب فيظل الحب حبيسًا في الصدور حتى يموت..

.. إنني في ثلاثة أيام عشقت امرأتين ولم أستطع الفرار منهما فهل تخبئ الأيام حظًا آخر مع امرأة ثالثة.. إنني لا أريد، وهذا يكفي لكنني أجد نفسي ضعيفًا أمام كل امرأة سكندرية فيها لفتة من جمال طبعه رذاذ البحر على وجهها وتركته ملوحة الموج فوق شفثيها وفي نظرة عينيها حين كانت تسبح في البحر منذ كانت صغيرة حتى سكنت الجاذبية فيها سكون البيت لمّا كبرت وأصبح في كل وجه امرأة موج يسحبك لأن تغوص في بحره..

.. كانت كوثر ابنة الطبقة العمالية والتي تعيش في هذا الحي الشعبي الملاصق لأحياء أخرى راقية إنَّها تحاسب من وجدت نفسها في سريه محاسبة امرأة لزوجها، وكانت الساعة تقترب من السابعة والنصف، كان الباب مواربًا وهي تنتظر خلفه لمّا سمعت خطواته تحت الدرج

وبعد أن قفل الباب الخارجي، دخل وهو يتوقَّع أنها تنتظره خلف فتحة الباب، ولم تمهله أن يتفوه بكلمة:

- كنت فين.. طول الليل رُحت فين..
- أبدأ.. كنت عند بنت عمي..
- بتعمل إيه..
- أصل جوزها تعبان قوي وقلت أقعد معاها للصباح لأن حالته متأخرة..
- ليه ماكلمتنيش في التليفون مش عارف إن فيه واحدة مستنياك..
- اهدى بالراحة.. هو إنت هاتحاسبيني حساب الملكين..
- اسمع هي دي عشرتتنا.. لمّا واحد نحبوه.. اسأل عليه وبيقى بتاعنا بلحمه وشحمه..
- .. كان مندهشاً ولم يكن وراءه من خلاص إلا أن يكذب، وراح يخلع ملابسه وهي تأخذها منه وتعلّقها في الدولاب.. سكت ولم يجد كلاماً يقوله، ولكنه راح يندهش ولمّا ألقها صمته قالت:
- هاتنام ولاّ أسخن.. الأكل..
- لأ مش هاتنام المدرسة الساعة عشرة..
- طيّب أحضّر الفطار..
- أيوه..
- اتشطّف على ما حضّر الأكل..

.. كان يجب أن يستحم حتى يصلّى ولمّا انتهى جاءها في الغرفة فصلّى الصبح وكان يريد أن يبكي بعد صلاته.. لكنّه حبس دموعه.. تناولت طعامها معه فوق فرشة فرشتها بالأرض بناءً على طلبه حتى تبقى الكتب والأوراق كما هي مرتّبة فوق المنضدة.. وراحت تعمل الشاي ونظّف أسنانه بالفرشاة ثم ارتدى الملابس التي يذهب بها إلى المدرسة بعد ساعة وتمدّد فوق سريره وجاءته بالشاي، وجلست إلى جواره في شوق، وكان صوتها مبجوحًا وكأنّها ستبكي:

- بخاف عليك ياريت ماتباتش برة ثاني..

- مش واجب أبقى جنب بنت عمي لغاية لمّا جوزها يموت..

- حرام عليك هاتموت جوزها ليه..

- أصله تعبان قوي..

- هيّ سنها كام..

- فوق الأربعين بشوية..

- حلوة..

- سيبك من الكلام ده بنت عمي زي أختي..

- طيب خلاص..

وراحت تحتضنه وتلامس شعره بأصابعها، وكأنها تمسّطها بأظافرها المطلية باللون النبيتي..

ثم احتضنته بذراعها فسلم لها جسده وهمس:

- على فكرة هامشي بعد ساعة..

- وأنا..
- إنت إيه..
- عايزاك..
- طيب لَمَّا آجي..
- مش قادرة..
- حاولي..
- أحاول إيه هُوَ بعد ما شفتك ما قدرش أبعد عنك يوم واحد..
- طيب والحل إيه..
- ما بلاش تروح النهارده..
- لأ ماينفعش..
- طيب احضني قوي..
- أبوك فين..
- راح المصنع..
- ومراته..
- من إمبراح عند أبوها..
- يانهار إسود وهابتته سايبها كده..
- هُوَ حر مالناش دعوة بيها..
- طيب سيبيني أغفل شوية..

- أَعْطَيْكَ ..

- غَطِيئِي ..

- هَاغَطِيَّكَ بِحُضْنِي ..

- يَاخْرَابِي مِنْ اللَّيِّ جَارِي ..

.. كانت كوثر تعبت بأصابعها في جسدي فقامت بعد أن تركتها وقتًا فيه كان يجب أن أقوم حتى لا أدخل الحمام لأستحم مرّة أخرى فقالت وهي تكتم غضبها:

- كده.. طيب..

- طيِّب إيه يا كوثر مانا جاي مش تعقلي شوية..

- هو إنت خلّيت فيّه عقل..

- طيب اهدى..

وارتدى حذاءه وأمسكها من ذراعها فوقفت إلى جانبه فاحتضنها وقبّلها فذابت في أحضانه وترنّحت بين ذراعيه فقال:

- خلاص بقى. أنا جاي ياكوثر..

- اوعى تتأخر أحسن هاموت لو اتأخرت تاني..

- ٧ -

تعرفت على كثير من المدرسين والمدرسات غير الذين كنت أعمل معهم في اللجنة أو أجلس معهم في الحديقة، ولكنّي تعلّقت أكثر بشلتي النسائية نادية وسعاد ونجوى، ولم أكن أميل إلى مصاحبة

الرجال طيلة عمري، ونمی هذا الميل أكثر عندما كبرت وأصبحت
قادرًا على اتخاذ قراراتي في ذلك الخصوص، وعندما جلسنا في
الحديقة أبلغتني نجوى بأن سعاد اعتذرت اليوم عن المدرسة؛ لأن
زوجها جاءها فجأة من معسكره في مأمورية بالإسكندرية، وغمزت لي
نجوى بعينها فاندهشت ولمّا اقتربت منّي وجلست بجواري قلت لها:

- بتغمزي ليه..

فردت بكلاحة:

- هوّ أنا مش واخدة بالي يا شريف..

- بالك من إيه يانجوى..

- كافتيريا كلية الهندسة شاهدة عليكم..

- كلنا كنّا قاعدين مع بعض..

- أيوه.. لا عينك اتشالت من عليها ولا هيّ كمان دا غير
التسبيل وغير رجل على رجل.. كانت قاصدة تُحط رجلها
قوى على بعضها كل شوية علشان تغريك وتشوفك هاتحس
بيها إزاي..

- لأ كده يا نجوى إنت بتألّفي عليه وعليها..

- بقولك إيه إنت عاملها مشكلة ليه.. أنا بس بقولك الصنارة
غمزت قوي يا شريف..

- حرام عليك يا نجوى دا إحنا زمايل من زمان..

- وأنا قلت حاجة.. بس خلّئي بالك أحسن تقع قوي على
اسنانك..

- كل الكلام ده مالوش أساس وأنا بعامل الكل زي إخوانتي..
 - طيب يا شريف إنت زعلت..
 - أبداً أنا بس عايزك ما تخليش خيالك بيبعدك بعيد قوي..
- وكانت نادية تهدي مجرى الحديد قائلة تحاول وقف نجوى عن كلامها:
- وبعدين يا نجوى.. بطلّي افتراء يابت.. داخنا زمائل مافيش بيئاً الكلام ده..
- .. قفلت مع نجوى وكشّرت واتجهت بناظري نحو مدخل حوش المدرسة فهولت نجوى ناحية غرفة الإدارة فاقتربت نادبة مني، وجلست على مقعد بجواري قائلة وهي تلامس بأصابعها رذن قميصي:
- تعال يا شريف نطلع برة علشان نغيّر الجو ده.. أصل نجوى دي بايخة وحشرية..
 - إحنا كده خلّصنا المدرسة..
 - كده خلاص.. أنا هاطلع من المدرسة الأول وتعال ورايا هاستنّاك عند محطة الترام اللّي رايح محرم بك.. عارفها..
 - عند سوق السمك..
 - أيوة.. تعالي ورايا على طول..
 - ركبنا الترام إلى محطة مصر وهي تقف في آخر حي محرم بك ومشينا قليلاً حتى أول شارع النبي دانيال، سرنا فيه حتى منتصفه، ودلفنا في محل يشبه مقهى ريش في طلعت

حرب بالقاهرة، كانت المقهى خالية من الزبائن وأخبرتني
نادية بأن زيوها زبون ليل من متوسطي وكبار السن فقلت
لها وأنا أنعدل في جلستي:

- صوتك ينادية مثل رذاذ المطر الدافئ..

.. ضحكت بملء فيها فصدح صدى قهقهتها فراغ المحل فجاءنا
الجرسون منحنيًا في أدب:

- تحت أمركم..

فقالت نادية:

- تشرب معايا شاي مع حنة جاتوه..

- زي ما إنت عايزة..

- عايزة أعمل معاك واجب أي واجب خاصة بعد ما قلت
إتلك من شبرا مصر..

- ليك حد هناك..

- أمي من شبرا وأخوالي وأعمامي كلهم ساكنين وراء سينما
التحرير..

- شبرا مصر بتسمّع في كل حنة.. إنتو من زمان في
إسكندرية..

- أنا اتولدت هنا ورُحِت شبرا مرتين بس مع أمي بعد وفاة
أبوي..

- بابا مات إمتي..

- من عشر سنين..
- في إمبروزو من كام سنة..
- من سبع سنين..
- مبسوطه من تدريسك المحاسبة..
- طول عمري بحب المحاسبة..
- بتدي دروس..
- حاجات بسيطة مجموعتين أو ثلاثة في بيتي..
- إيه رأيك في جو المدرسة..
- المدرسين بيعادوا بعض على حصة أو درس.. سباق رهيب وتتافس على جذب التلميذات بأي شكل.. وإنت لازم تدي دروس..
- مش عارف هاعمل إيه لما الدراسة تبدأ هاشوف الدنيا فيها إيه..
- إنت معاك محاسبة أولى وبنس ثلاثة..
- طول عمري باحب المحاسبة وكنت في البنس شاطر..
- الإثنين فيهم دروس..
- تصدقي أنا مش بحب المدارس من صغري، وأنا اضطررت أقبل تعييني كمدرس علشان عرفت أن كلُّه داخل الجيش وكان قبولي مفيد؛ لأن كل من يعين قبل تجنيده يصرف له

مرتبته من وظيفته بعد قضاء مدة التجنيد وهي بالنسبة لي
سنة واحدة..

- كويس تصرّف صح.. وكام سنة استقدت من تعيينك قبل
الجيش..

- ثلاث سنين..

- على العموم شوف يمكن التدريس يعجبك..

- والله مش باين أنا تخصصي أصلاً محاسب وأي فرصة
هاسيب التدريس..

- طيّب إيه رأيك نغيّر الموضوع شوية.. إيه رأيك في نجوى
وسعاد..

- نجوى عايزة تتجوّز بأي شكل كل ما يبجي مدرس جديد
تعمل معاه حكاية وهي المشكلة إنّها مش حلوة زي ما أنت
شايف وهي اجتماعية وأهلها أغنياء لكن كُتر دخولها في
شئون الآخرين بتخليّ الناس كلّها تسيب لها فارغة.. شوفها
عملت معاك إيه..

- هيّ لمّا كانت طالبة في تجارة الزمالك كانت خفيفة كده
برضه..

- إنت خاطب يا شريف..

- أبداً هاخطب بإيه دانا طالع من الجيش منفض..

- وأنت مخطوبة..

- الخطوبة عندنا صعب قوي.. شوف بقى لي سبع سنين
باشتغل ولا واحد قال لي أنت مين..
- على فكرة الدنيا ماسكة قوى علينا كلنا وعملية الخطوبة
والجواز مشكلة لكل الشباب..
- إحنا عندنا أكثر كمان لقلّة الشباب شوف مدرستنا كل
زمايلي الأقباط متجوزين..
- مافيش قرايب ولا جيران..
- والله ما فيه خرم إبرة جاي منه شاب حتى ولو مش
مناسب.. الدنيا زي ما قلت ناشفة قوي..
- والحل دي مشكلة الكل..
- الحل إن نحب على ما نتجوز..
- ياريت يا نادية كنت..
- وأنت ياريت كنت..
- على فكرة أنت رقيقة قوي وكل حاجة فيك حلوة وجميلة
حتى في كلامك مرتبة ومنظمة..
- مرسى يا شريف أنت بترفع من معنوياتي أول مرة واحد
يقول الكلام الحلو ده..
- دي حقيقة..
- تعرف أول ما شفتك حسيت إنك حاجة تانية خالص غير
مدرسين المدرسة كلهم..

- إنت بتجامليني قوي يا نادية..
- دي حقيقة.. تعرف أول ما شفتك حَسيت إنني لازم أعرفك أكثر من كونك زميل..
- وأنت كمان.. أنت نموذج بيختلف كثير عن مدرسات المدرسة..
- بس أنا خايفة عليك من ستات إسكندرية خاصة عايش لوحديك..
- طيب وهاعمل إيه.. خَلَّيها تمشي بقى زي ما تمشي.. لكن.. لكن..
- سكتُ ليه قول.. لكن إيه..
- أبدأ إيه رأيك في سعاد..
- سعاد دي غامضة قوي.. عندها مشاكل مع جوزها وحكت لي كثير عن موضوعها..
- هي إيه المشكلة عندها..
- أبدأ اتجوزت واحد ساقط إعدادية ومش المشكلة في كده بس المشكلة إن مافيش أي انسجام.. وهي تقريبًا لَمَّا اتخطت الثلاثين زي أي بنت أهلها زَقَّوها على جوازَة وخلص..
- غريبة حتى هنا في إسكندرية نفس العادات والتقاليد اللِّي في بقية البلد، المفروض إن إسكندرية يبقى ناسها غير كده..

- أبدأ لأن الناس هيَّ الناس .. الأدمغة والأعراف والعقد
الاجتماعية هيَّ هيَّ مابتتغيرش بتعيرُ البلد..
- والحل إيه..
- نحب.. الناس كلها دلوقتي بتدور على الحب عن العلاقة..
- برضه الناس بتحب في الدرا.. وإسكندرية زي الصعيد..
- طبعا علشان العرف والتقاليد.. كتير قوي من الرجالة
والستات عاملين علاقات لكن من ورا بعض..
- هو دا الصح..
- هو فيه حد عارف إيه الصح وإيه الغلط.. الناس في الآخر
مابتختارش لكن فجأة بتلاقي نفسها بتعمل حاجات في
نفسها بعد ما صبروا كتير..
- وأنت لسة صابرة يا نادية..
- كل اللِّي باعمله باروح الكنيسة أصلي وأدعو..
- برافو إنت عارفة إمبارح بعد ما صليت بكي.. بكي
قوي..
- ليه إنت عملت حاجة..
- أبدأ بس الإنسان بيؤك نفسه مع دموعه..
- أنا مرتاح معاك قوي يا نادية..
- وأنا كمان..

.. ضحكتُ بصوت عالٍ كما ضحكت سعاد في فراشها وبدت تختلف
عما كانت في المدرسة وقلت معجباً برنين ضحكتها:

- خلاص تعالی كل يوم..
 - ياريت.. ياريت أشوفك كل يوم..
 - كل يوم بنشوف بعض في المدرسة..
 - عايزة أشوفك بره كل يوم لو بخاطري..
 - أنت رقيقة قوي ينادية..
 - ياه أد كده أنت بتریحني..
 - ولم أستطع إثناء نادية عن دفع الحساب قائلة بإصرار:
 - والكنيسة ما ينفع بعدین تبقى ادفع أنت ضيفي النهاردة..
- .. وخرجنا إلى الشارع وأمسكت بذراعي لَمَّا كنا نعدِّي الشوارع لنصل
إلى محطة الترام صافحتني بقوة وهي تصعد إلى العربة متجهة إلى
شارع بوالينو حيث بيتها..

.. فايضة زوجة فوزي والد كوثر امرأة مطلقة من شاب كان يعمل على مركب تجاري بسواحل البحر المتوسط، وكان يقضي من شهرين إلى ثلاثة أشهر في البحر ويأتي إلى بيته ليقضي فيه من أسبوع إلى عشرة أيام ثم يعود إلى عمله في البحر.. وكان يوفر لها في البيت كل لوازم الحياة، وكانت دائمة الشجار والنقار معه بسبب تغيُّه عن البيت كل هذا الوقت، وكانت تطالبه دائماً بتغيير عمله في أن يعمل داخل الإسكندرية لكنه لم يستطع، وكان من الصعب عليه أن يلبي طلبها خاصة أنه يكسب كثيراً من عمله في البحر، وجدت أنه لا فائدة من كثرة إلحاحها مع زوجها في هذا الأمر فتعرفت على جارة لها تعمل في بيوت الأسر وعزَّاب المدينة كطباخة مرّة، وجليسة للأطفال مرة أخرى وممرضة تعطي حقناً أو تعمل مساجاً للرجال والنساء، الذين يعانون من آلام في الظهر وغيرها من الأمراض التي تستوجب تدليك مواضع الوجد.. وكان يعجبها أن تعمل في شقق الغرباء من موظفين وطلاب وزائرين في عمارات تقع في أسبورنتج والشاطبي وكليوباترة وميامي، ولما كانت تجمع كثيراً من المال من بيت هنا وآخر هناك رغم أن زوجها يوفر لها كثيراً من أسباب الحياة المريحة؛ إلا أنها كانت تريد أن تخرج من البيت خاصة أن الوقت الذي تقضيه فيه كان طويلاً، ولما سألتها صديقتها كاملة عن ظروف الدنيا معها، أخبرتها فايضة بأنها تعمل بجدية وصرامة في كل بيت وعندما تنتهي من طهو الطعام أو عمل المساج تشطف يديها وتغسل وجهها ثم تتصرف، استمعت لها كاميليا حتى انتهت من كل حكاياتها، وراحت كاميليا تفهقه بصوت عال وتضرب كفاً بالأخرى وأخيراً أوقفتها فايضة من السخرية منها قائلة وهي تمسكها من ذراعها:

- عايزاني أعمل إيه.. باشتغل وامشي..

- ياخاوية يا عبيطة بعد ما تخلّصي قولي لصاحب البيت بدلع.. مش عايز حاجة ثاني..
- حاجة زي إيه..
- ياهبلّة يا عبيطة انت مش جوزك سايبك.. شوف إيه اللّي الواحدة بتعوزه بعد ما بتاكل وتشرب، شوف أي راجل عايز إيه ولازم تدلعي وتتعري وتتمايعي على ما تخلّصي شغاك يكون أي راجل اتدهول على نفسه..
- يا نهار إسود وبعدين.. هوّ فيه كده..
- فيه ستين كده ما هو كُله ماشي كده.. تتبسطي ويبقى معاك شيء وشويات والدنيا تمشي معاك زي الزيت في الممكن..
- أيوّه..
- أهو كده فهمتي وبدل ما تقولي أيوّه بس هاتقولي.. للصبح..
- هوّ فيه أكثر من أيوّه..
- فيه.. مش بقولك إنك عبيطة..
- .. وتعوّدت فائزة أن تقول لزوجها من يوم لآخر أنها ذاهبة عند أبيها، ولكن لم يكن فوزي تصل أدنى ظنونه أنها تذهب إلى أحد غير أبيها وفي مرّة قالت له ابنته كوثر:
- مش تشوفها بتروح فين يابه كل يوم عند أبوها..
- فيرد فوزي على ابنته:

- إيه الكلام ده يابنتي.. عيب ما نقوليش كده..

فتسكت كوثر وتهز رأسها آسفة على طيبة أبيها، وفي يوم قررت أن تمشي خلفها لتعرف أين تذهب إلا أن شريف قابلها عند الباب فرجعت معه، وكانت في هذه الأثناء قد تعودت على لقاء ساكنها كل يوم وأحيانًا في اليوم الواحد بالليل والنهار، ولمّا سألتها شريف إلى أين ذاهبة أخبرته بمقصدها فقال لها وهو يسحبها بيده إلى فراشه:

- سيبي كل واحد في حاله..

- يعني أسيبها تسرح من ورا أبويا..

- مالكيش دعوة دا موضوع أبوك..

- يانهار إسود يا شريف يعني نقعد نتفرّج..

- شوف من الآخر إنت تقولي لأبوك خلّي بالك يابه وبس..

- قلت له بيشتمني..

- يعوض ربّنا..

- في إيه..

- يعوض ربّنا فيك..

- هوّ أنا عملت فيه حاجة..

- ما أنت بتعملي زي فايضة..

- كده يا شريف اخص عليك أنا بحبك.. هوّ أنا مومس..

- خلاص بقى يا كوثر أهو كلّه بيقلع..

- لألاً.. فيه فرق من قلع لقلع..
- مش ها يفرق كثير..
- أيوه إنت زهقتني.. مش أنا بحبك يا شريف..
- وهي تلاقىها بتحب..
- يعني واحدة متجوزة تحب راجل غير جوزها..
- فيه كثير كده.. دا شيء ماشي من زمان طالما جوزها ما بيدهاش حقها..
- يعني كل واحدة متجوزة تمشي على حل شعرها من ورا جوزها..
- أنا مش بقول كده.. الحاجات دي ماتقديش تمسكيها، الدنيا فتحت حوالينا وكل الناس بتعمل اللي عايزاه أدام الناس من ورا الناس..
- إنت توّهتني..
- خلاص ماتعديش الدنيا هي مرات أبوك عقدتك..
- أبداً أبويا هو اللي عقدني..
- خلاص قوليله يخلص منها..
- لازم أمسك عليها حاجة..
- امسكي..
- اللي معاه حق يمسك..
- أبوك راجل طيب مش قادر يفهم إن فيه حاجة زي دي بتحصل..

- هيّ دي المشكلة.. بس مسيره يتحرّك ويعمل حاجة..
- حاجة زي إيه..
- يطلّقها أو يقتلها..
- يانهار إسود إنت اتجننت..
- أنا عاقلة يا شريف..
- طيّب قومي ارقصي شوية أحسن أنا زهقان من نفسي..
- تاكل الأول..
- مش جعان قومي ارقصي ياوسد..
- ياخرايي قول كمان شتيمتك بنتيرني.. اشتم كمان..
- أول مرّة أشتم واحدة من كل قلبي..

.. وقامت وخلعت ملابسها إلّا من قميصها وراحت ترقص بحُرقة،
وامترجت رائحة العطر باهتزاز ساقياها البضتين فكانت ركبتها كمرايا
أرى فيهما رغبتى وكان الليل يقترب، وظلمة الليلة تكسو فراغ الشارع،
فلم أعد أرى باب المستشفى الإيطالي كأني وهي وحدنا في هذا
العالم طالما لا يرانا أحد فكل ذهب إلى عالمه، ولمّا ارتفع صوت
المؤذن بإعلان أذان المغرب، ارتمت كوثر على الأرض تبكي فتركها
في دموعها وهرول نحو باب البيت ليقله ثم دخل الحمام ليتوضأ
ويلحق الصلاة في موعدها، رجع إلى الغرفة وهو يمسح وجهه وبديه
فوجدها ترقد على جنبها شبه نائمة فغطاها بملاءة الفراش، وتقدّم إلى
نهاية الغرفة حتى تصبح خلفه وراح يصليّ وشعر بحاجته للبكاء لكنه
لم يبك، وكان حزينا..

.. وجدت في وحدتي ذاتي، وكانت غريبتى حرية هذه الوحدة وأعماق
تلك الذات، وكان في كوثر الأنثى أطباق كل الحي الشعبي في
الإسكندرية.. السويبة والعرقسوس والخروب وكل أنواع طعام السمك،

الذي تجيد طهيه نساء المدينة في حي سبورتنج كما في حي غيط العنب، وكان بيت كوثر يتوسط بيوت السادة والعبيد، وكان في صوتها سلاسل من ذهب تخشخش في محلات الصاغة بالمنشية وهواء البحر يختلط بين حاجبيها وعينيها كأن أشجاراً من الزيتون نبتت وشعرها المجنون المشاغب فوق مخدعي زاد من فوضويتي مع المرأة الشعبية في كوثرى أثراً عميقاً كأنني زرعت شجرة عنب في غيط العنب ومن محرم بك ركبت ترام إمبروزو إلى مدرستي، وفيه أيضاً قصدت شارع النبي دانيال مع نادية، كل هذا وإلا هذا النهر مع سعاد في شوارع المنشية القديمة وجدت نفسي عاشقاً ورجلاً..

.. جنثُ إلى مدينتي ولم أكن أعرف شيئاً عن المرأة، ومدينتي فتحت لي أبواباً كانت مغلقة، وهذه الدور لم تكن بنوافذها أي وعود للحب من الرجال، فالرجال يتركون النساء ويتزوجونهم فقط ثم يذهبون إلى أعمالهم دون أن يعترفوا في داخلهم أن حبه لامرأته أول الأعمال، عم فوزي تزوج فتاة من عمر ابنته تخدمه وخلص، وصول المخلة تزوج من مدرسة ثانوي وهذا يكفيه ولم يعرف في حياته أي معنى للحب فكان في بلده يذهب إلى المدرسة الإعدادية بقميص ممزق صيف شتاء، وكان زواجه من سعاد مدرسة المحاسبة يثبت أنه ناجح بامتياز أمام أهله وأهل بلده، أما أن يعرف ماذا تريده سعاد من أحاسيس ومشاعر ومعاملة رقيقة فهذا لم يره في حياته ولم يمارسه في قريته، التي كانت تمتلئ بنساء وفتيات حافيات يسحبن الجاموس ويذهبن إلى الحقول لحلب البقر، وكانت امرأة أبيه تضربه كل يوم ليقوم ميكراً حتى يحمل فوق حمارة الرتش نقلة سباخ يذهب بها إلى الحقل قبل أن يذهب إلى المدرسة، وكانت زوجة أبيه دائماً تقول له في الراحبة والجاية:

- جتك شرد.. يا مشرود..

وكان يضحك ويخرج من البيت هرباً من تقريعها وسخريتها له.. وكان الجيش ملاذاً وخطوة تقدمية بأن يهرب من شرد دائم، ولم يستطع النجاح في الإعدادية لمدة عامين فتخلص منه أبوه وزوجته بزجه متطوعاً في الجيش، فكيف لشخص مثل هذا أن يحب أو يعرف أي معان للحب ولم يكن له سعاد أو مثلها أبداً ولكن هذا ما حدث، وأنه من ضمن الأقدار الفارقة في هذه الحياة، كل وسائل الإصلاح حاولت معه سعاد ليكون إنساناً معقولاً ومقبولاً أمامها وأمام الناس، وفي الأسبوع الأول من زواجها به قالت له بعد أن فقع مرارتها من تصرفاته:

- اعمل سنانك بالمعجون.. نضّف سنانك يا أنسى..

- كفاية المضمضة..

- علشان تبقى ريحة بُك حلوّة وأسنانك ماتسوّش..

- ياستي..

وفي مرّة أخرى من حالات فقع المرارة:

- بلاش تنبش في مناخيرك أدّمي.. عايز تتضّف مناخيرك

أدخل الحمّام نضّف نفسك واطلع.. عيب حد يشوفك وإنّ
بتعمل كده..

- إيه اللّي بتقوليه ده وفيها إيه دانّت غريبة قوي.. كل الناس

بتعمل كده.. الناس كلها حرّة في بيتها هوّ إنت هاتحكري
علّي ولاّ إيه..

- يا خرابي كان يوم إسود لمّا اتجوزتك.. على فكرة من حقي
أطفش ولمّا أطفش ما تدورشي علىّ لأنني هاروح في حنة
الجن مش هايعرف طريقي..

- إنت كان ليك واحدة من بتوع الجلة في البلد..

- إنت عايزة تعملي مشاكل وخلص..

- حس شوية خللي عندك شوية دم وإحساس.. انتصف شوية
انتجّر دا الفلاحين والعمّال والغلابة بيحسنوا من نفسهم
وينصفوا..

.. وكان بعد كل حوار يشتمها ويلعنها ويخرج من البيت ولا يعود إلا
بعد منتصف الليل، ولم يكن يستطيع بعد كل حوار أن يجرو وينام
في فراشها ولمّا كان يفعل هذا كانت تدفعه بقدمها وهي تزعق:

- ابعدي عني.. الحمير مايناموش جنبي.. روح نام في
المطبخ.. المطبخ والحمّام كثير عليك تنام فيهم.. حرام
عليك كنت تطلع من زريبة البلد..

- يلعن أبوك وعلى إسكندرية اللي إنت منها..

- واحد زيك مريض ومليان عقد عنده إيه إلا الحقد على
الناس النضاف وعلى إسكندرية.. باكرهك.. باكرهك..
طلّقني ياكلب إنت البعيد جبان لو كنت راجل وعندك دم
طلّقني..

وكالعادة لا يرد ويخرج من البيت ولا يعود إلا بعد منتصف الليل
تكون هي في سابع نومة ويأخذها من قاصرها وينام في الصالة
كالابن العاق المطرود والمكروه..

.. هكذا كان الحال المؤلم الخرب الذي تعيشه سعاد.. حكته لشريف
من كل قلبها وإحساسها وتركت له الإجابة على السؤال:

- إيه الحل يا شريف.. اعتبر نفسك أخويا.. أعمل إيه

ورّد عليها شريف في ألم:

- الموضوع صعب قوي يا سعاد.. مش عارف أقولك إيه..

- اسمع يا شريف لو اطلقت تتجورني..

- بس ماكونش سبب الطلاق..

- أنا عايذة أطلق من الأسبوع الأول من جوازي..

- أنا تحت أمرك يا سعاد.. بس اسأل سؤال.. وسكت..

- سكت ليه اسأل..

- أول مرّة تعملي علاقة مع حد..

- أقسم لك بالله أولاً.. وحياة ابني يا شريف ما عرفت راجل

تاني غيرك.. وأنت أول راجل أدّيله نفسي..

- ياه بقى سبع سنين والدنيا عندك خرابانة كده.. بقى السنين

دي كلها ومالقتيش راجل تحبّه..

- على فكرة صعب قوي على الست تدور على راجل تحبه،

إنت جيت لي بالصدفة ولو ماكنتش زميلي وجيت المدرسة

عمري ما كنت هادور على راجل، على فكرة فيه سنات

كثير زيّ متعقدة من الرجالة.. كل السنات اللّي متعقدة من

أجوازها قفلوا بيوتهم وحياتهم على كارثتهم وما عندهم مش
غير الحسرة والدموع..

- أد كده الدنيا منيئة..

- اسمع يا شريف.. هي كلمة واحدة أنا عايزة وعد منك..

- قولي وأنا تحت أمرك يا سعاد..

- لو اطلّقت تتجوزني..

- أيوة.. وعد مني وعد من راجل يا سعاد..

.. مرّت الأيام وأنا أعيش على شاكلة قوانين من أنواع الهوى، وكان يغلبني الغرق في بحر امرأتين هما كوثر وسعاد، في بيت كوثر القديم منامي وطعامي وعشقي وفتاة تمطرني بحنان كل امرأة ريفية أو في حي شعبي في أي مدينة، ولم أكن أدري وأنا أرتمي في أحضان الحب أن تلك هي الحياة وهي الدنيا في كل مدينة وعلى أن أعيشها دون أدنى فلسفة أو تعقيد، ولم أكن أستطيع أن أمنح نفسي إجازة وأيام إبحاري بين امرأتين عمل مستمر لا ينقطع ففي يد كل منهما حبل يربط رقبتني وفي مقدور كل منهما التحكم في وقتي، وبين المنشية وشارع المستشفى الإيطالي أقيمت ذلك الحب، ولم يكن حباً جافاً بل كان حباً غارقاً في اللذة كأن السماء فوق سمائي ترخ مطراً لا ينقطع، وكان هنا نوع آخر من الحب أقامته مشاعري مع نادية جرجس الإنسانية التي أغرقتني أحاسيس ومشاعر من نوع آخر فكنت أذهب إلى معبدها في مقهى النبي دانيال، وكأني أذهب إلى معبد من معابد الحب المنحوت من الرفعة والسمو.

.. ولما فتحت المدرسة أبوابها وامتألت بالطالبات من كل أحياء الإسكندرية، كنت أسمع عن بنات بحري فكان لديّ فضول في أن أرى بنات رأس التين والأنفوشي، وكان غريباً أن أرى في وجوه الجميلات منهن نوعاً يختلف من اللفات ومخارج الكلمات وكلمة أيّوه وما شابهها في كثير من الكلمات والجمل سمعتها وحفظتها وكأن طبلاً يدق في أذني فتدخل كلماتهن المتنوعة والمختلفة في رأسي تختمر ولا تخرج.. واعتبرت نفسي في فرن الحياة، الذي لا ينقطع من أنواع النساء فتيات في المدرسة وامرأة واحدة تأخذني من يوم لآخر

في بيت أمها بالمنشية، وكانت كوثر تترك لي نفسها بكل طيب خاطر وتقول في عز انفعالها:

- اعمل اللّي إنت عايزه.. أنا كليّ ليك.. كل ده بتاعك..
مش إنت يا حبيبي هاتتجوزني.. خلاص خلّصني..

وكنت أبكي على صدرها كأني طفل؛ لأنني بعد أن أسمع وأرى خضوعها فلم أكن أعرف ماذا أنا ذاهب إليه بعد، وكانت نفسي تواقّة لأن أتزوج بكل امرأة تخضع لي واعتبرت ذلك من أهم الفضائل، التي يجب أن يتحلّى بها الرجل، وكنت أسمع أن الرجل في بلادي - كما هي عادة العالم الثالث - إذا أعطته المرأة عرضها نال منها وتركها واعتبرها امرأة خائنة ولا يجب الارتباط بها.. وكنت أسمع وأرى أن هناك كثيرات من الضحايا من فتيات المدينة ذهبن ضحايا نتيجة هذه الأفكار والسلوكيات الشائنة من الرجال، وكانت لعنة هذه العلاقات المانحة من الفتيات للرجال هي لعنة يصبّها الرجال على النساء بلا رحمة، وهي لعنة صنعها الرجال لنساء أخلصت في حبها ومشاعرها، ولم يكن هناك قانون تستطيع المرأة المانحة الإمساك به لتحاكم به الرجل، الذي ظلمها، ولكن كان هناك شيء من الجنون ينتاب تلك العلاقة التي لا يستطيع أن يحكمها قانون، وكانت المشكلة في مدينتي كما في أي مدينة في بلادي هي عدم قدرة الرجل على توفير أسباب الحياة من سكن ومعيشة، فكانت دائرة التعارف بين الفتاة والشباب أو بين المرأة والرجل هي علاقات عواطف ومشاعر أو علاقات جنسية مفتوحة ليس لها حدود تحكمها أو تتحكم فيها، وكان المجتمع يقع في دائرة الهوى المفتوح أو الرغبة الجامحة، وكان هناك القليل جدًّا من رجال ونساء يقيمون تماثيل للحب المنحوت، وكنت

أعتبر نادية جرجس من أوائل الفتيات اللاتي يقمن نوعاً عنيد البناء من الحب المنحوت، الذي يدعو إلى الصوم والصبر، وعندما كنت أتردد كثيراً فيما أنا فيه وأحترار من تلك العلاقات الجسدية البحتة أذهب إلى نادية جرجس وأطلب منها اللقاء في مقهى النبي دانيال، ولم تكن هي في يوم تتعاس عن تلبية طلبي؛ لأنها كانت هي أيضاً في حاجة إلى مثل تلك اللقاءات ليعينها ذلك على تقوية نفسها وصومها على كل أنواع الحب المادي المنتشر في دائرة المدينة الواسعة بلا حدود.. ولم أكن أستطيع كفرد ضعيف يعيش في مدينة كبيرة بلا أدنى إمكانيات أن يفعل أو يضع شيئاً يحلو له، ولكنني كنت مساقاً لأن أفعل ولم أكن أستطيع أن أفر إلى دائرة الصبر والصوم بعد أن ذقت حلاوة العشق ولذة الجسد، ولم يكن لدى غير أن أستجيب لكل امرأة تخضع لي بأن أوعدها بالزواج، ولم يكن عندي بيت، ولكن كان لكوثر بيت أبيها وكان لسعاد بيت أمها..

.. وفي يوم كنت أشعر بأنني أريد أن أختلي بنفسي وأن أذهب بعيداً في أي مكان عن بيت كوثر الدائم الوصال، رُحت أتمشى على الرصيف المحاذي لسور البحر قاصداً محطة الرمل، وكانت محطة الرمل في نفسي تذكرني بشارع فؤاد بالقاهرة، شعرتُ بأن البحر يبتلع كل ما في داخلي فهمستُ إلى أمواجه.. لماذا لا تخرج أيها البحر الكبير من حدودك وتتزوج من هذه المدينة بعد أن تحب كل امرأة فيها، وإذا لم تكن قادراً على هذا الحب الكبير.. أدخل شوارعها وحواريها واغسلها عن آخرها حتى يتخلص الناس فيها من أحزانهم ومعاناتهم.. ولم يسمعي البحر، ولكنه كان عنيداً حتى أن رذاه الهائج كان يضرب وجهي بقوة وكأنه يعنفني ولو استطاع لسحبني إلى أعماقه وأغرقتني، ويبدو حتى اليوم أن كل شيء مكرّر ومعاد

مثل مدينة الفقر مدينة القاهرة.. أنا أحمل التراب مثل غيري، وهذا دخان أنقلت رعوس أصحابه الحجارة فهل يذهب الناس تبعاً إلى المقابر كي يبكو مدينة تتوه، غير أن بعضاً من أهلها يعيشون خلف ستائر ناعمة من حرير ويملئون الملاهي بالضجيج، ولم يكن لدى الفقراء وأنا منهم أن يقيموا من مشاعرهم بيوتا في مدافن الموتى.. ولماذا يشعر الفقراء بهذا الموت أليسكن الموت قلوب الفقراء وهم يعيشون عند شعرة تربط قوالب الحياة الضيقة في نفوسهم، إن أغنياء المدينة كما فعلوا في القاهرة هم أنفسهم فعلوها في الإسكندرية.. هم الذين صنعوا دوائر الخلاف وسرقوا البيوت والجدران من راغبي إقامة الحياة فما كان للفقراء إلا أن يذهبوا إلى دوائر الحب المشاع والعلاقات، التي تقع في دوائر الحياة القديمة المكررة والمعادة في أزقة وحواري لم تتبدل من زمان، وهل أحمل من الأفكار هموماً فوق طاقتي ومن أنا حتى أحمل معاناة مدينة.. ألم أكن أنا منذ وقت أموت في أن أعيش بذل مع نفسي إلى أن تحررت وأتيت إلى هذه المدينة لأجد فيها نوعاً جديداً من العيش وأشياء في الناس اعتقدت أنهم يختلفون عن الناس في القاهرة، إن الله لا يحب أن نموت من اليأس ولكن يحب أن نهجر بحثاً عن تنفس للعيش حتى ولو كان هواءً نقياً بدون مزيد من الخبز فهل هذا ما وجدته، لم تكن كوثر في مدينتي القديمة ولم تكن سعاد في حي شبرا، ولم تكن نادية جرجس تسكن خلف كنيسة ماري جرجس بأرض شريف، حتى نجوى الزميلة الثرثرة لم أجدتها معي بنفس الظروف والأدوار في كلية التجارة بالزمالك، وكانت نجوى بالنسبة لي حاملة أخبار مثل وكالة أسوشيتد برس ففي خمس دقائق ونحن نجلس في حديقة المدرسة تحمل لنا يوم كل أخبار المدرسة مدرّس ومدرّسة وإدارة ولم أكن في حاجة على أن أعك أو

أخضع لتجارب مع مدرسين ومدرسات فأنا آخذ الخلاصة من نجوى وأتعامل على أساس معلوماتها لكن بشيء من الحذر مع هؤلاء الآخرين اختصارًا للوقت والتركيز الشديد مع ثلاثي الحياة معي نادية وسعاد وكوثر ..

.. بدأت أحزاني تنطفئ مادام في الأمل الذي يسكن في داخلي قليل من نور يحدوني بأن أحدث نفسي بأن لي شأنًا أديره وحدي؛ لأنني الآن تحت تأثير حياة ثلاث نساء أوزع وقتي بينهن .. وكل منهن تريدني بما في داخلها من رغبة وجموح نفس، وشربت قهوة وأنا أجلس في المقهى الكبير القريب من شارع البحر، ووجدت لذة كبيرة في تأمل المارة، إنه أحد مواقع الرؤية في المدينة في أن ترى مزيدًا من الناس متنوعي الأجناس والمشارب والأحوال، وكان كثير من الرجال يجلسون في شكل مجموعات يجدون لذة في متابعة المارة مثلي، ولم أصل إلى شيء بعد أن أنفقت وقتًا طويلًا بالمقهى المطل على الكورنيش بعدها عدت إلى بيتي بالمستشفى الإيطالي ..

.. كانت كل الأبواب مفتوحة حتى كنت في غرفتي أخلع ملابسني، بعدها توضأت وصليت وتمددت فوق سريري أريح جسدي من كثرة عناء .. وعلا اذان العشاء فقامت وأكملت صلاتي، وكالعادة كنت أجلس فوق سجادتي بأرضية الغرفة الخشبية أختتم صلاتي وأجتر أحداث يومي، وسمعت أنفاس كوثر وهي تدخل من باب الشقة منادية:

- شريف .. شريف إنت جيت ..

- أيوة أيوة تعال .. كنت فين ..

ودخلت عليه تحمل حقيبة السوقية وهي متهدجة الأنفاس:

- كنت فين أتأخّرت..
- أبداً كنت زهقان شوية رُحت المنشية ومشيت شوية على البحر..
- زهقان من إيه.. أنا معاك على طول زهقت مني..
- أبداً زهقان من نفسي..
- لألاً بقى دا فيه حكاية أكيد.. اسمع هاعمل شوية حاجات وأجيبك.. هافضالك..
- وهرولت إلى مطبخها.. واستلقيت على فراشي ثانية ولم أدر بنفسى حتى غلبنى نوم إلى منتصف الليل واستيقظت على صوت كوثر النائمة فوق ملاءة بأرضية الغرفة:
- شريف قوم بقى شبعت نوم.. قوم شوف لابسة إيه..
- .. وكانت الغرفة تكاد أن تكون مظلمة إلا من ضياء مصابيح الشارع، التي تنفذ أشعته في أرجاء الغرفة الكبيرة وكان جميلاً أن ينبعث ضياء القمر مع نور المصابيح فيشع خليطاً من نور هادئ يملأ الغرفة فتستريح له النفس..
- شوفت لابسة ليك إيه..
- ليه كده ياكوثر دانت عريانة خالص..
- مش حلو قميص بشراشف عاجبك..
- طبعاً شايف.. حلو قوي..

- يادَمَّك بس كده..
- أقوم أرقص علشان تتبسطي..
- تعال..
- أنا تعبان..
- قوم خَلِّي عندك شوية..
- تعال إنت..
- الأرض أحسن السرير ضيق..
- مابحيش الأرض..
- تعال بس نجرِّب النهارده..
- إنت ناوية بقي..
- ناوية خير بحبِّك مش إنت هاتتجوزني..
- مش أنا قلت هاتجوزك..
- أيوة..
- طيب خلاص.. تعال اتجوزني الليلة..
- فين أبوك..
- ياه.. إنت عاوز تعكُنن علىَّ بقي..
- طيب فين أبوك..
- راح يشوف مراته بتروح فين..
- من إمتى..

- من قبل المغرب..
- ياه أخيراً صحي..
- أنا خايفة عليه هوّ من الأول مش أدّها ولكن للأسف هوّ
بيحب الانتحار..
- المهم يوصل لحاجة.. دا راجل طيب..
- مش عارفة إيه اللي نحرره يمشي النهارده وراها..
- دا كان لازم يعمله من زمان..
- أكيد هايعرف بتروح فين..
- مش هوّ راجل حمش..
- والله مانا عارفة اللي عارفاه إنه أبويا وبس..
- إنت عايزة إيه..
- عايزاه يفضّها سيرة..
- أنا عايز أنام..
- تعال نام جنبي..

.. على ناصية الشارع ركبت فايزة تاكسيًا متجهة إلى عمارة الأوقاف بسبورتنج وهي التي تذهب منذ أكثر من عام إلى هذا البرج الضخم للأوقاف والذي يطل على البحر، راحت تعدل من شعرها المنثور فوق وجهها وكتفيتها وتذكرت أول يوم ذهبت فيه إلى حارس بناية الأوقاف:

- مساء الخير..

- أهلا تحت أمرك..

- فيه عزّاب هنا..

- مليانة عايزة عرب ولأ مصريين..

- أي حد.. أي ناس أفضى طلباتهم..

- عايزة تطبخي بس..

- كل حاجة..

- يعني غسيل ومكوى..

- قلت لك كلهُ .. خد ده..

.. مدّت يدها في حقيبتها ونقدته لحوح (جنى) فأخذه وابتسم بملء وجهه.. وبدأت رحلتها.. وفي هذا اليوم كان فوزي يركب تاكسيا آخر ويتبعها وطلب من السائق..

- إنت عارف التاكسي ده..

- أيوة..

- وراه في كل حتة..

- خير فيه حاجة..

- وراه وخلص إنت مالك يا سيدي.. إنت ليك أجرتك
وبس..

- خلاص حقك..

.. في هذا المساء كانت رياح شديدة تهب من البحر فتكسو أسطح
البنائيات بالتراب والورق المتطاير من صفائح الزبالة، ولم يكن أحد
يستطيع أن يواجه زعابيب الموج إلا وهو ينحني بوجهه واضعاً كفيه
على عينيه حتى يتفادى التراب، الذي يهب في شكل موجات مُزيجاً
ما حُف فوق الأرض متطايراً فوق سطوح بنايات شارع الكورنيش في
قسوة حتى أن ظلمة الليل التي بدت تكسو وجه المدينة قد ظهرت
مرتعشة وكان اليم الذي يفرش وجه البحر يكشّر عن أنيابه فتتطاير
الرياح راقات واحدة بعد الأخرى تضرب وجه المارة فيهرولون مختفين
خلف الأبواب والأسوار، وكثير منهم هرب إلى الشوارع الداخلية أو
ركب عربته أو تاكسياً فاراً به من شارع البحر النائر..

.. أحسّت فائزة بأن أحداً يراقبها ولاحظ سائق عربتها فقال لها:

- على فكرة التاكسي ده ماشي وانا من ساعة ما طلعلنا..

التفتت خلفها و قالت متحدية:

- يروح في داهية..

- عارفاه..

- ماتدقش ياسطى..

وراحت بطرف عينيها تدقق في الوجه الذي يجلس في المقعد الخلفي وشهقت عندما تأكدت أنه فوزي..

- بقى كده.. تعرف ياسطى تتوهه..

- قوي.. قوي..

وراح يدخل في شوارع جانبية فيها تاه فوزي عن فائزة وعند حارة ضيقة نفذت العربة أجزتها، ونزلت متجهة ناحية كليوباترة الحمامات ماشية على قدميها حتى ذابت وسط المارة قرب فندق الشعلة، الذي يقع بشاطئ كليوباترة..

.. دخلت الفندق وفي غرفة الاستقبال قابلت صاحب الفندق فلحقها قائلاً:

- دوسة تعرفي تعملي مساج..

ضحكت ضحكة عالية سمعها كل من يجلس في كافيتيريا الطابق الأول:

- أتعلم ياسي رشدي..

- طيب إطلعني أوضة ١٦ الدور الثاني فيه واحد عايز مساج..

- عينيه يا روجي..

.. كانت فائزة حديثة العهد بهذا النشاط، وكانت مرغوبة العمل لدى صاحب فندق الشعلة وفندق فلسطين ولها أكثر من عشرة زبائن في عمارات ميامي وكليوباترة واسبورتنج.. وكان سعر فائزة بالشقق اتنين جني في كل مرة وفي الفنادق خمسة جنى كل مرة.. وكانت الفكرة

عند فائزة عندما بدأت العمل أنها جائعة جدًا إلى الجنس الذي حرّمها منه زوجها الأول والذي كان يعمل في البحر ثم حرّمها منه زوجها الثاني فوزي الغلبان، بعد ستة أشهر وجدت أن الموضوع حلوة فلوس و... و.... وتذكرت يوم عراكها مع زوجها قبل أن تذهب في طريقها هذا بيومين عندما قالت له في تبجح :

- يا حشرة لا فلوس ولا ني.. جنك حشرة عليك من بدري..

.. قابلته كوثر عند الباب وكان وجهه قد ظهر عليه الإرهاق والاصفرار، وكانت عيناه تبرقان ومرتكتين.. ربتت على ظهره وطفقت وهي تأخذه من ذراعه لتقعده فوق الكنبة:

- مالك يابه في إيه.. قوللي إيه ببيك..

- مافيش مافيش.. يا خرابك يا فوزي..

- ليه يابه بعيد الشر..

.. حملق في وجه ابنته برهة ثم تاهت نظراته في أرجاء الغرفة وانهمر في بكاء لا ينقطع وابنته تزعق:

- مالك يابه.. قول يابه ولا يهّمك يابه مهما كان.. مهما كان..

- الفاجرة بتروح عالبحر.. ما بتروحش عند أبوها..

- عالبحر فين؟ أنا حاسة بأن فيه حاجة من ساعة ماتجوزتها.. قوللي راحت فين عالبحر..

- كان التاكسي رايح اسبورتنج ولمّا شافتني تاھت في الشوارع
- الجانيية ماعرفنتش أجيبها وقعدت أدور في سلقط في ملقط
- فص ملح ودابت..
- وبعدين يابه تاغب نفسك ليه ولا يھمك.. طلقھا يابه..
- اقتلھا الأول يابنتي..
- ماتستاھلش توسخ إيدك بدمھا..
- أستاھل كل اللّی یجري علیّ..
- معلھش يابه كل واحد بيغلط..
- أنا تعبان يابنتي لوئت شرفي..
- شرفك زي ما هوّ أبيض..
- بجد..
- بجد يابه..
- أموت وأعرف بتروح فين..
- وإيه الفائدة يابه ما حنا عرفنا خلاص..
- والحل..
- روح لأبوھا واحكيله وبعدين طلقھا غيابي قدّامه ولا تتعب
- نفسك..
- خلاص ها عمل كده..

- طيب قوم خش الحمام استحمه وروِّق على ما حضرك الأكل..
- حاضر ياكوتر.. دخِّلِي غيار..
- أهو كده.. بالله اهدى يابه ماتستا هلش منك زعل لحظة واحدة..
- هيِّ تفة ارميها على الأرض..
- احكي لشريف على اللِّي حصل..
- لأ يابه هانفضح نفسنا مع الغريب.. دا برضه غريب يابه.. ما قدرشي أقوله الفضايح دي..
- طيب خلاص يابنتي اللِّي تشوفيه هو انت حدوديه قوي معاه..
- مش أكثر من صباح الخير يابه هي بنتك من يوم ربنا خلقها مافيش بشر لمس ضفر رجليها..
- الله عليك يابنت عارف ربنا حارسك..
- هاتروح المصنع النهارده..
- مش مشكلة هاروح متأخر شوية..
- بكرة هاتخلص الموضوع ده..
- هاروح لأبوها الأول.. اوعى تدخِّلِي البيت تاني..
- لو جت هاديها بالشبشب لما تقول بس..

.. قبل العاشرة بقليل ذهب فوزي إلى عمله متأخرًا، ارتدت كوثر قميص المنشية الذي ارتدته لشريف من قبل وتزيّنت وتعطرت ودفعت بابه في الحادية عشرة فوجدته يقلّب في أوراق على المنضدة فقابلها مهللاً:

- كل ده.. من الصبح عاملة هيصة وزمبليطة مع أبوك..
فيه إيه..

احتضنته من الخلف بيديها وبجسدها وضغطت بكفيها على صدره وقالت في صوت خفيض كأنّها تودعه سرًا:

- لقي المفضوحة بتروح شقق عالبحر..

- مسكها..

- هاحكياك الحكاية..

حكّت له ما جرى وهي جالسة في حجره تشبعه من قبلاّتها حتى أنه لم يتمالك نفسه من شدة إثارتها له فقالت له:

- كده كفاية..

- تعال بقى هافرش ملاية زي إمبارح مش لقيت الأرض
أحلى..

- في أي حتة تعجبك ياكوثر..

- تعال يا شريف علشان تعرف أن إحنا أشراف مش بتوع
شُقق ولا بحر.. أنا واحدة بيوتّي يا شريف..

- آي والله يا كوثر إنت مش زي أي حد.. البيوتّي منتهى
الأدب..

- شوف مرات أبويا بتعمل إيه بعد ما تجوزت اتنين..
- مش إنت قولتيلي مرّة قالت لأبوكي لا فلوس ولا نيد..
- أيوة قالت له البجحة..
- طيب ما هي ليها حق برضه..
- حق إيه جتها كسر حُقها..
- على العموم خَلينا في نفسنا..
- على فكرة أبويا يعرف أنّك ماتعرفش حاجة عن الموضوع
- وإنّ اللّي بيني وبينك مش أكثر من صباح الخير..
- صدقت يا كوثر هوّ فيه بينا حاجة غير كده..
- .. وضحكت كوثر ضحكة مثل ضحكة امرأة في كباريه.. ضحكت
- حتى اهتزت لها جدران البيت، وكادت الحيطان القديمة تضحك
- شاهدة على الغرام الذي يجري كل ليلة بين أركانه.. ضحكت وكأنها
- تقول.. أنا امرأة زي فايضة زي أي واحدة بتروح شقق البحر.. وشقق
- البحر بس.. زي أي شقق في المنشية ومحرم بك وإمبروزو وغيط
- العنب.. زي أي شقق في شبرا والدقي وشارع نوال.. أيوه يا شريف
- يارب ما يبجي علىّ يوم أقول: هايبقه لا فلوس ولا نيد.. أيوه يا
- شريف..
- أيوه بتاعتك دي عندي بالدنيا وهادعيلك يا كوثر..
- ادعيلي.. قول يا شريف..
- يارب ما يبجي عليك يوم تفقري..

- هِيَّ السَّتْ بِنْتَقْتَرِ إِزَّاي..
- يَوْمِ بِيْجِي عَلَيْهَا نَقُولُ لِنَفْسِهَا أَوْ جُوزِهَا.. هَايْبِقِي لَا فُلُوسِ وَلَا نِي..
- أَيُّهُ يَا شَرِيفِ يَخْرِبُ مَطْنَكَّ..

.. في كل ليلة وقبل أذان الفجر بقليل أسمع صوت رجل ينادي بصوت مجذوب مشدود عال ويسمع كل من في البيوت ومن في القبور، التي تسكن بعد قليل من سور المستشفى الإيطالي، كان الرجل يريد أن يسمع الجميع ويوظفهم مما هم فيه من غفلة يقول زاعقًا:

- اذكروا الله قوموا صلُّوا اذكروا الله.. الصلاة خير من النوم..

.. اذكروا الله واعملوا الطيب يا عباد الله.. اذكروا الله.. قوموا للصلاة..

.. يقول ويكرّر حتى يصحو كثير من الناس ويقوموا للصلاة ويفتحوا الأبواب حتى تدخل الأرزاق، وفي يوم لمّا سمعت صوته فتحت النافذة لأرى هذا الرجل.. وجدته يمسك بفانوس صغير ينبعث منه ضياء خافت يرتدي عمامة حمراء يلقها شريط من القماش الأخضر العريض وأطمار وسخة قصيرة تغطي ركبته بقليل.. ومهما مرّ عليه الناس وهم في طريقهم أو هو مرّ على أحد فلا ينظر إليه ولا يتوقف عندما يسأله بعضهم عن شيء فهو يسكت ولا يحدث أحدًا، ولا يتوقف ويظل يمشي بعد شارعي ثم يستدير خلف بيتنا حتى يدخل المسجد ليصلّي مع المصلين بعدها يتجه ناحية شارع أبي قير ويدخل المقابر؛ حيث يسكن في عشة عند جانب من الأشجار التي تحيط بالمدافن".

.. وكان هذا أول شيء يأخذ إحساسي بعيداً عمّا أعيش فيه مع النساء اللاتي يعشن في كنفني، وظلّلت نداءاته.. اذكروا الله.. واعملوا الطيب.. هل أسمع نداء هذا الرجل فقط.. لماذا لا يكون لندائه أثر في نفسي.. وهل ما فعلته يرضى الله عنه.. وهل كل الرجال مثلي يستجيبون لعواطف النساء، ولماذا لا يستجيب الرجال مثلي لحاجات النساء، ولماذا لا يتزوج الرجال من النساء اللاتي يمنحن أنفسهن.. أم أن الكلام المأثور لدى الرجال.. إذا رقدت لك امرأة فإنها سترقد لغيرك..

.. بعد هذه الليلة انتويت في نفسي أن أستيقظ كل صباح مع نداء هذا الرجل بعدها أذهب إلى المسجد خلف بيتي لأصليّ مع جموع الناس صلاة الفجر عسى الله أن يمنحني بصيرة بعدها أعرف هل أنا أسير في حياتي صح أم غلط.. هل ما أفعله مع كوثر من ممارسات للهييب الجسد وما حدث مع سعاد من جنس كامل في شقة أمها.. فكانت علاقتي العفيفة مع نادية جرجس هي أنقى وأفضل علاقة مع كافة نسوة المدينة التي أبحرها لأول مرّة..

.. واستجابت نفسي وربما تكون استجابة منفعية مع واقع لا يستطيع إنسان مثلي التصل منه أو البعد عنه.. لبّبت نفسي نداء سعاد من وقت لآخر في شقتها بالمنشية حينما كانت تدعوني لأذهب إليها، ورضختُ لكوثر في كل رغباتها وكأنها زوجتي وبعد أن تستجيب أهوائي لما تدعوني إليه كوثر وسعاد فإنني في النهاية وكل مدة أشتاق للقاء نادية جرجس في مقهى النبي دانيال.

.. وكنت أضع كفي يدي فوق وجهي بعد كل صلاة في المسجد، وأدعو الله أن يرشدني أو يأخذني مما أنا فيه فلم أكن أستطيع نزع

نفسى من واقعى؁ وىبدو أن لذة الواقع الذى أعىش فىه قد جعلتنى لا أفىق إلى طرىق آخر أبعد فىه عن النساء.. وقررت أن أتعامل مع واقعى.. إذا ذهب معى كوثر فى لقاءاتنا المثيرة كل لىلة أن تصبح امرأة فىننى سأتروجه فوراً فلأذهب معها إلى أبعد مدى فىننى لا أستطىع البعد عنها أو السكن فى بىت آخر غير بىتها؁ ومن جنونى الثانى أننى فى لقاءى المتقطع مع سعاد وهى متروجة لجرم كبرى؁ ولكنى لا أستطىع نزع نفسى الضعىفة منه.. فإذا طلقت فى يوم فىننى سوف أتروجه هى الأخرى..

.. أما علاقتى مع نادىة جرجس فهى العلاقة التى تحمىنى من العلاقتىن؁ ولكنها لن تغنىنى عن الحىاة الممتعة معهما.. أو هى العلاقة التى ترىحنى مع نوع آخر من النساء..

.. تلك حقائق اختلاف امرأة عن الأخرى لكنهن جمىعاً يأخذنك إلى شىء واحد فكان بئر الحرمان رحمة لكل رجل؁ وكان مسمار العقل هو الذى ىثبت العقل فى رؤوس النساء.. واعتقدت وأننى فى طرىقى هذا المغمور بالرحمة التى تربط روحى بجسدى لا أستطىع مهما أوتىت من قوة الفصل بىنهما فهما شىء واحد ولا ىستطىع إنسان الاستقلال تماماً بجانب عن الآخر؁ ومن ىقدر على ذلك فىنهم قلىل جداً من البشر مثل الأولىاء والقدىسىن حتى هؤلاء فلهم عثراتهم فى الخفاء.. ولا ىستطىعون الفصل بىن الروح والجسد فى بعض الأوقات أو فى مراحل مختلفة من حىاتهم.. وكانت حكاىات نادىة معى لا تنتهى.

.. اخترنت كل ذرة فى جسدى حتى مللت الصبر؁ ومن ىتغذى بالصبر فقط فى مجتمع فىقر فإنه ىقبل على الموت رغم أنه ىعىش؁

ليس لي قريب أو جار أو صديق من طائفتي حتى يقبل على خطبتي أو حتى أتخذُ منه صديقًا ترتاح إليه نفسي، ما هو هذا الإعدام المسوق لنا من خلال مجتمع يعيش دون أدنى قواعد للعرف، الذي يتيح لكل الناس من متنفس أو طاقة من أمل.. يا شريف كان لابد من الخروج.. أنا امرأة ولم أعرف الرجل في حياتي ولم أدق له ملمسًا على جسدي.. أأست من بلدي ألم يكن جدك في يوم من الأيام قبطنيًا ألم يكن أجدادنا جميعًا منذ عهود قديمة عاشت فوق هذه الأرض فراعنة طغاة وكهنة فاسقين.. أأست أنا وأنت من طين واحدة وعجينة من قمح نبنت من هذه الأرض، ولمّا أكلنا منها دعتنا أجراس الكنائس لنشكر الله وأيقظتنا أذانات الصلاة لنصلي ونعبد.. اسمع يا شريف أريدك أن تأتي لزيارتي غدًا الجمعة بعد أن تصليّ تعال إلى بيتي؛ حيث أنتظر، لقد سافرت أمي إلى مصر، حيث توفيت ابنة خالي وسوف تبقى في القاهرة عدة أيام.. لا تخجل ولا تتردد.. تعال يا شريف حيث يكون لنا شأن آخر في الغد وهذا هو عنواني.. إنني في كل الأحوال أريدك أن تأتي.. لا بد أن تأتي..

.. فوجئت بدعوتها ولماذا أذهب إلى البيت في غياب أمها أهي مثل كوثر وسعاد؟ هل لقاءاتي السابقة معها كانت غشاوة كي تلهب قلبي، أفي هذا نحن جميعًا نضل الطريق أم أن هذا طريق الحياة الطبيعي.. .. طرقت بابها في الدور الثالث؛ حيث مررت بطابقين أبوابهما مقللة والبيت ساكن لا حركة فيه ولا صوت وكأن أهليه قد هجره.. هو بيت قريب من أستاذ الإسكندرية..

.. طرقت الباب وشرعت الباب القديم ودخلت وأمسكت بذراعي في ألفة حتى أدخلتني غرفة الصالون.. كانت ترتدي ثيابًا ضيقة تبرز

معالم جسدها بنظراً وبلوزة شفافة.. إن هذه ليست نادية التي قابلتها كثيراً في مقهى النبي دانيال وجلست مقابلتي، ووضعت ساقاً فوق الأخرى فكانت أكثر إغراءً من سعاد التي إذا وضعت ساقاً فوق الأخرى تعرّت وبانت ملابسها الداخلية.. كانت فرحة تحاول السيطرة على أنفاسها..

ولمّا ظهر على بعض الارتباك قالت:

- تعبان..

- أبداً..

- عرفت العنوان مايتوهش..

- البيت مافيهش حد..

- الدور الأول فيه سكان والتاني أصحابه مسافرين والناس اللي جنبنا مسافرين بلد عربي..

- مش كان النبي دانيال أحسن..

- أنا عايزة أشوفك لوحديك مش عايزة أشوف حد معنا..

- هيّ ماما من شبرا..

- من شارع خمارويه بين كنيسة سانت تريزا وجامع الخازندارة..

- طول عمري عايش في ميدان الخلفاوي من عام ١٩٦٤..

- إنت ليه بتحب تتكلم عن الأماكن.. عامة أنا ماعرفش مصر كويس أنا بنت إسكندرية..

- لكن إنت حلوة النهارده..
- صحيح..
- قوي إنت مش بتاعة النبي دانيال..
- اسمع يا شريف.. أنا بحب حرיתי أكثر من أي شيء..
- كل الناس كده..
- لأ أنا لدرجة أحبها أكثر من حبي لأي إنسان..
- فكرة جديدة يا نادية..
- يا شريف سعاد صاحبتني..
- كويس..
- بتحكي لي كل حاجة..
- زي إيه..
- بتروح ليها البيت..
- يا نهار إسود هي عبيطة..
- لأ مش عبيطة فيه سنات كتير مابتلاقيش حاجة تعملها
فبتقول أسرارها لبعضها..
- أنا رحنت عندها ضيف.. ضيف ويس..
- ولأ أكثر من كده وإيه يعني هي الواحدة مننا هاتروح فين
يعني..
- يعني هي ليها حق في زعلها من جوزها..

- ليها ستين حق .. إنت عارف أن ابنها على طول مع أختها ..
- يعني هيَّ مش عايزة ابنها كمان ..
- الستات لمَّا بتكره أعوذ بالله حتى ابنها رحلته مع أختها مش طايقة حاجة منه ..
- هيَّ أصلاً ليه اتجوزته ..
- وهيَّ كانت تعرف إنه لخش كده ..
- مشاكل كتير قوي ..
- قل لي بقى بتروح تعمل إيه مع سعاد ..
- وها تستفيدي بإيه لمَّا أحكيك .. مش هيَّ قالت لك ..
- عايزة أسمع منك إنت ..
- ماقدرش مافيش حاجة أصلاً غير السلامات والتعارف ..
- وإيه كمان ..
- أرجوك يا نادية ماتكسفينيش ..
- هوَّ انت بتتكسف همَّ كل بتوع مصر كده ..
- أبداً أنتم عندكم في إسكندرية رجالة أفقع مني بكثير ..
- متهيألك .. لمَّا قالت لي سعاد عرفت أنك راجل فظيع ..
- شكلي كده مش هارجع مصر تاني ..

- وترجع إليه هوّ إنا مش مكفينك .. الإسكندرانية جدعان قوي يا شريف..
- على فكرة أنا ماليش دعوة بالرجالة.. بحب يا نادية أصحاب الستات الحلوة..
- اللّي زيّ طبعاً..

وضحكت نادية الخجولة الرقيقة ضحكة جلجلت جدران بيتها وبيت الجيران.. نفس الضحكة الهائجة العابثة الماجنة، التي ضحكتها كوثر وهي نفس ضحكة سعاد.. هي ضحكة واحدة للنساء حينما يتفقن أن يسبرن أغوار رجل.. وشعرت بمتعة وفوجئت أنها مثل كوثر وسعاد.. الله يخرب بيت اللّي ما يعرفش الستات اللّي زيكم.. هكذا قلت لنفسي بعد أن تركتني وذهبت إلى المطبخ لتعد أطباق الحلوى والفاكهة والشاي، وتأتيني بها فوق منضدة متحركة وجلست بجانبني.. وراحت تتاولني طبقاً بعد آخر ولما شبعت من زادها أخذتُ كف يدها في يدي وقبلته فوضعت رأسهما فوق كتفي وراحت تغني.. ماذا أقول لأدمع سفحتها أشواقي إليك.. إلى آخر الأغنية وأنا أمسك بكفي يديها أقبلهما بنهم شديد حتى احتضنتني بذراعيها.. طوقتني ذراعها اليسرى من ظهري وذراعها اليمنى طوّق صدري وشيئاً فشيئاً أيقنت أنها تنام فوقني نومة جالسين على كنية عريضة فسيحة.. نومة فيها أستطيع أن أعدلها فوقها كأنها تنام على فراشها وأنام بجانبها.. كانت الكنية مريحة رغم قدمها، وكان جسد نادية نازاً ملتهبة تكويني وانحنيت فوقها في رقة بالغة فشدتني في عنف شديد وراحت تقبلني قبلات ما ذقت أجمل منها في حياتي. كانت نادية شديدة الإمساك بقبضتها قميصي حتى أنها فكّت أزراره عن آخرها.. وشعرت بأن

الآفاق تحتويني وان امرأة مثل نادية في قبالتها كأنني أسبح فوق موج
المحيط الهادي وليس البحر المتوسط وهمست في خضوع:

- خذني إلى سريري..

- أين سريرك..

- احملني إليه..

وحملتها إليه وراحت تخلع ثيابها، وكادت تمزقها وهي تلقى بها واحدة
بعد الأخرى بأرضية الغرفة..

- تعال..

- مش قادر..

- لأ اقدر..

- أيوة بس خايف..

- هو أنا بخوَف..

- أصل دا كتير قوي..

- مش كتير عليك..

- هو أنت نادية..

- أنا نادية بس..

- بس إيه.. فين نادية بتاع النبي دانيال..

- النبي دانيال دا اسم شارع وكان نبي..

- كان نبي بس ماقدرشي يعمل حاجة للناس اللي كان عايش معاهم..
- ماقدرشي يصلح حد..
- ولا أي نبي يقدر.. قليل قوي اللي بيقدر يبقى صالح وإذا طلع صالح ولاده بيطلعوا شياطين..
- على فكرة النبي بيقدر يهّدي الناس شوية وبعدين النار والرغبات وحاجات بتصحى من جديد في الناس.. وبيجي نبي ورا نبي ومافيش فايذة في الناس..
- شوف إحنا كلنا بنحاول.. شوف العدل والحكم بتوع الحاكم لكن حياة الناس بتاعة الناس والحرية والحب دول المجال الوحيد الفسيح اللي بيتحكّم الناس فيه.. الحرية تيجي الأول بدون حب أو الحب بيجي الأول غصب عننا أو الاتنين ييجو مع بعض دي حاجات ماحدش يعرف يحكمها..
- ياه.. دا أنت مليانة قوي يا نادية..
- شوف المجتمع عايز مني إيه.. أعمل وأشتغل وأحترم الناس وأجيد عملي لكن أنا وأنت في حياتنا أحرار..
- كويس بس هوّ فين الراجل بتاع الحب والحرية..
- ويرضه هيّ فين المرأة بتاعة الحب والحرية..
- هوّ إيه اللي بينقصنا.. إيه الناقص فينا..
- بصراحة كل إنسان فيه حاجات نقص كثير وعلينا كستر وأدب نداريها..

- وإيه كمان ..

- إنت سايني عريانة يا شريف وعمّال تتكلم .. كده هابرد حرام عليك ..

.. ولمّا استيقظ شريف من نومه ظلّ مضطجعاً على ظهره يحدّق في سقف الغرفة يندهش لما وجده مع نادبة في حلمه الطويل، وكان يتمنى أن يكون حقيقة؛ لأنها حتى الآن فتاة صعبة المنال .. فهل ينالها كما رأى في حلمه وما الذي يبعتها عن أن تكون حقيقة مثل كوثر وسعاد .. وراح في نعاس مرّة أخرى ليكون مع نادبة إنه لا يستطيع أن يلقاها إلا في الحلم ..

.. أخفى فوزي حكايته المؤلمة عن ابنته كوثر أيامًا، وكان يشعر أنه يمشي بقدمين يجرهما جرًا، وكأن شيئًا ثقيلًا يمسك به في الأرض، لكنه قرر في اليوم التالي أن يذهب إلى أبيها في غيط العنب ليخبره عن ابنته وكان يتخبط في الشوارع وبين الجدران مترنحًا وهو يعبر الأزقة والحارات حتى وصل إلى شقة أبيها في بيت قديم مفلوق الجدران لشدة قدمه، ولقد أقام صاحب البيت سقالات خشبية تسند الجدران حتى يهجره السكان أو يصرح له الحي بالإزالة، لكن السكان جميعًا بما فيهم والد فائزة كانوا حائرين وحزاني على بيتهم وفي نفس أحزانهم أين يذهبون لا بديل لبيت آخر أو حتى عشة.. إنهم جميعًا فقراء..

.. سعد فوزي السلام المتهرئة حتى وصل على باب مرسى البالغ من العمر سبعين عامًا والذي كان يعمل عاملاً في قسم الجودة بشركة النصر.. فتح مرسى الباب للقارع بعد أن نادى عليه فوزي ..

- عم مرسي عم مرسي..

عرف مرسي صوت فوزي فشرع الباب مهلاً بصوت خفيض:

- أهلاً تعال يا فوزي.. فينك..

- والله ياعم مرسي تعبان شوية..

وقعد فوق كنية بالصالة وجلس مرسي بجانبه الذي أكثر من:

- فينك.. فينك..

وكان فوزي مرتبكًا حائرًا حزينًا ولمَّا سأله مرسي عن ابنته:

- فين فايذة إزبها ماجتتش ليه..
- بقى لك أد إيه ماشفتهاش..
- شهور..
- إزاي ياعم مرسى.. دا بتسييني من يوم والتاني وتقوللي رايحة عند أبويا..
- أبداً كدابة.. زي ما إنت شايف ماحدث بيخبط على بابي لدرجة إنني خايف أموت وماحدث يدري بيه..
- واينك عبده ما بيحيش..
- مرسى مطروح بعيدة ومابيقدرشي يسيب شغله ويبجي إلا في العيد..
- الله يكون في عونك..
- .. وراح مرسى يديم النظر في أرضية الغرفة كأنه يبحث عن نقود وقعت منه، ولما هم بالذهاب إلى المطبخ لعمل شاي لضيفه أمسكه فوزي من كتفه وحلف عليه ألا يعمل شيئاً فقعد الرجل، وعاود يبحث بعينيه الضعيفتين إلى السقف كأنه يرى صرصاراً بين أعواد البوص في سقف الصالة.. وعلى استحياء قال فوزي:
- أمال ياعم مرسى فين بتروح فايذة..
- ماعرفشي يافوزي شوف مش هي مراتك..
- طيب هي فين دلوقتي من كذا يوم ركبت تاكسي وخذت في وشها ناحية البحر..

- غريبة وش عرّفك..
- مشيت وراها بالتاكسي..
- طيب لقيتها راحت فين..
- هربت منّي في الشوارع..
- لمّا رجعت البيت سألتها كنت فين..
- مارجعتش وعلشان كده جت لك..
- يا فوزي بقى لي شهر ما شفتهاش..
- طيب والحل إيه.. إنت أبوها قولّي..
- أنا ماقدرشي أعمل حاجة أنا عيّن وغلبان وضعيف وهيّ
- مراتك وأنت حر فيها اتصرّف إنت.. طلقها اضربها
- مؤّتها.. إنت جوزها..
- ما هي بنتك..
- وأنا في إيدي أعمل إيه.. لو كان أخوها هنا كان
- هايتصرّف..
- يعني أتصرّف أنا..
- اتصرّف ما عنديش حل أنا بانزل بالعافية أجيب حاجتي من
- تحت وكل فين وفين بانزل مرّة..
- ولو قتلتها ماترعلش..
- إذا كانت تستاهل القتل اقتلها بس الأول شوفها بتروح
- فين..

- يعني واحدة بتبات برّه أيام وليالى وبتروح الدنيا الواسعة
عالبجر تبقى بتروح فين..
- شوف أنا ماقدرشي أعمل حاجة ولو هى ماشية غلط
تستاهل اللى يجري عليها.. والله من الأول أنا دعيتك ربنا
يعينك عليها.. هى كانت جامدة عليك من الأول..
- يعني أنا مش مالي عينيك بتجوزني ليه من الأول ياعم
مرسي..
- هوّ فيه أب عايز بنته تفضل جنبه.. هى المشكلة دي
بنتي.. والراجل دلوقتي مشكلة ستات كثير..
- إزاي..
- البنات والست في الزمن ده في دماغهم إن الرّاجل يقدر
يعمل كل حاجة لكن للأسف يا فوزي الراجل في وقتنا هذا
بقى أضعف من الست وصحته راحت من كُتر الهم
وعلشان كده فيه ستات كثير طلعت برّه البيوت تدورّ على
الحل..
- هى الست مش عايزة راجل يصرف عليها..
- ماكانش حد غُلب.. عايزين مراعاة وحب وحنان عايزين
راجل جامد يبسطهم..
- قالت لي مرّة.. لا فلوس ولا..
- شوف أهو أنت قلت العقدة.. يبقى أنت مقصر يا فوزي..

- ياريت كنت أقدر أكثر من كده.. شغل شغل علشان نعيش
باجي البيت همدان وتعبان علشان آكل وأنام وأروح الشغل
تاني علشان الدنيا تمشي..
- إنت يا فوزي ممشيها من ناحية واحدة..
- طيب هات لي راجل يقدر يمشيها من كل ناحية..
- أنا معاك والله مصدقك معلش هي بنتي باين عليها طلعت
من طورها..
- والحل إيه أهي وقعت في قعبازي..
- تعرف كنت ريح نفسك بعد مراتك مامانت ولا تتجوز ولا
تروح ولا تيجي.. وبنتك كانت كفاية تعملك اللقمة
وخلص..
- بنتي أو بنت غيري كانت هاتبقى نفس المشكلة..
- يعني انت مش هاتعمل حاجة لبنتك..
- ياريت أقدر..

.. غادر فوزي بيت مرسي وهو في حالة نفسية عسيرة والمشكلة في هذا الرجل أنه ضعيف لا يستطيع أن يقتل فرخة ومسكين لدرجة أنه يقول في نفسه وكيف أطلقها.. وواهن فإنه لا يستطيع حتى أن يضرب غلامًا صغيرًا.. فوزي أقوى ما فيه أنه لما كان صغيرًا في عمر العاشرة تعلم ميكانيكا السيارات عند الأسطى طلعت وكان الأسطى يضربه على قفاه إذا غاب ذهنه لحظة عن متابعة عمله

وكان يفعل هذا مع الغلمان الآخرين، ولمّا كان يتعامل مع معالجة كاوتش السيارات نفخه وترقيعه وحمله وتركيبه استطاع أبوه أن يلحقه عاملاً في شركة النصر للكاوتشوك ولما بلغ اثنين وعشرين عاماً أخذه من يده وذهب به إلى قريته، التي تتبع مركز السنطة غربية وزوجة من ابنة أحد أقاربه هناك والذي أتى بها في بيت أبيه هذا الذي يقع في شارع المستشفى الإيطالي..

.. نام يومين في بيته ولم يذهب إلى عمله في شركة النصر، ولمّا اقتربت منه ابنته ووضعت كف يدها فوق جبينه في حنان قائلة:

- مالك يابه راقد ومابتروحش الشغل بقى لك يومين..

- أبداً تعبان شوية..

- من إيه قوللي يابه.. أمال فين فايضة.. فين مراتك يابه..

انعدل الرجل من رقدته وتمعن في وجه ابنته وقال بصوت أجش:

- هيّ دي مصييتي يا بنتي..

.. أمسكت بذراعه وانكفأت على وجهه وقبّلته:

- قول يابه فيه إيه أنا بنتك فك نفسك معايا يابه..

.. وراح الرجل يحكي لابنته ما حدث من يوم ما تابعها بالتاكسي

وحتى ذهابه إلى أبيها في غيط العنب.. وأخذت كوثر في أسى تهزُّ رأسها وتضرب كفًا بالأخرى ثم همست:

- وبعدين يابه هاتعمل إيه..

- قوليلي أعمل إيه..

- طَلَّقَهَا يَابَهُ..
- هِيَ فِينِ عِلْشَانِ أَطَلَّقَهَا..
- طَلَّقَهَا غِيَابِي مَافِيشَ مَشْكَلَةَ..
- عَايِزُ أَتْلَايِمِ عَلَيْهَا الْأَوَّلِ..
- لِيهِ..
- عِلْشَانِ أَقْتَلَهَا..
- مَاتَسْتَاهَلْشَ عِلْشَانِ تَرُوحُ فِي دَاهِيَةِ مَعَ وَاحِدَةِ زِي دِي..
- أَنَا زَعْلَانِ عَلَى نَفْسِي..
- لِيهِ..
- شُوفِ بَقِي لَهَا أَدِ إِيهِ مَاشِيَةَ كَدِهِ..
- وَإِحْنَا مَشِ دَارِييِنِ بِحَاجَةِ..
- الثَّقَّةُ الْعَمِيَاءُ خِيْبَتِي اللَّيِّ مَاجَرْتَشِ عَلَى حِدِّ..
- طَيِّبِ يَابَهُ قَوْمِ فَوْقِ وَرُوحِ الشَّغْلِ النَّهَارِدِهِ وَخَلِيْنَا نَفْكَرَّ هِي فِينِ..
- هَاقُومِ يَابِنْتِي مَاتَقُولِيشِ لَشْرِيْفِ عَلَى فُضِيْحَتِنَا..
- لِأَمْشِ هَاقُولِ يَابَهُ.. بَسِ إِنْتِ أَرْمِي طُوبَتَهَا..
- هَارْمِيهَا بَسِ أَشُوفَهَا الْأَوَّلِ..

.. كان من أهم البيوت التي تذهب إليها فائزة هو بيت الأوقاف، وهو أكبر بناية في اسبورتج ويقع على البحر يحاذيها شارع ضيق يلتوي بناصيتها، شقة خمسة بالدور الأول محمد طالب في كلية الزراعة وأحمد ملازم أول شرطة في قسم المنشية وثلاثة منهم رؤوف المحاسب بشركة النصر وبطرس المدرس الثانوي وجميل صاحب بوتيك بمحطة الرمل، وجميعهم أغراب من محافظات مختلفة، وكل منهم يهوى أن يقضى ليلة خميس ممتعة مع أية فتاة ليل تطرق بابهم، فإذا جاءتهم واحدة ظلّت معهم حتى الصباح؛ لأن وقتهم طويل فهم خمسة وخميسة في عين العدو، هكذا كانت تقول لهم فائزة عندما تدخل عندهم:

- خمسة وخميسة في عين الحسود..

فيصفقون لها بشدة وتظل ترقص وسط تهليلهم وغنائهم حتى تسقط على الأرض فيحملها أحدهم إلى غرفة في مؤخرة الشقة خصيصاً للقاء أية امرأة تقضي معهم متعة الخميس..

.. في أول ليلة تقضيها مع الخمسة هؤلاء دخلت مع رؤوف المحاسب وهو أكبرهم سناً، خلعت ملابسها وراحت تتمايل يمناً ويسراً وهي ترقد في فراشه فقال لها:

- من عادتي أعرف قصة كل واحدة..

- ليه بقى الحزن ده..

- بس قولني إيه الليّ خلّك كده..

- إليه يعني هوّ كده وحش قوي أنا مش شايفه فيها حاجة كده
ولاً كده..
- بس قولي حكايتك..
- أبويا جوّزني واحد بيشتغل في البحر.. في الصيانة على
مركب.. اتجوزني أسبوع وسابني شهرين.. ييجي أسبوع
ويغيب شهرين وتلاتة..
- وبعدين..
- لقبته ماينفعش.. يسيبني والنار قايدة في جتتي ولا حمل ولا
عيّل ولا.. ولا.. خلاصة الكلام اطلقت منه..
- وبعدين..
- أبويا رمانى على طول في جلابية فوزي..
- دا تاني واحد.. وليه جلابية..
- هوّ جلابية بس مافيش حزن.. جلابية فاضية فيها شوية
عضم..
- وبعدين..
- مافيش أي حاجة بتاع البحر كان أحسن على الأقل كان
ينزل كان بيعمل حاجة..
- مش فاهم..
- أحسن ماتفهمش ما خلاص بقى مافهمتش خلّصني فيه
غيرك دانتو خمسة الليل طويل..

- ياللا بقى اقلع..
- الواحد بكام..
- اثنين جنيه عملت اثنين بأربعة.. وفلوسي أول بأول..
- ليه إنت خايفة.. فيه حد عمل معاك عملة..
- أيوه بيحصل وحصل..

.. وفي ليلة قالت لآخر :

- كي أعيش لابد أن أفعل شيئاً من داخلي.. شيء أنا فاعلته، وكان لابد أن أملك المال حتى أستطيع تحطيم بقية السلاسل، التي تقيّد حياتي، وكان لابد أن أخرج من دائرتي مع فوزي.. كم كنت أكرهه.. كيف يتزوج امرأة ولا يملك شيئاً يعطيه لها.. ومن شدة كراهيتي له كان لابد أن أخرج من دائرته هو كأني أعلن لكل الرجال الخيخة لا داعي لزواجكم؛ لأنكم مقبرة لأية امرأة، إن الرجال ومنهم فوزي مدفن للحياة.. كان علىّ أن أخرج من هذه الدائرة الاجتماعية التقليدية القاتلة التي تموت فيها كل امرأة مثلي، ولو كنتُ أستطيع أن أمشي في كل ميدان وشارع وأصرخ لأجمع كل النساء مثلي حولي ونجوب كل أنحاء المدينة لندعوهم..

.. دعوة الخروج.. لكنني لم أستطع؛ لأنني سوف أتعرّض للضرب أو القتل.. دعوت دعوتي في السر.. ورحت أبحث عن كل امرأة مثلي لأدعوها للخروج لأجد هذا الكم من الرجال الغرياء والعذّاب الذين يملئون المدينة ويحترفون جسد المرأة والباحثون عن الهوى في

الشوارع والملاهي.. إن مدينتي رحبة واسعة بالخروج.. ولو تمعنت النظر ودققت في أمر كل مدينة في هذا العالم لأيقنت أن خروج المرأة عن دائرة مجتمعها التقليديّة ظاهرة واضحة وبيّنة.. إن كم الخروج أو دعوة الخروج للمرأة للبحث عن رجل تحبه أو تعشقه في مدينتي كبير.. خروج صامت يكمن في داخل كل امرأة فإذا خرجت المرأة في هذه الدعوة الضمنية فإنها ستجد لها ملاذًا تلجأ إليه في المدينة حتى ولو كان عرقوبًا أو خصًا في غابة..

- ومن أنت حتى تدعى لدعوة مثل هذه.. يا فايضة هذه دعوة للدعارة ولا أحد يستطيع السكوت عنها..

- ألم أقل لك إنني إذا دعوت لهذه الدعوة جهراً فإنني سأقتل.. لا ترهق نفسك ولا تؤنّبني على ما أقوله.. إن النساء يخرجن ويخرجن في كل يوم زيادة عن اليوم الذي يسبقه.. إن دعوة الخروج فاعلة دون دعوة، وهي شيء طبيعي يخرج من دائرة المجتمع الظالم للمرأة..

- لا أحد في هذه المدينة يصل في تفكيره أن في مكنون نفوس نساء الليل كل هذا الحقد على الرجال..

- ضحكت في سخرية وقالت:

- حتى الدراويش يخرجون.. وسكتت..

فقال لها محمد طالب كلية الزراعة:

- لا أفهم.. وهل الدراويش يدعون مثل هذه الدعوة..

- أعرف درويشاً واحداً..

- ما حكايته وهل هو مع نساء الهوى..
- هذا الرجل لا أحد يتصور أو يصدّق أسرار حياته الخاصة..
- إن الناس جميعًا يخافون أن يقتربوا من الدراويش خاصة أن أسماهم بالية ورائحتهم فظيعة هذا غير أنهم مخابيل ويقتربون من الجنون..
- أنا اقتربت من درويش يسكن في خص بالمدافن وسط هذه المدينة الغربية..
- كيف..
- هو الذي دعاني للخروج..
- وكيف لدرويش أن يكون صاحب دعوة كهذه..
- هو صاحب فعل.. فعله معي هو الذي فتح لي دعوة الخروج..
- لم أعد أستطيع لقاءك..
- ليس مهمًا أنا معك حتى الصباح.. أنت آخر أصحابك..
- لم يعد هناك أحد أنا آخرهم.. أسمع منك حكايتك مع الدراويش..
- خرجت في ليلة من بيت فوزي كالعادة إلى بيت أبي، ولم أكن أذهب إلى أبي..
- أين كنت تذهبين..

- أمشي هناك وهناك .. أتسكع .. فلم أصطد أحدًا ولم يأخذني رجل ..

ولم أكن أستطيع العودة إلى فوزي في نفس الليلة كما تعودت فأنا أغيب عن البيت على الأقل ليلتين فيهما أملاً جيوبي بالمال وأشبع جسدي .. وسكنت ..

وراح محمد يسرّح شعرها بأصابع يده ولمّا كان منهمكًا في سماع حكايتها .. سكت هو الآخر قليلاً ثم قال:

- اكلمي .. أين ذهبت في هذه الليلة العقيمة ..

- قلت أعود إلى بيتي وفي العودة وجدت هذا الدرويش يقف عند أول حارة في المدافن، فأسرعت الخطى خوفًا منه؛ لأنني أخاف مثل هؤلاء لكنه فجأة وقف في طريقي راجيًا:

- بيتي هنا ورا شوية .. ياريت تبقى ضيفة الليلة هاخدمك خدمة العبد للسيد أشوف بختك وأقرأ ليك الفنجان ..

- فغر فاهي وكنت سأبصق في وجهه .. اندهشت كيف لرجل عفن مثل هذا يدعوني وهل خبل عقله إذا تصوّر أنني سأطأوعه ..

- وماذا بعد ..

.. استلقطت أنفاسي ورحت أتفحصه فشعرتُ أني أحترقه فقال:

- أنا بتاع ربّنا .. تعالى شوفي عشتي نظيفة تليق بمقامك أنا خدامك ماتستقلّيش بيّه .. إنت متعرفيش أنا كنت إيه .. هاحكليك حكايتي ولو ما عجبكيش مكاني امشي عمري ما

هعمل حاجة غصب عنك.. ومال على كف يدي كأنه
يركع وقبله قبله لم أشعر بها في حياتي؛ لأنه أصلاً لم
يقبلني رجل في كف يدي من قبل.. وسكنت مرّة أخرى
ويبدو أنها سرحت في ليلتها هذه، ونسيت أنها عارية من
كل ملابسها في فراشي ولمّا طال سكاتها بادرتها:

- ولماذا لم يقبلك رجل في كف يدك..
- وهل يقبل الرجل امرأة ليل في كف يدها.
- ألم يقبلك زوجان سابقان..
- زوجي الأول كان يعمل في صيانة البواخر، وهذه الطبقة
من الصناعات لا تعرف هذا النوع من القبل، زد على ذلك
أن معظم سكان الأحياء الشعبية الفقيرة دهمتهم معاناتهم
مع صعوبة الحياة فليس لديهم أي مشاعر رقيقة أو
رومانسيات..
- وزوجك الثاني..
- فوزي هذا صناعي كاوتشوك ولم ينل أي تعليم ألبته، وهو
رجل هيلهي غلبان يلبس جلباباً ولا يعرف حتى كيف يقفل
أزرار ملابسه..
- من خنشور إلى خنشور..
- اندهشت كيف لرجل مثل هذا يقبل يدي بهذا الخنوع..
صدقتي كانت لقبته هذه وانحنائه أمامي كأن كتيبة من
الرجال ترتجف أمامي راجية..

- حكاية غريبة.. وهل دخلت معه إلى بيته..
- دخلت.. دخلت ولم أخرج ونمت معه في بيته ليلتين، ولم أكن أريد أن أغادره لولا أنني كنت محتاجة إلى المال..
- أفهم أنه عاشرك..
- عاشرني وكان يخدمني خدمة العبد.. كان تحت قدمي.. ولا تصدّق أنه عاملني معاملة إنسانية ومعاملة رجل..
- وهل أعجبك في معاشرته لك..
- لا تصدّق أنني نمت معه ليلتين بنهارهما؛ لأنني لم أجد رجلاً في حياتي مثله..
- هل هذا سر في رجل مثل هذا..
- وكلّما جُعت إلى رجل قوي يشبعني ذهبت إليه.. يملك قوّة خارقة، وكنت أشعر أنه ينتقم من جسدي.. وكان يعجبني عنفه..
- وهل عرفت حكاية هذا الرجل مع الحياة..
- عرفت كل شيء عنه حكايته طويلة غريبة..
- احكيها يا فائزة أنا نَوّاق لمعرفة حكايته..
- في ليلة أخرى..
- تقولين إنه دعاك للخروج لكن أيامك مع الخروج كانت قبل أن تلتقي بالدرويش..

- التقيت به أيامي الأولى في التسكع ولم يكن في هذا الوقت
قد قابلت رجلاً يشبني، وكان استمراري في الخروج الكبير
ليس بحثاً عن المال فقط ولكن بحثاً عن رجل آخر مثل
درويش يشبني مثله حتى أستطيع أن أستغنى عنه..
- أفهم أنك لم تجدي حتى الآن رجلاً مثل درويش..
- لا.. فأنت تعرف أن الرجال مع من هم مثلي كما يقولون..
هلکش بكلش..
- يا فايضة.. لا أستطيع لقاءك الليلة بعد هذه الحكايات التي
اقشعر لها شعر رأسي..
- لا توجد مشكلة.. نم.. سأبقى معكم ليلة أخرى..
- ارتدى ملابسك..
- لا.. الجو حار..
- أعطيك معي بالشرشف..
- وخذني في أحضانك..

.. كانت سعاد طيلة عشرتها لشريف حزينة مهمومة لما يجري حولها من رغي وإشاعات المدرسين والمدرسات، وضاعف أسفها أن نجوى زميلتها تتكلم عليها كثيراً مع الزميلات اللاتي ينقلن الأقاويل بسرعة الرعد خاصة إذا كانت على امرأة مثلهن. وكان شريف أحدث المدرسين وأكثرهم وجاهة وجاذبية، أكثر الرجال في المدرسة، الذين تطلق عليهم كثير من الإشاعات ليس بين صف المدرسين فقط، ولكن كانت الأقاويل والحكاوي تكثر حوله خاصة من طالبات الصف الثالث اللاتي يبلغ معظمهن عمراً تجاوز العشرين عاماً، كانت سعاد تعرف أن في كل مدرسة للبنات تكثر الحكايات والإشاعات والمغامرات خاصة إذا كان بالمدرسة مدرسون عزّاب، وتكون الإشاعات أكثر رنيناً ومنافسة إذا كان من المدرسين العزّاب مدرسون أصحاب قامات فارهة ووجوه جذّابة وأصحاب كلمات حلوة مهذّبة وشاعرية، لكن نجوى أكبر مروّجة إشاعات بالمدرسة قد أطلقت بين زميلاتها خاصة أن هناك علاقة مؤكدة تربط بين سعاد وشريف حتى أن هذا القيل والقال انتشر بين الطالبات في الصف الثالث، ولمّا وصلت تلك الإشاعة إلى درجة أن طالبة مقرّبة من مدرستها سعاد مالت فوق أذنيها في يوم بغرفة المدرسات ووشت لها بالإشاعة المنتشرة بين الطالبات.. وزاد ذلك سعاد حزناً وكآبة وكراهية خاصة لزميلتها نجوى صاحبة الإشاعة، وفي يوم كانت المناقشة حارة في حوش المدرسة لمّا أمسكتها سعاد من كم ردفها بعصبية زاعقة:

- إنت بتقولِي إيه يانجوى..

- بقول إيه يا سعاد..

- أنا على علاقة بشريف..
- ما عرفش والله مين قال لك؟ هوَ إنت شايفاني أنا بس ما المدرسة مليانة كلام عليك..
- اخص عليك دا إنت مش تربية إسبورتنج إنت تربية الورديان..
- بلاش قلة أدب روجي دورِّي على نفسك شوفى بتعملي إيه من ورا جوزك..
- هيَّ وصلت قلة الأدب لكده .. وصرخت سعاد ولطمت خديها..

.. ودفعتها سعاد بكلتا يديها فوقعت نجوى بالأرض وهرول إليهما الزملاء والزميلات وبعض الطالبات مما أحدث هرجًا ومرجًا بالمدرسة وحولهما الأستاذ حلمي ناشد إلى التحقيق..

.. كان لهذه الفضيحة وقع أثر حزين في قلب سعاد بل كانت لهذه الواقعة أثر سيئ في نفوس الطالبات أن تتشاجر مدرستان في حوش المدرسة وعلى مرأى من الجميع بشأن علاقات وإشاعات حالة من الدهشة والغمز واللمز من الطالبات.. أمال خلو إيه لينا.. آدي المدرسات ولا نسوان الحارات..

.. غابت سعاد عن المدرسة وفي أسبوع استطاعت أن تنقل نفسها إلى مدرسة أخرى ولولا أنها استطاعت الوصول إلى واسطة ما كانت تستطيع النقل خاصة أن طلب النقل وقعَّ عليه بالموافقة ممدوح جبر وكيل وزارة التربية والتعليم بالإسكندرية في هذا الوقت..

.. وكانت جد صريحة على سرية علاقتها مع شريف فابتعدت عن كل زملائها وزميلاتها في مدرسة إمبروزو لما كان لواقعة المشاجرة في حوش المدرسة أثر حزين في نفسها، إلا أنها أبقّت على علاقتها الحميمة مع نادبة جرجس؛ حيث كانت نادبة منذ زواج سعاد بزوجه العسكري تعرف كل المشكلات التي حدثت مع سعاد منذ زواجها.. وكانت نادبة أهلاً لكل أسرار سعاد، ولم تنس نادبة قبل أن يأتي شريف إلى مدرسة إمبروزو بأيام قليلة ما حكته لها سعاد وهما يجلسان في محل النبي دانيال مكان نادبة المفضل مع كل عزيز لها؛ حيث أخبرتها سعاد بما تنوي عمله مع زوجها ودار حديثهما بخصوص الموضوع بشكل نهائي وبتفصيل لم تنس نادبة أبداً:

- شوف يا نادبة أنا خلاص طهقت من جوزي..
- ليه فيه حاجة ثانية..
- آخر حاجة لما نزل إجازته الليّ فانتت جاب واحد من القهوة يلعب معاه طاولة في البيت..
- أيوه.. إيه الخيبة دي..
- ومش كده كمان..
- إيه تاني..
- نادي لي وقال بأعلى صوته.. هات الشاي يا سعاد..
- نهاره إسود أد إيه ندل..
- وعملت إيه..
- عملت الشاي وقلت أشوف صاحبه ده الليّ جايه البيت..

- هيه..

- عملت الشاي ورحت بيه مرحة على مضض أهلا
وسهلا..

.. فرد صاحبه مبتهجا ونظر إلى نظرة بحة من فوق لتحت أكلني
فيها ولو طاوحت نفسي لألقيت بالصينية في وجهه، ولكنني تحاملت
ولمحت زوجي المخبول يرى نظرتة البحة فيبتسم ويلقي بوجهه نحو
الأرض، وكأنه يريد مزيداً من بحة صاحبه فتمادى صاحبه هذا
قائلاً:

- إيه ياباشا.. إنت جيت الفرس دا كله منين..

وضحك زوجي الساذج، وكأنه يقدم زوجته طواعية لرجل صايع
أعرفه من بعيد فهو دائم الجلوس على المقهى وحريف دومنة
وشطرنج وحريف سجائر..

- دي مأساة ياسعاد.. ودا هايستمر كل ما ينزل إجازة..

- ماعرفش لكن أنا مش هاتتي لما ينزل إجازة تاني؛ لأنني
بعد كده هاجيب مسدس وأضربه هو وصاحبه بالرصاص..

- لألاً وعلى إيه تضيعي نفسك مع واحد عبيط بالشكل ده..

- هو من ولاد الريف السذج اللي بيعتبروا إنه لما يصاحب
حد في المدينة ده بالنسبة له تقدم ومدنية كبيرة..

- يامة في الدنيا بهايم.. المهم هاتعملي إيه..

- من بكرة هاخذ ابني أوديه عند أختي.. إنت عارفه إن
أختي ما عندهاش ولاد..

- وبعدين هاتروحي فين هاتعيشي مع أختك..
- لأ مع أمي في المنشية منها أخدمها ومنها أعيش في هدوء..
- وهايهون عليك ابنك..
- يهون.. الواد شكل أبوه بالضبط وعلشان كده هاتحمل بعده..
- مش عايزة أفكر أبوه عايزة أروح بعيد بعيد لغاية مالاقي حل..
- مشكلتك يا سعاد مشكلة كراهية وازدراء..
- يبقى أنا كده اتجوزت؟ جتُّهم نيلة أهلي تعسوني..
- وبعدين المشكلة زي ما هي..
- المهم أبعد عنه دلوقتي والحل أكيد هاييجي..
- كويس عندكم ممكن الطلاق..
- ممكن قوي بس إزاي..

.. ومّرت أيام أخرى بعد إفشائها أسرارها لنادية إلى أن جاء شريف.. وكتمت سعاد كل مشاعرها نحو المدرس القادم، وكان تهافت المدرسات العازبات عليه سرًا وعلانية وكذلك الطالبات في الصف الثالث خاصة، ولو استطاعت سعاد أن تمنعني علنًا بأيديها ولسانها لفعت، سيطرت على مشاعرها ونوازعها نحوه حتى كان أول لقاء في الحديقة والذي بعده ذهبوا جميعًا نجوى ونادية وهو يتمشون في

الشوارع حتى جلسوا في كافيتريا كلية الهندسة، وكانت سعاد تعتمد على الصمت المثير فهي امرأة إذا وضعت ساقاً فوق ساق في مكان عام هزته لما تتمتع به من جمال بديع لجسدها السفلى وإذا عقصت خصلة من شعرها الأسود خلف رقبتها تأوّه أي رجل يعي معنى الجمال على لفتتها، فإذا فتحت زرار قميصها الذي يدارى صدرها الفاتن فتحت أي مدينة تطل على البحر أبوابها لتستقبل نسماته الرقيقة بين جوانحها، وفي المنشية حي بيتها إذا هطلت الأمطار في شوارعها وسارت تمشي في ثقة محتمية بمظلتها فكان كل رجل حتى الأعرج من الرجال يقف يتأمل كتلة الجمال البديع السائرة تزيّن جنبات الحي كله كأن نشيد البحر الهائج يسكن عندما يرى سعاد تسير في شوارع المنشية فيبقى في الحي كل من كان قائماً في بناياته، وتشعر أو ترى بأن هناك بنايات أخرى جميلة قد أقيمت بجانب جسدها الفاتن، فينصرف الناس عن أعمالهم ويذهبون بكل ما فيهم من مشاعر ليشاهدوا مدينة جديدة قد أقيمت في شوارع الحي القديمة، سعاد مدينة وحدها يراها الناس في ممر حياتهم، ولكنهم جميعاً لا يستطيعون أن يدخلوها، كانت مدينة سعاد عذراء لم يدخل شوارعها أحد ولم تؤجر شقة واحدة لساكن في المدينة إلا أنها فتحت أبوابها لشريف وقالت له أنت ساكني الوحيد، وقبضت عليه في كافيتريا كلية الهندسة عندما وضعت ساقاً على الأخرى وعقصت خصلة من شعرها خلف كتفها، ولم يعرف أحد أن سر زواجها هذا أنها لم تفتح أبوابها إلا مرة واحدة لهذا الجلف فيه حملت ابنها ولما ذاقته وهو يطربش في بحرها بصقت في وجهه وزجرته بقدميها حتى وقع من فراشها مطروداً إلى الأبد من أول ليلة، وكان ذلك من غرائب

الزمان القاسي، وكتمت على سر حياتها وقفلت أبواب بحرها وخزنت كل مشاعرها الحزينة حتى لا تذهب إليها أسئلة الناس في اندهاشهم:

- إِرَّاي اتجوَّزْت.. إِرَّاي دا جوزك.. يا حسرة عليك.. إيه اللي عملتيه ده..

- تجنبت كل تطفلات الناس حولها، وتركت زوجها في شقته بفكتوريا وهجرت بيت العقوبة الذي نزل به الزمان فوق رأسها.. هجرته إلى بيت أمها في المنشية وراحت تحاول إقناع نفسها أنها لم تتزوج، والدليل أنها ما زالت عذراء إلاّ من مرّة واحدة فتحت أبوابها وتقرّرت من فتحها؟ وقفلتها إلى الأبد فهي قد وصلت في إقناع نفسها بأنها الأنسة سعاد تلك السيدة العذراء الجميلة، التي تنتظر رجلاً آخر تفتح له أبوابها أو يستحق أن تفتح له باباً واحداً حتى وإن كان الرجل عاشقاً..

.. واستجابت الأقدار لحلمها وفتحت أبوابها لقادمها الجديد شريف.. أقول أمام الناس جميعاً أنت حبيبي، ألفُ بك وأدور كل أحياء مدينتي وأقول أنت عشيقتي، نعم يا شعب مدينتي أنت الذي زوجتني هذا الساذج الجلف لكنك أيها الشعب قد صحت قدري ولم ترني أو حتى إذا كنت تراني فإنك لم تمنعني عن فتح أبوابي لعاشق فتحت له أبوابه مدينتي عن طيب خاطر وفي استسلام لم تشهده أسوار البحر حين تستسلم لهياج أمواجه الصاخبة.. أنا وحدي مدينة ومدينتي تقع على شاطئ بحر فيه عاشق واحد يسبح فوق أمواجه.. أشهد أنني امرأة مارست شوقي في منتهى الرقى والمدنية مع شريف، لقد أخرجني عاشقي من مدينة تمتلئ بتراب أغبر كوّنته أزمنة قديمة على

سطوح كل بيوت المنشية.. من يوقفني عن نوازعي من يزرعني من تيار يحيى فقد مُنحت من الفاكهة النبيذ وكل أهل المنشية الذين تهكموا من زواجي لم يمنحهم الزمان إلا التراب والبادنجان، ارتدبت له الحرير فأدخلني جنة من نعيم لا يدخلها إلا مثلي؛ لأن قليلات من نساء المدينة على شاكلكي، حين جاء بك الله إلى بلدي كافأني على صبري وبلائي، وكنت عاجزة على أن أرسل كلمات إلى ربّي تعجز عن شكري له فتلعثمت الكلمات في فمي فسجدت سجود الشكر فلم أفق من سجودي إلا ويد شريف تحملني إلى فراشي، إلا وذراعه تأخذني إلى حريري فهطلت دموعي وآثرت الصمت؛ لأنه أبلغ من أي كلمات مهما حملت من المعاني، منحته نفسي ولم أتفوه بنبت شفة وجدته يفهم كلماتي من همسة واحدة أو من وجع تأوهته، وفي الليل سعدت إلى القمر لأقبله.. وفي الظلام نورّت حلكته فأضاءت كواكبه من ابتسامتي.. وفي نزولي من السحاب إلى الأرض لا مست ساقبي صخور الجبل فزرعت فيه نوعاً من أشجار لا تجف، وقلت لن أغادر مدينتي، وسأظل عنيده فيما وصلت إليه من قناعة من أن أجعل في كل بيت امرأة عاشقة، امرأة مثلي زارت جزر العالم التي تقع في جغرافيا ما بعد كل مياه المحيطات، أعرف وذقت من هذا الرجل ما لم يقدمه رجل من عالمي لامرأة.. شريف جاء من جزر خلف كل محيطات العالم كان يسكنها وحده، ولأنه نشأ في أرض تحضنها الأمواج فهو مثل نزوة من مطر انهمرت فوق جسدي، فتلك الجزر ولدت رجلاً واحداً من أجلي، وهو الوحيد في قارات الدنيا الخمس يعرف كيف يعشقني، وأني أدعو كل نساء العالم اللاتي فشلن في أزواجهن أن يعشقن مثلي لكن من أين تأتي لهن برجل مثل عاشقي، إن الجزر التي نشأت خلف المحيطات لم تلد رجلاً غيره.. لم تلد إلا

رجلاً واحداً هو عشيقى.. فمن أين آتِ لهؤلاء النساء برجال كى
يعشقن.. فلنرحل جميعاً من هذه القارات الفقيرة..

.. قالت كوثر لشريف إن أبي اشترى سكينًا .. فاندھش وهو يغطي
جسدها بكف يده:

- ليه ..
- عايز يقتل فايضة ..
- يسيبها أحسن في حالها ويطلقها ..
- بيحط نفسه في مشاكل مش أدھا .. مايقدرش يقتل فرخة ..
- طيب خلاص لما يبجي من الشغل أقوله ..
- لأ بلاش هو ما يعرفني أنك عارف حاجة ..
- بقى هو عارف كده ..
- عارف أنك في حالك قوي وأنتك ما بتكلمنيش وبترد على
السلام بالعافية ..
- بس عارف أنك بتطبخي وبتغسلي ..
- عارف بأن ده أقل واجب نعمله لك ..
- آه لو يعرف أنك سايبه وفاجرة ..
- اخص عليك .. وضربته بقبضتها في صدره ..
- لألاً .. أستغفر الله .. دا أنت أشرف من الشرف ..
- دا أنت ما يطمر شيء فيك بقى آخر تعبني معاك تقولني
كده ..

- دا انت ساهية وياما يطلع من تحت السواهي دواهي..
- يا شريف أنا حبيبتك واديتك تسمى دا إيه..
- اخلاص..
- هاتتجوزني إمتى..
- أتجوز مين ولأ مين..
- وضربته ثانية بقسوة فوق رأسه فأمسك يديها وقال يهدئها:
- مافيش حد.. مش هاتجوز غيرك يا كوثر لأنك الوحيدة.
- اللي؟ من سكات.. إنت الوحيدة في إسكندرية اللي ادتني الحب مجاناً..
- حك ببلاش.. جالي بالراحة قوي ياكوثر..
- هو أنت بتلعب من ورايا.. قوللي صارحني..
- ألعب فين هو أنا لي بيت غير بيتك يا كوثر..
- طيب الدليل إيه..
- أنا تحت أمرك كل يوم..
- دا مايكفيش.. اتجوزني.. بكفاية يا شريف اعمل حاجة لو كنت بتحبني..
- أقول لأبوك ولأ أتجوزك من سكات..
- اعمل أي حاجة تريحك وتريحني..
- دا أنت مستبيعة يخرب بيت بلدك..

- اوعى تفكر إن بلدي إسكندرية..
- إسكندرية مصر كلكم زي بعض..
- طيب خلاص ما أنت شاطر أهه..
- يعني يا كوثر مستتياني أسكن عندكم وبعدين في الليّ
بيحصل كل ليلة أنا خايف..
- مش هوّ دا الحب.. عايز إيه أكثر من كده من بنت.. إيه
الليّ تدّيه بنت أكثر من الليّ إدّيته لك.. عايز إيه تاني..
- ياربتك إدّيتني الحب بشكل تاني..
- إرّاي..
- من فوق..
- من فوق من تحت هوّ الحب تعبير ورغبة تيجي دى قبل
دي.. البنت بتدّي نفسها تلقائيّ المهم كنت عايزاك من أول
ما شفتك.. هوّ الحب حب من غير فلسفة ولا تفكير ولا
عُقد..
- هوّ فيه حد سكن عندكم قبلي..
- إنت أول واحد نسكّنه في بيتنا..
- وأول مرّة تقلعي لحد..
- والمرسي أبو العباس عمري ما قلعت لحد..
- يعني كنت عبيطة قبل ما تشوفيني..
- أيوة بعد ما عرفتك اتأكدت أنّي كنت عبيطة قبل كده..

- بقى إنت ما تعلمتِش من البنات زمايلك في مدرسة الأميرة
فايزة..
- لو ما كنتش جيت بيتتا يمكن كنت اتعلمت منهم ومشيت
معاهم كمان..
- مشيت معاهم رُحتي فين..
- فيه بنات منهم بتروح شقق وفنادق..
- وعرفتني أنهم بيروحوا منين..
- منهم.. البنات كلها بيحكوا لبعض..
- يانهار إسود دول بنات صغيرين ومين قال لهم يروحوا
الشقق..
- واحدة جرّبت لقت الحكاية حلوة فيها فلوس ونعشّة..
ويتقول وتحكي..
- ودا بيسمُوه إيه..
- مغامرات وتسالي لغاية الواحدة ما تتجوز..
- وليه البنات بتعمل كده من بدري..
- من الحكايات ومافيش أمل في الجواز والحالة المادية بتاع
الرجالة متبيلة بنيلة، والبنات مبتلاقيش أمل دوغري في
الجواز ولمّا الأمل بيبقى صعب تحقيقه فالبنات من دولت
بتياس إن يكون لها حياة طبيعية واللي بتتجوز بتطلق
بسرعة من الفقر ومشاكله..
- يعني دي كلها مشاكل فقر..

- يمكن تكون مشاكل في عدم التربية وقلّة الأدب..
- يعني فيه بنات كتير قليلة الأدب..
- لأ لأ مادخلتش قلّة الأدب في كده.. الموضوع حياة صعبة بتجرّفنا كلنا للبحر.. فيه اللي بيغرق وفيه اللي بيعوم وفيه اللي بيتنه على البر..
- ولما البنّت بتغرق والناس كلّها عارفة أنّها بنت تعمل إيه لو هاتجوز..
- فيه طبيب معروف اسمه خليل عيادته في محرم بك بيعمل العملية دي..
- يانهار إسود..
- تعرف إن الطبيب بيعمل العملية دي إزاي..
- إزاي..
- بياخد فلوس طبعاً وقبل ما يعمل العملية بيعاشر البنّت من دولت قبل ما يعمل أي حاجة.. ودا شرطه والبنّت بتوافق علشان تخلص..
- دي فضايح يا كوثر ودا معروف بين الناس..
- الناس كلها عارفة آهي فضايح لابد منها..
- ولابد منها ليه..
- لابد منها غصب عن الجميع.. هوّ فيه بنت خاطرها توصل لكده لكن الدنيا حوالينا وظروفها وظروف الناس هيّ اللي بتودّي الناس طريقها ومافيش بنت خاطرها إلاّ

تتستر وتتجوّر، لكن إذا كانت الرجالة هيّ الليّ بتفتح
للبنات يا إما طريق الجواز أو طريق مفتوح كل واحدة
بتمشي فيه حسب نصيبها فيه..

- يعني السبب الرجّالة..
- السبب أي حد ولكن طبيعة البشر ضعيفة..
- عرفت منك غم كثير على القلب..
- أبدًا إنت أحسن من غيرك واحدة زيّ شوف أمورة إزّاي
بتقولك شُبيك لبيك..
- يعني أنا في أملة..
- ومش داري بيها..
- أنا داري بس خايف..
- هاتخاف من مين؟ أبويا أغلب من الغلب وأنا أرنبه بقولك
خدني في حضنك..
- طيب بكفاية كلام اتغطي..
- لأ مش هاتغطيّ يمكن يكون عندك دم الليلة وتتجوزني..
- نفسي تبقى رقيقة شوية..
- هاجيب الرّقة منين أنا عملية بعيش بفعل الحب مش بكلام
وخلص زيّك، على فكرة إنت علمتني الكلام..
- الليّ عايزاه أتعلّمه أعمله..
- خدني لحنانك.. اتجوّزني الليلة خلّصني يا شريف أنا
عايزاك..

- يانهار إسود على بجاحتك..
- وليه تسميها كده.. ليه ماتقولش حب.. مش هو دا الحب
برضه..
- عن نفسي مابقتش فاهم حاجة..
- حَبْنِي من غير كلام وأنت تفهم..
- أَتَجَوِّزُكَ يعني..
- أَيُوهُ.. أَيُوهُ يا شريف..
- يَعْوِضُ عَلَيَّ صاحب العوض..
- يَعْوِضُ علينا كلنا.. قوم اقفل الباب من جُوهُ..
- هاطاوعك يا كوثر وأقفل الباب عايزة إيه تاني..
- لَأَمْشِ عايزة حاجة يا شريف.. عايزاك تحبني بس..
- إِنْتِ ياكوثر أطلِ بنت في شارع المستشفى الإيطالي..
- أَنَا عايزة أبقى أسعد ست في إسكندرية..
- وَاللَّيْلَةَ هَاتَبْقَى أسعد ليلة في حياتي..
- طيب ياللا نشوف خدني لحضنك قوي.. وياريت بكفاية
كلام..
- مَشْ هَاتَكَلِّمُ تاني..

.. كان فوزي يخاف على سمعته في شارع.. وحمد الله كثيرًا أنَّها خرجت ولم تعد، كان يريد لها أن تختفي من وجوده، هو الرجل الذي يغضب ويحزن على شرفه، ولكنه لا يملك أن يدافع عنه. كان طول حياته رجلاً غلبًا، وكان دائمًا وهو صغير يضربه الأسطي الميكانيكي على قفاه وما كان يفعله هو أن ينحني له حتى يضربه زيادة، ولمَّا كان يحكي لأبيه أن صاحب المحل يضربه بقسوة على رأسه وقفاه كان أبوه يقول له:

- وماله يا فوزي علشان تتعلم.. أنا عايزك تبقى صاحب مهنة..

فيرد فوزي على أبيه:

- خلاص يابه استحمل علشان أتعلّم..
- اتعلّم أنك تستحمل علشان تاكل عيش..
- حتى لو انضريت..
- حتى..

.. تربي فوزي أن يكون خنوعًا وهو يعرف عندما كبر وعمل في شركة النصر أن يكون طوعًا لكل من يرأسوه في الشركة.. فهو يقول دائمًا نعم.. حاضر.. تحت أمرك يابيه..

.. وحتى بعد أن تزوّج من فائزة ولم يستطع أن يعمل لها شيئًا تحبه به، كانت كل صباح ومساء تقرّعه وتسخر منه:

- بقى لا فلوس ولا..

فيضحك مطأطأ رأسه ثم يخرج إلى حال سبيله قائلاً لها:

- ليه فيه إيه ناقصك مش بتاكلي وتشربي..

فتضرب كفاً بالأخرى رادحة بعد أن تغنج له بملء فيها:

- ما كل الناس بتاكل وتشرب يا متحسّر.. طلقني لو إنت راجل..

فيهرع هلعاً إلى الشارع هائماً على وجهه..

.. وكانت كوثر تأسف على حال أبيها فتقول لها بعد أن يغادر أبوها البيت:

- برضه عيب دا جوزك وراجل كبير..

- اسمعي يا بنت فوزي خدت إيه من أبوك جتك نيلة عليك وعلى أبوك من بدري..

فتنار كوثر وتمسك فايذة من شعرها وتقلبها على الأرض حتى تُسبع كل منهما الأخرى ضرباً مبرحاً بالشبشب، وغالباً ما كانت كوثر تشبعها ضرباً وتفوز عليها إلا أن فايذة كانت تتفوق عليها بخريشة أظافرها في وجهها فتسيل دماؤها كسفرة جرحت ذقن رجل يحلق وجهه..

.. وفي مرّة صوّتت فايذة فهرع أهل البيت المقابل إليهما واستطاعوا التهدة بينهما، وبعد كل معركة تروح كل منهما للأخرى فتقول لها كوثر:

- اطلعي يا قحبة من بيتنا..

- روعي شوف نفسك بتعملي إيه في أوضة شريف كل يوم..

- ياوس.. ياشر.. دا ساكن محترم.. دا مدرس ثانوي مش صايح..

باعملهُ واجب الأكل والغسيل بعلم أبويا..

- والله.. أبوه يابه وبعدين خُشيَّ علىَّ خُشيَّ وبعدين يا فاجرة ياباتعة، إنت زي اللي بيروحوا يلفُوا في شارع البحر..

- هوَ أنا زيكَ يابتاعة حوارِي غيط العنب..

- وأنت مين.. بنت فوزي الدلدول.. حارة من زقاق بالصدفة بتشوفي باب المستشفى الإيطالي.. لاتعايريني ولا أعايرك دا الغم طاييني وطايلك.. أنا هاطلع من البيت الوسخ ده علشان تاخدي راحتك مع المدرس..

- مدرّس مين يا صايعة دا راجل محترم بيذاكر لي محاسبة..

- طيب وماله أنا برضه عايزة أذاكر محاسبة..

- إنت مش بتاعة بيوت محترمة يابتاعة الشوارع..

- فعلاً أنا بتاعة شوارع وإنت بتاعة المدرسين.. بتعملي إيه طول الليل جوّه معاه.. فين أبوك الدلدول..

- أنا أنا عمري ما قعدت في أوضته عشر دقائق..

- أنا شايفة كل حاجة احمدي ربنا أني ساكتة.. طيب لما أنت شريفة قوي كده بتقلعي بلبوص ليه يا شريفة..

- أنا يا كذّابه.. ماقلتيش لأبويا ليه..

- أقول لأبوك هايعمّلك إيه دا خيخة لا ببهش ولا بينش..

- وأنا برضه ما بقولوش عليك بتخرجي كل يوم وبتروحي
فين..

- قولي إذا كان في وسطه أسنك يفكّه..

- أنا خايفة على أبويا علشان ما تجيلوش نقطة..

- طيب يا شريفة.. تقريباً كده إحنا زي بعض إنت بتسرحي
على جوّه وأنا باسرح على برّه ياريت تسكتي بقى وكل
واحدة مننا تتلم والمعايرة بيني وبينك مالهاش لازمة.. دا
الغم طايطني وطايلك يابتاعة المدرسين..

.. وتنتهي جولة الرّدح من يوم إلى آخر بخناقة ضرب بالشباشب
وشقلبظات على الأرض ثم صوات وصراخ، وغالبًا ما ينتهي حين
تسرع كوثر إلى غرفتها وتقل بابها عليها، وتدخل فائزة الحمام تستحم
ثم ترتدي ملابسها، وتخرج إلى شارعها كعادتها من يوم إلى آخر..

.. وفي يوم أخذ فوزي سكيناً من المطبخ، وذهب إلى محل السنّ
وسنّها ثم لفّها بقماشة ووضعها في جيب بنطاله وراح يتمشى مخترقاً
شارع المدافن حتى وصل إلى شارع أبي قير ومنه واصل سيره حتى
وصل إلى سكة ترام الرمل كي يذهب إلى اسبورتج ثم إلى الشوارع
والحواري، التي تصل إلى البحر والتي تاهت فيها فائزة ولم يعرف أين
قصدت.. أي عمارة في شاطئ الحي.. وكان قد حكى لزميله في
شركة النصر حكايات سمعها بأن هناك شققاً مفروشة خاصة بالعزّاب
يذهب إليها نساء الليل فهل هذا صحيح فأبلغه زميله بأن ذلك موجود
ومن زمان الموضوع دا ماشي ومش على البحر بس..

ولكن في كل مكان.. فسأله متابعًا ما في جعبة زميله في ذلك الخصوص:

- ومين يعرف أسرار كل شارع وكل بيت فيه الحاجات دي..
- سماسرة الشقق والمكوجية همّ دول أكثر الناس اللي عارفين المواضيع دي في كل حنة، وإنت عارف مين كمان بوابين العمارات خاصة الأبراج الكبيرة.
- يعني كل دول عارفين الشغل ده..
- نص دخل الناس دي وبربشتهم في عيشتهم من الحكاية دي..

.. وبعفوية قعد فوزي عند مكوجي حارة متفرعة من شارع بوباستس بين اسبورتنج وكليوباترة الحمامات جلس فوق كرسي أورمة في مدخل محله الصغير وبعد أن ألقى عليه التحية قال في تودّد للمكوجي:

- أنا عايز منك خدمة..
- تأمر أي خدمة.. خد سيجارة..
- لأ.. خد سيجارة مني..
- .. أشعل كل سيجارته وتفّرّس المكوجي الذي يبلغ من العمر خمسين عامًا وقال وهو يمرّر مكواه فوق بنطال:
- قول تحت أمرك.. عايز إيه..
- دي حكاية غريبة شوية..
- قول مايهمكش أنا شرك.. أنا أخوك..

- أبدأ أنا راجل كبير زي مانتت شايف..
- أيوه.. قول خش في الموضوع..
- شوف حكايتي باختصار.. اتجوزت بعد ما مراتي ماتت
واحدة صغيرة عني كثير المهم ياخويا حسيت أن مراتي
بتطلع تسرح من ورايا..
- وبعدين.. قول سكت ليه.. اسمك إيه..
- فوزي..
- .. خلاصة الكلام مشيت وراها في يوم لغاية ما جت هنا في الشوارع
دي.. ولمّا عرفت أن أنا وراها بتابعها.. تاهت منّي هنا في الحتة
دي..
- وبعدين عايز منّي إيه..
- عايز أعرف هيّ بتروح فين هنا..
- .. هزّ المكوجي رأسه وداس بقوة فوق بنطال زبونه وزاد من هز رأسه
ثم طفق:
- يعني عايز تعمل إيه بعد ما تعرف..
- أقتلها..
- يعني هابقي السبب.. دا إنت كده عايز تقطع عيشي دانا
ياحاج فوزي نص أكل عيشي من النسوان دي..
- وأنت مالك ومالهم مش أنت مكوجي..

- لو كان على المكوى بس هاعيش إزاي.. هارتي ولادي
منين.. جوت بنتي منين..

شوف يابه فوزي.. مكوى على شقق على طبابخات وشغالات الدنيا
بتمشي معايا يعني تقول كده شوية مكوجي وشوية سمسار شقق
وشوية تانية دلأل شغالات وطبابخات والذي منه..

- يانهار إسود دانا مش عارف حاجة في الدنيا..

- أبدا أنت بس راجل طيب.. وشغلانتك دي يابه ماليش
فيها..

- بعد ما عرفت سري بترميني..

- أبدا شوف حد غيري أنا ماليش دعوة بالكلام ده..

- وبعدين أروح فين دلوقتي.. طب دلني على مين أروح له..

- اتعلمت عمري ماكنش سبب في قطع عيش حد..

.. وضع فوزي يده في جيبه وناوله خمسين قرشاً فلهفها المكوجي
وابتسم ثم راح يقهقه:

- قوللي بقى عايز إيه بالضبط..

- مراتي بتروح فين..

- اسمها إيه..

- فايزة..

- أيوه زيزي.. وراح يوصفها لفوزي..

- أيوه هي دي..

- زيزي..
- بقولك فايضة..
- معروفة هنا بزيزي..
- قولِّي بقي الأقيها فين..
- هيَّ بين كليوباترة واسبورتنج..
- إنت كده هانتوهني..
- إديني الأمان احلف أنك ما تعرفني ولا شففتي..
- والنبي كأني ما شففتك ولا عرفتك..
- قول كمان والمرسي أبو العباس..
- والمرسي أبو العباس..
- كده استبيننا.. وأشار بيده نحو العمارة الضخمة التي تقع على البحر..
- شايف دي.. عمارة الأوقاف بتدخل فيها..
- عند مين بالضبط..
- فيها شقق كتير أدخل وسلّم على البوابين فيه كذا بواب وخذ طريقك بقي هوّ دا الليّ عندي..
- طيّب ربّنا يخليك..

.. وصافحه وانصرف، وعلى بعد أمتار قليلة دخل البناية الضخمة
فتقدّم إليه رجل أسمر طويل يرتدي كوفية لَفَّها فوق رأسه وبادر فوزي
قائلاً:

- عايز حاجة..
- أبدأ ممكن أقعد معاك شوية..
- أنت سمسار..
- أنا بتاع كاوتش..
- طيب تعال أقعد عايزني أجيب لك زبون..
- لا والله.. وتململ فوزي على المقعد الخشبي وجلس بجانبه
الحارس فَرَّاج صاحب المكان الذي أخذ يتفحصه برهة ثم
بادره:
- اسمك إيه وعايز إيه.. أي خدمة..
- تعرف زيزي..
- زيزي مين تبقى لك إيه..
- الله يرضى عليك دلّني أنا راجل غلبان..
- حكايتك إيه..
- حكاية سودة..
- احكي قول..

.. وحكى له فوزي حكايته مع فائزة باستفاضة، وكان فرّاج ينوي ضربه بمساعدة بوابين آخرين، اعتقاداً منهم أن يكون فوزي مرشداً أو مخبوصاً عليهم لكن فرّاج تعاطف مع فوزي وقال له مشفقاً:

- إنت من الأول ماكنتش تتجوز واحدة صُغيرة..
- غلطت.. عارفها ياعم فرّاج..
- شوف بيدخل هنا حريم كثير لكن أسماءهم ما عرفهاش.. عارفهم بالشكل..
- والحل إيه دلوقتي أنا حاسس أني في بحر مالوش آخر..
- شوف هوّ فيه أكثر من أربع شقق بيدخلها حريم..
- ما كل شقة بيدخلها الحريم..
- أقصد الحريم اللي بيشتغل..
- أيوه أنا عايز الحريم اللي شغال..
- صعبة أسألك كل شقة عن مراتك ويمكن يكون اسمها اسم تاني..
- اسمها زيزي..
- مين عرفك باسمها المشهورة بيه..
- عرفت ياعم فرّاج وخلص.. اسمها زيزي.. شغالة باسم زيزي..
- خلاص هيّ دي.. تصدّق هيّ الوحيدة الليّ أعرف اسمها..
- اشمعنى هيّ الليّ بتعرف اسمها..

- عشان لابسة جلابية سمرة.. جلابية بنات بحري الحلوة دي..
- بس هي من غيط العنب..
- تلاقيا لَمَّا اشتغلت هنا لبست لبس بنات بحري عشان يحليها أكثر.. ما هو لبس بنات البلد في الأنفوشي ورأس التين بصراحة حلو ومدندش ياعم فوزي..
- أنا لا عمك ولا حاجة إنت عمي إنت أكبر مِنِّي وزاد مقامك عندي لَمَّا ساعدتني..
- باين عليك ماشفتهاش من زمان..
- من شهر وهي غايبة..
- مالهاش أهل غيرك..
- الدنيا واسعة وكله بقى ماشي على كيفه وفي الزمن ده ماحدش قادر على حد..
- طيب وأنت زعلان ليه طلقها واستريح..
- .. هز فوزي رأسه وسكت وأمسك بالسكين وأحكم قبضته عليه وهي في جيبه وكأنه انتوى شيئاً فقال لفراج:
- مش لازم أقتلها الأول..
- ولية تحط نفسك في مشاكل..
- طيب الحل إيه دلوقتي ياعم فراج..

- بصراحة سببها في حالها طالما مشيت وخذت الطريق ده
خلاص يعني واحدة زي دي مشيت كده على حل شعرها
هاتدخلها بيتك تاني..

- لأ.. بس آخذ حقي..

- حَقَّكَ عند رينا.. لكن أنا شايف أنك راجل طيب بلاش قتل
ولا ضرب طَلَّقها وسيبها ياعم فوزي..

.. وكان الحارس فراج يتركه ليفتح الأسانسير أو يقفله أو يحمل
حقائب لساكن حتى المصعد أو يحمل طفلاً من ذراع أمه.. أو .. كان
يقوم بعمله في ساحة مدخل العمارة الضخمة خاصة أن بها ثلاثة
مصاعد وبهو العمارة لا يخلو من حركة الداخلين والخارجين.. ولأول
مرّة يدخّن فوزي بهذه الشراهة من علبته الكليوباترة التي اشتراها في
صباح اليوم لأول مرّة في حياته..

.. وهرول إليه فراج وأمسكه من ذراعه:

- قوم قوم بص هي اللي جايه دي..

قام فوزي ودقق في المرأة التي تصعد سلم المدخل الكبير.. ياخرايك
يافوزي شُفت بعينك ما حدش قالك..

- هي..

- أيوه هي..

هرول ثانية فراج نحو المصعد وأخذ يشاهد من بعيد.. تقدّم فوزي
نحوها ولمّا وقف أمامها فوجئت به فصرخت:

- فوزي إيه اللي جابك..

- ياشر.. ياشرمو....

.. وأمسك بصدريه جلبابها وشده في قوة فتمزق، وكشف عن صدرها فدفعته بيديها وصرخت مرّة أخرى فوق على البلاط لكنه سرعان ما وقف ماسكاً مديته مصوّبها نحو وجهها فأمسكت بقبضته قبل أن يغرّسها في وجهها صرخت وهي تنزع المدية من يده وتصوّبها في قسوة إلى صدره عدة مرات.. صوّبتها إلى صدره تمزّقه بلا رحمة فوق فوزي مضرّجاً في دمانه وسط صراخ وذهول سكان العمارة والمارين في شارع البحر..

.. ولما نقلوا فوزي إلى المستشفى كان قد فارق الحياة وأمسكوا بفايزة وقبضت عليها شرطة الشاطئ..

.. ولم يبالي البحر بما حدث عند سوره.. كل يعيش حياته الخاصة لكن مياه البحر تصعد إلى أعلى صاخبة ضاربة باطشة، أسراب الأمواج تنساب إلى الشاطئ لكن في ضجيج شديد كأنها تصرخ.. وكان مدخل العمارة يعج في ضجيج غير عادي وتشاركه في جلبته أمواج عاتية مترامية في قسوة من أعماق البحر.. كأن أشياء عنيفة تتعانق لكن ليس في حب أو غرام لكنها كانت مثل هوجة كاسحة حادة كحد سكين يقطع شرائح من لحم وحش هائج هجمت عليه يد صياد في الغابة..

.. في هذا اليوم كان كل شيء عنيف وصل إلى حدته مع كل من يعيشون عند هذا المنحنى، الذي يحضن بناية الأوقاف قرب جرف بحر هائج لا يدري بشيء ولا يبالي..

لأول مرّة في حياتها يصدّمها خبر مفاجئ حزين حتى أنّها وقعت على الأرض مغشياً عليها ولم تفق إلاّ في المستشفى بعد إجراءات الإسعافات الأولية، ولم يتركها شريف لحظة واحدة، ولازمها على مقعد عربة الإسعاف، التي حملت والدها من مستشفى مستشفاه حتى البيت، وقام بتغسيله مغسّل إمبروزو، وحملها نساء الحي والجيران إلى غرفتها؛ حيث كان مجلس النساء وقت الغسل حتى خرج الميت إلى قبره وقد حمّله أربعة رجال إلى المقابر القريبة من البيت والتي تقع في طريق شارع أبي قير، وسار في الجنازة خلفه عشرة رجال من ضمنهم شريف، وكان معظم المشيعين من نفس شارع وثلاثة يمشون في كل جنازة خلف الميت ينادون.. الله أكبر وإنا لله وإنا إليه راجعون.. وعندما يتم الدفن يسألون صاحب الميت صدقة..

.. انصرف المشيعون بعد الدفن ولم يعد مع شريف إلى البيت سوى ثلاثة رجال من الجيران قام أحدهم بتشغيل الراديو بالقرآن الكريم.. وبعد ساعة انصرف الجيران وانصرفت النساء.. وتركوا كوثر وشريف وحدهما في البيت ولم يطرق بابهم أحد حتى أذن المغرب، .. أخذ شريف يسقيها الماء وعمل كوب ليمون لتشربه، وكانت دموعها سخية وكلماتها.. يا حبيبي يابه يا حبيبي.. قتلتك القادرة.. قتلتك يابه.. إنت مُت يابه.. إنت مُت صحيح.. ثم تجهش بالبكاء.. ويربت شريف بحنان على ظهرها بكف يده ويقول.. معلش.. هذا مسلكتنا جميعاً.. البقاء لله ياكوثر.. اصبري إستغفري الله.. فتقول له.. مين ليّ بعدك يابه.. سببتي لمين يابه.. أنا غلبانة من بعدك يابه.. ياخراي من بعدك يابه وتبكي بحرقة شديدة حتى أن شريف كان يبكي معها ويحتضن وجهها في صدره..

.. وبعد اذان العشاء أخذها بيديه إلى الحمام وتركها تغسل وجهها وتنشطف بعد أن قفل عليها بابه، وبعد أن خرجت أخذها ثانية إلى سريرها وغطاها بشرشف ثم طبع قبلة حنان على جبينها وقال في لطف وحزن بالغين:

- اسمعي القرآن.. وأدار شريط القرآن في الراديو.. وتابع..
عيشي مع كلام الله.. هاطلع أجيب حاجة وجاي على طول..

- لأ لأ.. ماتسينيش.. أموت لو سبتتي..

- يا حبيبتي مش هسيبك..

- هاجيب حاجة من الفكهاني.. عشر دقائق..

- مش أكثر مش أكثر..

.. اشتري شريف مورًا وتفاحًا، وعاد إليها وقدم لها طبقًا منه وراح يقطع التفاح ويقشر الموز ويقدمه لها قائلاً في كل قضة:

- علشان خاطري.. علشان خاطري كُلي إنت مش عايزة

تاكلي الأكل العادي.. كُلي فاكهة علشان شوية قوة ..
علشان خاطري..

.. بعدها سقاها الماء وعمل لها شاياً بليمون ولم يتركها حتى شربت من يديه، وسكنت اللولولة في رأسها، وأغمضت عينيها واستراحت رأسها قليلاً فعدل المخذة تحت رأسها وقال في حنو:

- ممكن تنامي شوية.. نامي شوية..

- أنام بس ماتسينيش..

- .. تعال جنبي نام جنبي يا شريف ماتسينيش..
- حاضر هانام جنبك.. بس هدي.. اهدى.. الأمر لله..
 - طيب اتغطي معايه احضني.. ماليش غيرك..
 - وبعدين بقى.. مش هاسييك أبداً..
 - صحيح يا شريف..
 - والله عمري ما هاسييك..
 - يا حبيبي..

- .. وفي صباح اليوم التالي للوفاة تركها شريف وذهب إلى المدرسة ليكتب ورقة إجازة لظروف خاصة ولم يخبر أحداً بما جرى له وعند الباب وجد نادبة جرجس أمامه فقالت له:
- رايح فين..
 - اسمعي هاقولك إنت بس ومانقوليش لحد..
 - قول يا شريف فيه إيه..
 - الراجل صاحب السكن بتاعي مات إمبراح.. مضطر أقعد مع بنته النهارده على الأقل..
 - ياستار.. ياستار.. البقاء لله.. طيب ممكن تديني العنوان مش إنت قريب من هنا..
 - خمس دقائق على الشمال تلاقي البيت.. خدي العنوان..

وكتب لها العنوان وانصرف بعد أن صافحته مكررة تعازيها وقالت وهو ينصرف:

- هاجيك بعد المدرسة على طول..

.. ولمّا عاد إلى بيتها وجدها نائمة فغطّها بالشرشف ودخل غرفته يرتب ملابسه وأوراقه، وتمدّد فوق فراشه فذهب في النوم حتى قبل الظهر بقليل وكوثر تغطُّ في نعاس ثقيل يقبض على صدرها ويكتم أنفاسها تكلم نفسها وهي تتقلب على جنبها.. إزاي قتلت أبويا.. يامجرمة ياسافلة ياشر.. إزاي.. طيب هيّ فين أقتلها، ورأت نفسها تجري في حارة مظلمة تطارد القائلة فائزة، ولكنها لا تستطيع أن تلحق بها فوقعت على الأرض وانكفأ فوقها المارة فصرخت.. هيّ فين هيّ فين امسكوها.. قتلت أبويا امسكوها.. وانفلجت من نومها وهي تصرخ.. يا شردي يابه يا حبيبي.. تعال يابه مش هاتيحي تاني يالهوري ياخرابي يا جملي.. وأدركت أنّه كان كابوسًا خانقًا لمّا تفتّحت عيناها ووجدت نفسها في غرفتها.. هو كابوس مزعج لكنه أيضًا حقيقة مزعجة ومميّنة.. فين شريف.. راح فين..

.. وهولت إلى غرفته فوجدته يغطُّ في نومه، وكان عاريًا فغطّته وجلست بجواره تتأمله في حزن وهو لا يدري.. قامت بعد قليل إلى الحمام، وتوضأت لتصلّي وتدعو لأبيها.. صلّت في غرفته وأطالت في سجدها بعد صلاتها تدعو وتطلب من الله أن يرحمه ويوسّع له قبره ثم راحت تنتحب بقوة فاستيقظ شريف وقام يربت على ظهرها

- اهدى.. اهدى.. استغفري الله..

- ادّيني المخدة هانام جنبك هنا أنا خايفة من أوضتي..

- على الأرض طب تعالي جنبي هنا..
- لأ عايضة أنام على الأرض فوق السجادة مانا جنبيك
برضه..
- .. وضع المخدة تحت رأسها وتمدد فوق فراشه يمعن النظر إلى
وجهها الحزين وراحت تحكي له الكابوس، الذي خنقها وكيف قامت
منزعجة كالمجنونة وهي تبحث عن قاتلة أبيها ولم تلحق بها.. ولما
انتهت تمامًا من حكاية حلمها المزعج قال لها في تودد:
- شوف كان راجل طيب إزاي.. أهو مات واللّي موتته
كلية..
- أيوه مش مصدقة أنه مات..
- هو مافيش قرايب لكم تعرفيهم بموت أبوك..
- فيه قرايب لنا من بعيد في العامرية لكن همّ فين ماعرفشي
حاجة عنهم..
- وقرايبكم اللّي في البلد..
- من سنين طويلة انقطعت صلتنا بيهم..
- يعني مافيش حد..
- ربنا مافيش غيره..
- ونعم بالله..
- فاكر يا شريف من يومين لما قلت لك اتجورني..
- فاكر وما عملناش حاجة..

- ألاّ ليه..
- لقيت حاجة قوية قوي منعنتي..
- مش كنت تتجوزني وأبويا عايش..
- إنت ناسية إن الجواز لازم بيدأ بمأذون وشهود..
- وليه الجواز مايكونش الأول كده..
- لأ ماينفعش.. هوّ إنت من أوروبا.. دا إنت يا كوثر من قلب حي شعبي ولو كنت من العجمي أو المعمورة يمكن تكون مبلوعة شوية..
- يعني أنا عملت غلط.. أنا بحبك وبس..
- كويس إنها ماشية معاك بالفطرة.. لكن صدّقيني الفطرة دي ماتنفعش مع الرجالة.. الراجل في زماننا ده لو أدته البنيت بالشكل ده أو بالفطرة زي ما كنت هاتعملي هايسيبها ويمشي ويقول عليها بنت فاجرة وقليلة الأدب..
- الرجالة غدارة ومابتقدّشي إن الست لمّا بتخلص بتدّي من غير تفكير ومن غير حساب..
- التقاليد كده ودى قيم موروثه وماشية كده من زمان.. أنا ممكن أقدر لكن غيري مايقدرش..
- بس كان نفسي أبويا يفرح بيّه قبل ما يموت..
- كنا هانفرّحه ونجيب المأذون الأول..
- والله إنت راجل يا شريف بس.. وسكتت..
- بس إيه..

- أنا عبيطة اديتك نفسي من زمان ومن غير حساب..
- لازمان ولا حاجة بقى لنا ست شهور بس..
- متهيألي إني من زمان باعرفك..
- علشان خدنا على بعض بس..
- أنا عبيطة مش كده..
- أنا من الرجالة اللي يعرف يقدر إخلاص البنت وتفانيها وأنت عملتيلي كل ده علشان بتحبيني.. المفروض الناس تبدل أفكارها ويتغير تفكيرها شوية ويعرفوا أن البنت لو أعطت صدقت.. ليه نقابل إخلاصها بالهجر والغدر..
- هو دا اللي حصل مع بنات كثير في المدرسة.. فيه بنت إدت نفسها لمدرس فتزوجها وتانية إدت نفسها لمدرس سابها.. وفيه بنات كثير ضاعت من كده وراحوا يبيعوا أنفسهم كل ليلة في شقة..
- ودا كله كان بيحصل في المدرسة..
- في المدرسة والمصنع والجامعة في كل حته..
- إنت بتكلمي كأنك عارفة كل البنات اللي بتخلص..
- مش لازم أعرفهم.. أنا بنت زيهم وعارفة إيه اللي بيحصل..
- لما قلعت لي واستسلمت من أول مرّة كنت عارفة إني هاصدق معاك..

- هوّ فيه حد يعرف الغيب.. أنا عملت وأجرى على الله..
- وأنت عايزاني أعمل إيه دلوقت..
- تتجورني..
- فين مأذون الحنة..
- بينه أدام الجامع..
- طيّب مش تقومي تستحمّي وتلبسي..
- هاتدخل بيّه النهاردة..
- مش لازم النهاردة في أي يوم مش المفروض لما يفوت
الأربعين على أبوك..
- مش مشكلة.. نكتب الكتاب يا شريف وندخل بعدين..
- طب خلاص قومي استحمّي خَلّي الحزن يتغسل شوية..
- هاقوم يا شريف.

.. كانت نفسي متوترة ولو طاوعت شعورًا في داخلي لجعلت أجوب شوارع المدينة ربما أجد فيها حيرتي من كثرة الأحداث المتتابعة منذ أن وطأت قدمي هنا، كنت أشعر بأنني أبيع شيئًا من ذاتي، ولكن إذا كان هذا البيع يحقق اندماجي في هذا المجتمع فلا ضير، إنَّه قوة لي وأني غني وأستطيع أن أقدم شيئًا للآخرين.. ولم يكن أمين سرِّي في المدرسة غير نادية جرجس والتي كانت حريصة على تقديم العزاء لكوثر ولمّا كانت تتصرف شدّت على يدي وهمست:

- اوعى تسيبها.. خليك معاها دي مسئوليتك..

.. وقبّلت كوثر وضمتها إلى صدرها في حنان، وفي اليوم التالي لذهابي إلى عملي أخبرتني نادية في عجل وبعيدًا عن أعين وآذان أحد أنّها تريدني اليوم في محل النبي دانيال لشيء مهم.. ذهبت إلى النبي دانيال راكبًا الترام ومن ميدان محطة مصر (محطة الإسكندرية للقطار) سرتُ إلى هذا الشارع، وكأني أذهب إلى محل في شارع فؤاد بالقاهرة، لم أكن أعرف من هو النبي دانيال ومن أي سلالة من الأنبياء ولماذا تحب نادية اللقاء في هذا الحانوت..

.. في هذا اليوم انصرفنا من المدرسة في وقت يقترب من أذان العصر، ورغم أننا في منتصف شهر إبريل إلا أن المطر كان يتساقط بغزارة وريح من البحر تهب في الشوارع المحيطة به، وكان أصحاب أكشاك الكتب يسرعون في إدخال بضائعهم تحت المظلات الخشبية وتحت خيام من المشمع يقيمونها حين يشتد المطر لحماية بضائعهم، وكنت أؤمن أمانًا داخليًا عميقًا حين أجالس نادية وأحدثها وأفشى لها سرِّي طواعية، وكنت دائمًا أسأل نفسي لماذا نادية هذه فيها كل هذه

الجوانب الأمنية، التي تحيطني خاصة عندما نجلس في مقهى النبي دانيال ونبادل الحديث في أي أمر من الأمور.. كنت أحب نادبة لكن أي نوع من الحب؟ لا أعرف.. أحبها جملة واحدة لكن حب يختلف عن علاقتي بسعاد وكوثر.. وفي هذا اليوم جلست مقابلها وفضلت الصمت لأسمع منها.. ماذا ياترى تريدني خاصة بعد زيارتها لي في بيتي وتقديم عزائها المهذب لصاحبة البيت.. كنت أهرأ رأسي وهي ترمقني بنظرها ثم اقتربت مني بتحريك مقعدها نحوي وقالت في صوت خفيض عميق:

- ماذا ستفعل بهذه اليتيمة.
- لا أفهم ما الذي يعنيه سؤالك..
- كان أبوها حاجزاً بينك وبينها وداعياً للأمان..
- ولماذا لا يكون ذلك الحاجز بعد وفاته..
- لا لا.. لن ينفع كلامك حتى أن يصل إلى باب هذا المحل..

.. أنت رجل وهي فتاة.. وسكنت برهة ثم طفقت:

- لماذا لا تتزوجها..

.. لم أكن أستطيع ان أصارحها بما أنوي فعله أو بما كان يحدث بيني وبين كوثر في تلك الأيام الماضية في حياة أبيها.. كنت أريد أن تُفضي نادبة بما في داخلها في هذا الموضوع، وكنت حريصاً على ألا تخبر سعاد بأي شيء في علاقتي بكوثر.. كنت أعرف وأعي أن سعاد حادة المزاج، وقد تقوم بأي عمل أو تصرف من أعمال العنف معي أو مع الفتاة.. فقلت لنادية في حرص:

- ليس بهذه السهولة أتزوج.. مازالت طالبة في الدبلوم.
- هي امرأة يانعة ولديها بيت وكل دواعي الاستقرار موجودة فلماذا لا تكن واقعياً وفي نفس الوقت تعمل خيراً لفتاة لم يعد لها أب..
- أخاف على نفسي وأنا غريب في هذه البلد.. ما هي آثار زواجي منها..
- وماذا سيحدث لو علمت امرأة تريدني وماذا ستفعل بي..
- ابتسمت نادياً وقالت:
- تخاف على نفسك وأنت رجل..
- بغض النظر عن أنني رجل.. ليس لي في الإسكندرية خالة أو عم أو أخ..
- ألا يكفيك علاقتي الطيبة بك.. ثم أن لك قريباً هنا منذ عقود طويلة.. أليس الدكتور حسن أمين أشهر طبيب أمراض جلدية وتناسلية في الإسكندرية من أهلك..
- وهل هذا يكفي.. إنه منصرف إلى عمله وشهرته وليس بيني وبينه علاقة حميمة..
- دعك من أهلك وأقاربك.. اسمع يا شريف كل الإسكندرية أهلك.. لا تخرجني عن الموضوع والدواعي الواهية التي تخترعها..
- ولكنني أخاف يانادية..
- تخاف من سعاد..

- لا أعرف لماذا أخاف منها..
- يا شريف.. أريدك أن تهدأ وتسمعني.. تخاف منها؛ لأنك تذهب إليها..
- ذهبت إليها مرّة أو مرتين لكي أرى أمها المريضة ومرّة تناولت الغداء هناك..
- مالا تعرفه أن سعاد تحكي لي كل شيء..
- ما يهمني حكايتي أنا وليس حكايتها لك..
- يا شريف.. بدأت تحتد.. اهدى..
- أنا .. أنا..
- أنت تذهب إلى سعاد تقضي معها الوقت الذي لم تكن تستمتع به مع زوجها..
- أنا.. أنا..
- أنت ماذا يا شريف.. ألسنتُ أمينة على سرّك..
- أنا.. أنا..
- لثالث مرّة تقول أنا.. أنا وتتلعثم الكلمات في فمك.. أنا أكمل لك حتى نصل إلى شيء..
- أي شيء تريدين الوصول إليه..
- أنت عاشق سعاد وهي عشيقتك.. وأنت تخاف منها..
- لا أستطيع أن أكذب ولا أدعى ولا أحاور ولكنني.. وسكت..

- ولكنتك ماذا..
- ألم أقل لك إنني خائف..
- لا تخف من امرأة أعطتك جسدها.. المرأة التي تعطي جسدها لرجل وهي متزوجة تكون أضعف من الوهن وتحت إمرة هذا العاشق.. فكيف تخاف من عاشقة وهي التي خضعت لك وسلمت نفسك طواعية في بيت أمها..
- إذاً هي تحكي لك كل شيء..
- كل شيء.. ما لا تعرفينه أن هناك بعض النساء تحكي لصديقتها ما يحدث لها حتى ولو كان سراً كبيراً..
- أشعر بالخجل مما تعرفينه عني وسعاد..
- لا تشعر بأي خجل.. ما لا تعرفه أيضاً أن سعاد تسعى للطلاق من زوجها كي تكون حرة وترتبط بك.. هي التي أخبرتي بما تنتوي عمله..
- أليس لي الحق في أن أخاف.. إذاً هي تفعل هذا لترتبط بي..
- أخبرتي أنها تفعل ذلك من أجلك..
- إذاً أنا على حق.. كيف تدري بزواجي من أخرى وهي ترتب لزواجي منها أليس لي الحق في خوفي.. كأنني كنت أشعر بما تخطط له سعاد..
- لو كنت مكانك رجلاً لما كان عندي أي مشكلة..
- كيف..

- أليس من حقك كرجل أن تتزوج من أربعة..
- من حقي ولكن الإمكانيات..
- كل منهما لديها بيتها..
- بهذه الروح تدفعيني إلى الخير.. لماذا وأنت امرأة تحب النساء الأخريات..
- أليس ذلك شيئاً طبيعياً..
- أبداً لا توجد امرأة تحب أخرى بهذه الطبيعية وبهذا الأسلوب الذي تسوقينه إلى..
- ليتني كنت من عقيدتك كي تتزوجني..
- وتكونين امرأة ثالثة..
- وأكون زوجة رابعة.. إنك يا شريف لست أي رجل..
- كأنتي أنا الرجل الوحيد في المدينة..
- كل مائة رجل تجد النساء رجلاً..
- لا أفهم..
- في مدرسة إمبروزو. ألا ترى حال الرجال فيها من العزّاب.. معظمهم زعازيع وفروع متفرّعة وبعضهم يذهب في مغامرات مع الطالبات خاصة طالبات الدبلوم من القادرات الجريئات..
- أنا بعيد عن جو المغامرات في المدرسة..

- لقد حجزتك سعاد من أول يوم وأشبعتك عشقاً في بيت أمها
- فكيف تذهب مع طالبة لا تجد مكاناً تلقاها فيه..
- وهناك طالبات بهذه الجسارة..
- في مدرستنا توجد راقصات يعملن في الملاهي بالليل..
- يانهار إسود..
- آدي إنت قلتها بالفم المليون.. وأسرار لا يصدّقها العقل..
- زي إيه..
- ماينفعش المدرّسة تقول أسرار البنات.
- ليك حق..
- نرجع لموضوعنا ثاني..
- هو إنت مُصلحة اجتماعية يا نادية..
- الليّ اتعلّمته أعمل الخير دائماً..
- وراح شريف يضحك وهي ترقبه:
- مش عاجبك كلامي..
- بالعكس.. دا إنت دليل خير وكلامك في جوازي صح بس
- إزاي ننفذه على أرض الواقع..
- زي الناس..
- طيب سيبيني أرتبها ينادية..
- اتجوّز كوثر الأول من سكات..

- وبعدين ..

- إذا سعاد اطلّقت بعد كده اتجوزها برضه .. بس لما تتجوز
كوثر ماتروحش لسعاد تاني ..

- المفروض ..

.. عرفت هؤلاء الثلاثة من النساء من أعماقي، وكانت الحرية التي أنشدها منذ أن جئت إلى هذه المدينة أتصور أنها أقوى من حرية هذه المدينة، لكنني لم أكن أستطيع أن أقيم حرיתי التي أنشدها لخوفي الشديد من أهلها، وكنتُ أشاهد قوماً غرباء يقصدون مدينتي لقضاء حريرتهم فيها ثم يعودون إلى بلادهم وقد قضاوا شهوتهم التي هي صُلب حريرتهم حين يغادرون بلادهم من أجل هذه الرغبة الوحيدة التي لا يعرفون غيرها، وكأن المرأة عندهم شيء واحد يشترونه بمالهم ولا يعرفون حتى كيف يتعاملون معها وإذا تحدّثوا برطعوا مثل ما تبرطع الجمال بين قطيع الإبل، وكانت المرأة البائعة تتبع من جسدها بقدر المال الذي تتاله، وفي سوق البيع كان أهل المدينة فقراء في هذه البيعة والشراء خاصة في فصل الصيف، وكان أهل البلدة يجدون صعوبة كبيرة في قضاء حاجاتهم مع تلك النسوة لقلّة المال في جيوبهم، والعادة كانت أن أهل المدينة يحقدون على هؤلاء القوم ويدعون عليهم حتى يغادروا المدينة بلا رجعة، وكان فصل الشتاء جميلاً ورائقاً في هذه الأسواق لكن الكثرة تعود ثانية في الصيف، وكان أهل المدينة من الشريقات والفاضلات كم يحقرونهم ويبحثون عن الحب في مدينتهم حتى ولو كان مثل بلغة من طعام تسدُّ رمق جائع، حتى أن المرأة التي تتبع لذلك الغريب فهي تقترب منه وتضيّع بعض وقتها لتأخذ من المال ما يكفيها وقت الشتاء الشحيح نتيجة أن أهل البلد هم المسيطرون عليه بفقر جيوبهم..

.. وكنت أرى نفسي الباحث عن حب بأصالة ودون مال، وكان في مدينتي كثيرات مثل كوثر، التي تبحث عن أمنية واحدة وهي أن تتزوج، وسعاد رغم كراهيتها لزوجها وحاجتها إلى الحب ولو كان قليلاً

من زوجها فلم تتجه إلى سوق الجنس المنتشر في جنبات الأحياء المشهورة بذلك.. إنَّها تبحث عن عاشق واحد يملأ حياتها التي غاصت في كره شديد صنعه لها هذا العسكري الجلف.. ولم تكن نادية جرجس إلا من أصول المدينة القديمة والتي بقيت تنادي بالعفة والصلاح والحب النقي وهي التي تصلح في ميدان عملها بين زملائها وزميلاتها ثم تعود إلى بيتها لتبدأ من جديد في يوم آخر عن إقامة شيء من الحب الراقى في مجتمعها..

.. إنه مهما كان سوق المدينة الجنسي معروفاً وأين يسكن ويقع فإن المدينة المحافظة بتراثها وتقاليدها أقوى بكثير مما يحدث من هوينات لتجار هذا النوع من التجارة الرخيصة، إن مدينتي هي مدينة كل شيء لكن أهلها أكثرهم صالحون.. حتى أن كوثر صالحة رغم أنها أعطت لشريف قبل أن يتزوجها.. وسعاد المتزوجة صالحة رغم أنها عشقت شريف.. لأنَّها تعشقه بترتيب وتنظيم وبعد قسوة معاناة.. وكان على جسدها أن يفيض بزبد قليل حتى تجد ملاذها في رجل مثل الذي وجدته في شريف.. غير أن نادية جرجس كانت قمة المدينة الصالحة والتي أثبتت في علاقتها مع شريف أنَّها من أنواع فاضلة في مدينة ومنذ القدم مازالت نادية تحتفظ بالأصيل، الذي مازال باقياً في مدينة هائلة وهائجة بكل أنواع الحياة التي تغمرها بقوة كموج البحر الذي يضرب سور الشاطئ في طوله وعرضه بلا هوادة.. ورغم كل ما حول شريف من أهازيج متنوعة للعيش فإن حرية يبغيها مثل ثورة مازالت في مكنون نفسه، ولا بد من إزاحة ما يتسلل في جسده في غرفة مظلمة تقع في شارع المستشفى الإيطالي بعيدة عن هذا العالم الذي يحضن المدينة ولا أحد يستطيع وقفه، وكان ينظر حواليه.. هل أضاء جسده الظلام الذي يسكن تلك البلدة..

إن أي مدينة في العالم يقبع فيها ظلام وإن اختلفت أنواعه، وفي كل أحوال تلك الدنيا التي فيها لا تستطيع أن تفرّق فيها بين الظلمة والضياء، فإن جسد كوثر حين اتحدّ مع جسد شريف بكامل قواه في ليلة الزواج كانت الدنيا كيانًا واحدًا فيه نورّت الغرفة بنور لم يره من قبل، وكانت البيوت وما يسكن فيها عاجزة عن الوصول إلى ذلك النوع من النور ..

.. وكان أهل المدينة الذين يقبضون عليها من تجار وعسكريين وشرطة وإداريين لا يقبلون مثل هذا الطرح، الذي طرحه شريف؛ لأنهم يعيشون في استقرار مادي منذ سنين طويلة، ويتملكون أحوال ومنافع تلك البلدة فكيف تولد أفكار جديدة إن كانت في الحرية أو في غيرها تترجمهم عن مكاسبهم ..

.. كانت أغلال الواقع الحديدية هي التي تمسك بعقول وأرواح شعب هذه البلاد خلف أسوار شيّدوها في سجون مظلمة يقف على أبوابها سجان برتبة لواءات ليحكموا القبضة كي يسرق هؤلاء ما يشتهون من مال وبيوت وزاد ..

.. إن حرية في نفسه وفي نفوس كل الأحرار تكمن في نفس كل هؤلاء لا تستطيع أن تخرج معلنة في أي شارع أو ميدان وأقصى ما تصل إليه عتبة دار أو قارعة طريق أجرد قد نحتته رجال على مر السنين من حب منحوت لا يسمن ولا يغني من جوع ..

.. وكان تلك هي السياسة وهي الثوب الأسود الذي يرتديه الحاكم منذ قرون والذي صبغ الحياة في كل مدينة بالفقر والجهل، وكان السواد دائمًا يهزم النقاء ولم يكن في المدينة كثير من الرجال مثل شريف .. كانت أعمال الحياة لا بد أن تكون غير أعمال شريف .. شريف رجل

متفوق على نفسه منكفى على ذاته لا يعرف أي نوع من أنواع العمل المنتج، ولكنه يجمع في داخله مجموعة من الشعارات التي لا يمكن أن يكون لها واقع، إن الواقع هو مجموعة من الأعمال التي يشوبها كثير من أنواع الظلم، ولولا الظلم والقسوة في هذا الواقع لما كان واقعاً، إن الذي يعلنه ويعيش فيه شريف لا يمكن أن يكون واقعاً، ولكن يمكن أن يكون شيئاً واهياً، إن الشيء الوحيد الذي يطل عليه شريف في واقع حياة تلك المدينة هو إطلالة على واقع ثلاث نساء فقط وليس لديه صلة بواقع هذه المدينة..

.. فهل هناك حقيقة في واقع أم الحقيقة يبحث عنها قليل من الناس وهم يعيشون هذا الواقع ولا يصلون إلى شيء، ولذلك فإنك تجدهم تائهين على حافة هذا الواقع.. إن كل يوم تجد مجنوناً جديداً أو مخبولاً أو تائهاً أقلت به دائرة البحث عن الحقيقة خلف أكوام زبالة أو رمته قدماء فوق أرضية ميدان يتسول لقمة عيش.. ولذلك فإن المرأة الباحثة عن الحب لا تجد ملاذها في رجل يعيش الواقع لكنها تجده في رجل يحلم..

.. إن ثلاث نساء هن المدينة ولن أحيدهن عنهن بامرأة أخرى، وإن كل امرأة فيهن نساء المدينة جميعاً فعلى أن أبحث في كل مدينة تقدّمها كل امرأة منهن، فمن يندهش إذا قلت إنني عابد لهن.. ولن أحيدهن بامرأة أخرى، وأنني مجنون لأنني أعيش معهن واحدة بعد الأخرى ولا يدري بي أحد..

.. كنت أسمع خرير الماء عند ساقية حقلنا وأنا صغير في ليل مظلم فأنام نوماً عميقاً حتى ينتهي أبي من سقي حقله.. وأسمع هدير الطيور في حديقة العنب، التي زرعها أبي عند حافة البحر الأعمى

فأجلس أمام حرف البحر وألقى بحبات الحصى فوق الموج.. وعندما
تصفرَّ الريح في فصل الشتاء فأشعر بأنني غبي من الأغبياء فأغادر
إلى شوارع مسدودة وأختفي خلف الجدران..

.. من وقت لآخر يذهب إلى المسجد خلف بيت كوثر ليصليَّ الفجر
مع الجماعة، وفي هذا اليوم الذي يهبُّ فيه للخروج كي يصليَّ سمع
ذلك المجدوب الذي ينادى.. قوموا صلُّوا.. اتقوا الله واسجدوا..
.. ياناس قوموا صلُّوا.. صحىَّ النوم فوقوا.. قوموا..

.. قفل الباب وخرج إلى الشارع فوجد نفسه يمشي خلف المجدوب
والذي يذهب إلى نفس المسجد.. رأى شريف المجدوب وهو يدخل
إلى حمَّام الجامع وبعد دقائق من صلاته مع المصلين رأى المجدوب
يخرج من الحمام إلى الشارع ولم يصل.. ولمَّا سأل رجلاً بجواره..

- شاييف الراجل ده..

- أيوه عارفه..

- بينادى للصلاة ومايصليش.. وخرج من الحمام على بزة..

- هو أنت مش عارف راجل على أدّه..

- باحسبه بيدخل يصليَّ..

- ماتاخذش في بالك.. دا راجل في الأول والآخر مش
طبيعي..

- بيمدح ويقول قوموا صلُّوا والحقيقة بيدخل الجامع يستحمّه
..بس..

- دنيا.. دنيا.. زي ناس كثير بتوع كلام بس..
- مش هوّ ده اللّي ساكن في المدافن..
- أيوة.. وعامل عميله هناك..
- إِرّاي..
- بتروح ليه نسوان هناك..
- دا راجل معفنّ.. هوّ فيه ستات تستتصف ده..
- فيه..
- ياما نعيش ونشوف..
- .. بعدها انصرف كل منهما إلى حاله، وعند باب المسجد اقترب منه شيخ صاحب لحية طويلة وصافح شريف قائلاً:
- إِرّيك يا أستاذ إنت عارفني..
- لأ مش واخد بالي..
- أنا ساكن قصادك في البيت اللّي في وش بيت المرحوم فوزي..
- أهلاً بيك أول مرّة أشوفك..
- طيب تعال نمشي شوية علشان نفسي أتكلّم معاك..
- يشرّفني أتكلّم معاك..
- وسارا معاً حتى ناصية الشارع الذي يسكنان فيه ثم وقفا والشيخ يمسك بذراعه..

وبادره الشيخ قائلاً في أدب:

- إنت راجل أمير وماحدش سمع لك حس من يوم ما سكنت..
- هو دا الطبيعي ياشيخ..
- خذأمك عبد الغني..
- تحت أمرك يا شيخ عبد الغني..
- عارف الجيرة حق علينا..
- طبعاً..
- مش عايز حد من الشارع راجل أو ست ما يسواش يتكلم عليك كلمة..
- إزاي هو أنا عملت حاجة يا شيخ..
- أبداً إنت عارف عمك فوزي مات وبنته لوحدها ومافيش غيرك بيتقفل عليكم باب واحد.. والناس ممكن تتكلم..
- كل ده صحيح..
- ما تتجوزها يابني.. دي يتيمة وفي نفس الوقت تقطع أي كلام يتقال..
- شوف والله كلامك كله صحيح..
- يعني هاتعمل إيه..
- ياشيخ عبد الغني ربنا يكرمك ماحدش يقدر يقول على الصح غلط..

- طيّب كويس..
- هات المأذون بتاع الحتة الليلة وتعال بعد العشاء..
- صحيح والله.. الله يرضى عليك..
- والله صحيح ولا يصح غيره..
- طيّب نصلي العشا سوا النهاردة ونجيب المأذون سوا..
- جزاك الله خيرًا خلاص اتفقنا..
- توكلنا على الله..
- وصافحه الشيخ بقوة وبنفس راضية وانصرف كلُّ إلى بيته..

.. مرّت أيام أخرى تصوّرت فيها أنه خلف البحر محيط.. ومحيط بحري هو المحيط الأطلنطي والذي يتصل به عن طريق جبل طارق، وأن هذه المدينة أكبر من البحر، وسوف يأتي يوم تكون مثل محيط وسوف يبتلع المحيط كل شيء؛ لأن في مدينتي واقعا ظالما يقف على بابه عسكر منذ أكثر من ربع قرن، وأن الشرفاء مثل المدرسين الذين يتشاجرون على حصة أو درس لهم من أقل أهل البلدة حظاً وحياة، وأني لجأت إلى النساء لأحتمي من غرق المدينة قبل أن يكتسحها المحيط، وإن العسكر قد تسلطوا علينا بضيق الحياة والحاجة حتى ننشغل بالعيش الدليل الذي فرضوه بالعصا والبندقية..

.. ولم أكن أملك قيام ثورة على هؤلاء الذين يحكمون مدينة البحر، فلجأت إلى إقامة حياة يعمرها الحب واللذة والمتعة مع النساء، وألا يوجد عسكري يمسك البندقية أو شرطي يمسك العصا يستطيع تقديم الحب حتى لامراته فهم ضائعون مع الواقع وكل ما يستطيع عمله هو حراسة المدينة وتخويف أهلها حتى يتمكنوا من نهب المال والأرض والبيوت.. إنهم قادرون على إقامة واقع ظلم الآخرين فسلب الله عليهم خروج النساء من بيوتهن يبحثن عن الهوى.. وبعضهن اختصر الطريق إلى الهوى المشاع حتى يستطعن الانتقام من أزواجهن من أقصر طريق..

.. وعرفت أن المدينة غنية إذا تزوجت الفتيات والمطلقات والأرامل، إن الرجل يستطيع فتح مدينة غنية بالآفاق إذا تزوج من امرأة وعلى المرأة فقط أن تسهّل أمر زوجها مثل ما فعلت كوثر، ولو كان في مقدوري أن أتزوج أربع نساء لفعلت بعد أن تزوجت من كوثر، وكنت

في غنى عن سعاد وأنستني أيام العشق في حي المنشية القديم،
وساعدني على ذلك أن سعاد انشغلت كثيراً بوفاة أمها وطلاقها من
زوجها..

.. ومرّت أيام أخرى فيها عشت عمق الحياة مع كوثر وعندما أشعر
بأي ضيق وبرتابة نظام الحياة معها كنت أدعو نادية لنجلس بعض
الوقت في مقهى النبي دانيال..

في الفترة التي كان فيها لقاء سعاد وشريف قليلاً، كانت الدنيا مع
سعاد تضيق مع زوجها وكل الحياة حولها تخنقها بعد موت أمها،
وكان ابنها ربيع يعيش مع خالته بصفة دائمة، ولما كان أبوه ينزل
إجازة يذهب إليه في بيت خالته ليقضي له حاجياته، وعاد زوج سعاد
لينال كثيراً من حريته في دعوة أصحابه بالمقهى ليشاركوه لعب
الطاولة في بيته حتى يُرفع أذان الفجر.. ورغم أنه من قرية فإن لم
يكن قريباً إلى تأدية الصلاة في موعدها ومع أنه يسهر حتى يؤذن
المؤذن لصلاة الفجر فكان يفضل النوم حتى بعد عصر كل يوم أثناء
إجازته، وفي يوم قررت سعاد دعوة زوجها إلى بيت أختها ليتحدثا في
أمر انفصالهما نهائياً..

.. أحسنت شقيقة سعاد استقبال زوج أختها في بيتها، وأجلسته في
غرفة الصالون واقتحم ربيع الباب مهرولاً نحو أبيه يحتضنه، وضمه
إلى صدره وقبل رأسه وراح يتلمّظ بشفتيه مثل جمل:

- يا حبيبي يا ربيع يا حبيبي.. وحمله في حجره وراح يقبله..

ودخلت خالة ربيع تحمل صينية الشاي وجلست مقابل زوج أختها
قائلة في صوت خفيض:

- والله يا ابو ربيع الحياة بينكم بقت مالهاش لازمة بالوضع ده..
- هو أنا اللي عملت كده ولأ سعاد..
- إنت وهي مع بعض..
- وأنا أعمل إيه أكثر من كده باشقى وباتعب في الجبل
علشان أجيب الفلوس..
- كل راجل بيعمل كده..
- طيب أنا مقصّر في إيه..
- معلش يا ابو ربيع.. اسمع لي..
- اتفضلني..
- لا كلمة حلوة ولا معاملة زيد على كده مجايك بتوع القهوة
البيت يلعبوا معاك طاولة..
- دي لي فيها حق.. قلت لها العبي معايا مارضيتهش..
- ده عمره ما يبقى مبرّر.. الطاولة لازمتها إيه في البيت..
البيوت اتعملت علشان الراحة.. لعب الحاجات دي على
القهوة.. لكن تخلي بيتك قهوة وتكشف مراتك على
أصحابك وتقول لها تعال سلمّي.. تعال هات الشاي.. دا
كلام برضه يا ابو ربيع..

- دانا زي ما يكون غلظت في البخاري..
- يابو ربيع كل حاجة لها أصولها..
- .. فلم ينطق بكلمة وخرجت شقيقة سعاد إلى أختها لتأتي بها قائلة لها وهي تغيّر الملابس التي كانت بها في المدرسة:
- تعالِ يا سعاد قولي كلمتينك.. أنا قلت كلامي مافيش فايذة راسه دي حجر..
- شفتي علشان تعرفي أنا فُرغ صبري إزاي وما عنديش أي غلط..
- طيب روعي اقعدي معاه براحتك مش طايقة أقعد معاه تاني..
- .. ودخلت عليه فاندفع ربيع إلى أمه.. يأمه.. يأمه.. وطفقت غصبًا عنها قائلة وهي تجلس على مقعد في مواجهته:
- سامو عليكم..
- عليكم السلام..
- شوف حتى الولد مابيقولش ياماما.. مش إنت الليّ علّمته يقول يأمه..
- زي ما كنت بقول لأمي..
- مش الإنسان المفروض يوم بعد يوم يرتقي بنفسه وأولاده ويختار من الكلام أرقاه ومن الذوق أحسنه..
- دا كلام فارغ الليّ بتقوليه ده..

- وعلشان كده إنت في وادي وأنا في وادي..
- وهاتني طول عمري كده..
- خليك زي ما إنت وكل واحد يروح لحاله.. ياراجل إنت مابتبطلش نبش في مناخيرك قدامي.. عمرك ما غسلت أسنانك.. عمرك ماغسلت رجلك وأنت بتنام على السرير.. دا الواحد في البلد الفلاح عمره ما يعمل كده.. حاولت معاك تنتجّر شوية مافيش فايده.. دا غير وغير.. شوف خلاصة الكلام طلقني..
- قوى قوي.. وربيع هايقعد مع مين..
- مع خالته.. خالته مالهاش ولاد وعايزة تربيه..
- وإنت مش أمه..
- مالکش دعوة بحاجة الواد هايترني في بيت خالته وأنا مش هاسيه..
- مالكيش حق عندي..
- مش عايزة أي حاجة.. طلقني بس..
- كده اتفقنا مش هاتاخدي شاطية من العفش..
- أشبع بيه مش عايزة أي حاجة..
- والله إنت كده ريحتيني..
- بس ابنك ملزوم بيه..
- طبعاً ولماً يكبر هاخده معايا..

- طبعًا حقّك..

- خلاص بكرة هات المأذون..

- لأ بكرة ليه هاجيبه دلوقتي..

- أنا مستنّي هاتيه..

وكانت شقيقتها تسمع ما دار بينهما فدخلت عليهما مبادرة:

- أنا هاروح أجبّيه..

.. وكان الوقت يقترب من الليل.. وتم الطلاق بين المغرب والعشاء
وانصرف أبو ربيع بلا رجعة، وراحت سعاد تدعو الله شاكرة وأختها
هدى تباركها..

وكانت سعاد من فرحتها تجري في أرجاء الشقة تدخل غرفة ثم
تغادرها إلى غرفة أخرى، تخرج إلى الفراندة تريد أن تزغرد فرحة؟
بعد أكثر من ست سنوات من القسوة والكرهية، وراحت أختها هدى
تهدئها:

- اهدى اهدى ياسعاد الحمد لله أنا فرحانة ليك قوي..

- عايزة أطيّر من الفرح ياهدى..

- طيري واجري واضحكي.. قومي ارقصي كمان..

- هاقوم فين الإيشارب..

وجري ربيع ليأتي بطرحة ملقاة على سرير خالته وناولها لأمه:

- خدي يامّه.. خدي علشان ترقصي..

- مرسى يا حبيبي .. ممكن تقول ياماما .. من بعد النهارده ما تقولشي ياممه خالص .. قول يا ماما .. قول ياربيع ..
- ياماما .. ياماما ..
- يا حبيبي أيوة كده .. ياريت أقدر أغير اسمك ..
- مش دا اسم جدي ..
- جدك مات من زمان ..
- عايزة تسميني إيه يا ماما ..
- ياروح ماما .. إنت عايز اسمك إيه ..
- علشان بابا مايزعلشي ..
- مالوش دعوة بينا من النهارده ..
- الليّ تعمليه يا ماما ..
- من النهاردة اسمك ريكي ..
- يعني إيه ..
- أي معنى المهم مش ربيع .. مش عايزة حاجة من الريحة ..
- الليّ تعمليه مش إنت ماما ..
- أيوة يا حبيبي .. وأخذته في أحضانها ..
- .. وربنت خالته على ظهره قاتلة في حنو:
- تعال يا حبيبي .. تعال ياريكي أحميك ..

.. كان زواجي بكوثر أكثر الأمور المهمة التي أثّرت في حياتي، فأنا من قبل لم تتكشف عليّ امرأة، ولا أعرف حتى هذا اليوم لماذا دخلت كوثر حياتي بهذه البساطة، فهي التي خلعت ملابسها في فراشي بعد أيام قليلة من سكني في بيتهم، وفسّرت دخولها حياتي وهي تقدّم لي جسدها بهذه الطبيعة، وكأنني أمارس معها منذ شهور مضت، وتذكرت امرأة من بلدي وأنا صغير تقول لمجموعة من النساء يتسامرن معاً في إحدى الليالي.. إن المرأة ممّا خلقت لهذا الشيء.. وأن أوّل وظائفها أن تريح الرجل، وأن ترفد له في سهولة ويسر مقدّمة له أعلى ما عندها طالما أنها تحبه أو تريده، وأن الرجل الذي لا يوفي للمرأة المخلصة بهذا الشكل فهو رجل يستحق الشنق، وكان سهلاً في تلك الأيام أن ينال أي رجل يهوى النساء من هذه العائلة التي تنتمي إليها تلك المرأة، وهذه السلالة من هذه العائلة خلقن ليكن نساءً يؤدّين دورهن الأول في الحياة وهنّ تحت الرجل لينجبن أولاداً وبنات يقدمن نفس النوع من الحب للحياة، وأنه لا دور للمرأة بعد ذلك سوى الحمل والولادة والرضاعة حتى يكبر أطفالها، وأنه في البيت لا يوجد أقوى وأشدّ لدور المرأة من أن تخبز وتحلب البقر وتصنع الزبد والجبن وتطحن القمح، وتقول المرأة هذه إن من عائلتي نساء كنّ عاشقات قبل زواجهن ولمّا تزوجن كنّ عاشقات لأزواجهن فقط ولمّا مات هؤلاء الأزواج سكنت هذه النساء الأرامل البيت وكان كثير منهن يرقدن للأنفار الذين يعملون عندهن في الحقل، وفي البيت يحدث كل شيء، ويقولون إن كثيراً من النساء المحجوبات من فصيلة هذه العائلة كنّ يرقدن للأنفار وكثير من أبناء السادة أصحاب الأرض كانت ترقد أمهاتهم للأنفار في الزريبة أو فوق الفرن أو في بحراية قاعة الشتاء، وتقضي هذه النسوة حاجاتهن مع الرجل دون أن تخرج

من البيت خطوة واحدة، ويظل النفر تحت أمر سيده حتى يموت أو حتى تموت، وفي زمن أوائل الستينيات أفشى نفر أمام زملائه من الشغيلة أنه على علاقة بزوجة سيده فتم قتله وألقى بجثته في البحر..

.. تذكرت هذه الحكاية وما كان يحدث في أركان قرיתי في هذا الزمان أو غيره، وأن المرأة من هذه العائلة كيف كانت وديعة، وترقد للرجل في فطرية وطبيعية حتى تقضي حاجتها فهي تموت في الرقاد تحت الرجل حتى وإن كان عاملاً في حقلها، تذكرت كل هذا حين تزوجت من كوثر فهي أول فتاة في حياتي ترقد لي بهذه الدعة، وتخلع ملابسها أمامي بلا خجل وكأنها تخلعها في الحمام كي تستحم، كوثر من هذه العائلة أو هي من عائلة تمتد في بلاد أخرى غير بلدي، فهؤلاء النسوة طرحن مواهبهن في كل القرى وامتدت جذورهن إلى الشمال حتى وصلت إلى مدينة الإسكندرية والدليل على هذه الدعة وفطرة النساء أن هذه هي كوثر التي تقدّم نفس النوع من الحب الذي قدّمته قبل ذلك نساء تلك القرى وخاصة نساء تلك العائلة.. وما زالت تلك العائلة في بلدي تقدّم هذا النوع من فطرة النساء وإن تطوّر وأصبح في قوالب أخرى، ولن أنسى حكاية أحد شباب بلدي حين أخبرني مرارًا كيف أنه يضاجع زوجة خاله في بيتها من يوم لآخر وهي امرأة من تلك العائلة..

.. هل نحى هذا النوع من النساء طالما أن ذلك يريح الرجل إن كان زوجاً أو عاشقاً من سلالة السادة أو من سلالة الأنفار.. إننا لم نحى أحداً والتاريخ يمر رغم أنف الجميع، وأنا واحد من هؤلاء الرجال الذي قابله ذلك الحدث مع كوثر بالذي كان يحدث في بلده وهو صغير، ويرتبط التاريخ النسوي الجديد بالقديم مهما تتابعت الأيام والعقود..

.. سمعت التاريخ في بلدي حين كانت تموج العلاقات بقوة بين النساء والرجال، ولم أكن أتذكر ما رأيته بعيني ولا مسته في حياتي حين كنت غلاماً إلا بكوثر هذه المرأة التي تزوجتها والتي هي من نفس العائلة التي امتدت بجذورها إلى الشمال حتى وصلت هذه المدينة في بيت قديم مقابل شارع المستشفى الإيطالي.. يا الله يازارع الدنيا كلها بنبت واحد تتأثر في كل أرض هذا العالم مهما كانت سعته، الله هو الذي خلق هذا العالم الواسع، وهو الذي جعله كأنه نقطة واحدة تجمع هذا المحيط من ذلك العالم مهما كانت آفاقه..

.. كوثر بنت الإسكندرية من شارع ضيق في هذا الحي الشعبي، الذي يقع قرب مدرسة إمبروزو وهو ذلك العالم الإيطالي، هي فتاة تلميذة في الصف الثالث الثانوي التجاري في مدرسة الأميرة فايضة، اكتسبت كوثر طراوة وميوعة ودلال تلميذات تلك المدرسة المشهورة في الإسكندرية والتي يجنح فيها كثير من طالباتها لقضاء أوقات للونسة في شقق عزاب شارع البحر الكبير..

.. من يوم ما لامس مدرس المحاسبة بيده مؤخرة كوثر وهي تحلم باليوم الذي تعشق فيه رجلاً، وكانت تقول لنفسها إذا كانت يد المدرس جعلتني أشعر بلذة أودتني إلى حلم لا ينتهي بأن أعشق رجلاً يفعل كما فعل المدرس، وسوف أوهب له جسدي كله.. وتتادي من ليلة لأخرى وهي تحكي:

- من اليوم ده وأنا أحلم يا شريف..
- وما فيش حد حط إيده تاني..
- أبداً..

- والمدرس عمل معاك كده ليه.. مش إنت إِدْتَيْله الفرصة..
- كان يريدني مثل هند..
- وهند من نفس المدرسة..
- لأ من مدرسة لوران..
- وبعدين أنا قلت للشيخ هانكتب النهارده..
- وماله هوّ دا أُملي..
- جهّرتي الشربات..
- هاشتري إزازه قبل المغرب.. بس على فكرة عايزة أقول لك حاجة..
- قولّي..
- هانكتب عُرفي..
- مافيش بنت بتفضّل العرفي..
- العرفي علشان المعاش.. معاش عشرين جنيهه علشان نعرف نعيش..
- المهم يكون صحيح ويرضى عنه ربّنا..
- الليّ أعرفه.. شهود وعلن من الأهل والجيران..
- ماليش حد من أهلي هايعرف ولا هايبيجي..
- وأنا برضه ماليش أهل..
- خلاص نشتري أهل..

- بكفاية الشيخ عبد الغني أهو من الجيران ويجيب اتنين معاه من نفس الشارع..
- خلاص وإحنا ناقصين عُقد..
- وبعدين لما ببقى فيه أولاد العُرْفِي مش هايكَمَل معانا كده..
- دي قوانين ناقصة وليه ينقطع المعاش خاصة الناس اللي يدوبك عايشة.. إحنا عملنا كده علشان ناس على أدنا..
- على العموم نكتب عُرفي الأول وبعدين يحلها ألف حلال..
- يمكن القوانين تتغير ونكتب رسمي والمعاش ينثته على طول..
- هانعمل بالمثل إحييني النهارده.. وفي كل الأحوال رضا ربنا..

.. وكان منتهى الواقعية أن تحتفظ كوثر بمعاش أبيها وهو منطلق الفقراء فأنا مدرس فقير وهي بنت فوزي عامل الكاوتش.. واقع أنا سعيد لَمَّا أشبع وأنا حزين لَمَّا أجوع، والله لا يرضى لعباده أن يجوعوا، ولكن الناس هم الذين يتعسون أنفسهم، وعلى الفقراء أن يختاروا ما يسعدهم وأن يختاروا البدائل التي تحقق ذلك، أنا وكوثر كيان واحد من طبقة مكافحة ولولا أنا كما أنا ما أحببتي كوثر وما قدّمت نفسها لي بهذا الشكل، والدولة الظالمة هي التي تسن قوانين توقع مجتمعا في مشاكل وهم يقومون بذلك عن قصد لتكسير ظهور الناس في حياتهم فيلتهون في لقمة العيش، ولم يكن في بلادي أبداً عند حاكم حاسة روحية تدعو الناس إلى آفاق النور، وأبقوا على الناس أن يقبعوا في ظلامهم، وكان كل إنسان في مدينتي يحمل هم

نفسه ويعمل على حل همومه، فكانت أربع سنوات قضيتها بالعسكرية من عام ١٩٧٠ وحتى سبتمبر ١٩٧٤ كانت أيام أسود من جنب المركب، ولمّا خرجت إلى المدينة الحرّة كنت أريد أن ألتهم كل ما فيها من حياة، ولكي أحقق ذلك فكان لأبد لي من الواقعية في أسلوبها البسيط فأكلت من أول طعام فُدم لي في شقة كوثر ومن أول ساق بهرتني في شقة المنشية ومن فكر ورأس نادبة جرجس في مقهى النبي دانيال.. وكنت أموت في الحياة الصاخبة الممتلئة بالأحداث ففسيحت أن يكون لي ماضٍ راكد في قرية تتأوه من الكسلة والرتابة ومراقبة الناس بعضهم لبعض فكانت الحياة في قريتي راكدة بليدة جاهلة، وكان أول دواعي العقل أن أطوى نفسي في هذه المدينة على ثلاث كن لي عبادة.. ومن قال إنّي أتوب.. أتوب عن ماذا وهل في كوني مع ثلاث نساء حرام.. وكيف لشاب مثلي يفكر في الحلال والحرام وهو في أول درب من دروب الحياة، وكيف لرجل مثلي ذاق حلاوة النساء أن يتوب الآن.. دعوه حتى يشبع ثم يتوب، إن معظم الناس تابوا بعد عقود من عمرهم ويعد أن خاضوا كثيرًا من تجارب الحياة، وكيف تكون التوبة من فراغ، فلا بد أن تأتي التوبة بعد شوط طويل من تجارب الحياة حتى تكون توبة نصوحة.. تكون توبة بعد خطأ.. تكون توبة حق بعد كثير من الضياع.. ومن أني أضيع.. ختمت علاقتي مع كوثر بزواج، ومازلت علاقتي بسعاد مفتوحة لا أعرف هل تنتهي أبدًا بالذهاب إليها أم تنتهي بالزواج.

.. وفي كل الأحوال وأنا أعني واقعي أشعر أنني تائه وخائف من أهل المدينة جميعًا لكوني غريبًا فيها ورغم اندماجي السريع مع نساءها فإنني مازلت أخاف.. أخاف من النساء رغم أنني أحبهن، وكان خوفي من مجهول لا أعرفه فكانت لا أحب الاختلاط بالرجال ولا

أرغب في معرفتهم بأكثر من سلام وتحية، وكان هذا هو المجهول الذي أخافه، ولم أكن أستطيع أن أخرج من دائرة الثلاث إلا إلى رابعة، وفي قمة قلقي لجأت إلى نادبة جرجس لالتقي بها في مقهى النبي دانيال والتي فاجأتني بتفاصيل عن سعاد:

- سعاد اطلّقت يا شريف..
- حاسس إن فيه حاجة لأنها غايبة من مدة..
- قالت لي أخبريه..
- تفتكري أعمل إيه..
- تتجوزها..
- يانهار إسود..
- أمّال عايز إيه.. تروح ليها تاني المنشية.. إنت عايز تبقى سايب على طول يا شريف..
- لأ والله مش كده..
- أمّال إيه.. على فكرة هيّ كانت عايزاك تفوت عليها قلت لها لأ يا سعاد..
- وجهة نظرك إيه..
- علشان مايحصلش انهيار تاني.. أنا عارفاها معاك مش هاتسيبك وانت هاتتهار أدامها..
- طيبّ وبعدين..
- قلت لها تفوت ثلاث شهور زي الشرع ما بيقول..

- وبعدين ..
- يتصحَّح اللي فات بينكم وتتجوَّزها ..
- هاقولك حاجة مفاجأة ..
- قول ..
- أنا اتجوزت كوثر ..
- برافو عليك .. تبقى سعاد زوجة تانية .. بس فيه حاجة ،
- سعاد مجنونة ومش هاترضى واحدة تانية تشاركها فيك ..
- والحل ..
- سيب التلات شهور يفوتوا وبعدين هانشوف الدنيا هاتعمل
- ايه ..
- يعني إنت مش هاتعلميها بجوازي ..
- طبعاً لأ .. دي مجنونة .. ممكن تجيلك تموتك وتموت
- كوثر ..
- وقَّعت نفسي في مشاكل ..
- بالعكس إنت ماشي صح وياريت كل الرجالة جريئة وقوية
- زيك ..
- بتجامليني ..
- والله يا شريف أنا لو مش قبطية لاتجوَّزتك النهاردة قبل
- بكرة ..
- هو مافيش جواز عندكم خالص ..

- فيه.. بس قليل كل فين وفين..
- وبعدين أنا شايل همك قوي.. دا إنت مش أي بنت في
إسكندرية..
- الحظ يا شريف..
- وبعدين..
- ولا قبلين.. آدي إحنا عايشين لغاية ما ربنا بيعت الفرج..
- دا إنت عندك صبر أيوب..
- مش لاقيين غيره..

.. ويبدو أن موت أم سعاد أثر فيها تأثيرًا كبيرًا، حزنت عليها حزنًا عميقًا لم تحزنه على أبيها، وجاء بعده طلاقها من أنسى العسكري فكان فرجًا لها أزاح كثيرًا من نصف الهم، الذي كانت تحمله في نفسها، لكن سعاد توقفت عن علاقتها بشريف فهي لم تعد ترسل له ليأتيها ثم أنها كانت نفسيًا مسدودة الشهية؛ لأن تعشق وتعاود علاقتها الحميمة به، راحت تصلي كثيرًا ويعاودها البكاء من وقت لآخر على فراق أمها وأحيانًا تبكي على حالها وطلاقها، وكأنها لم تتزوج وليست أمًا بالمرّة، فولدها شبيه أبيه فكيف ترى ما تكرهه وقد مضى ولن يرجع، وكان حزنها أكثر كيف تبتعد عن ولدها لهذا السبب أليس ابن أحسانها لماذا تقسو عليه هكذا.. وكان عزاؤها أنها تركته في أحضان خالته.

.. وكان عليها أن تعيش عيشة واحدة يملؤها الحزن والدموع والإنكفاء عن العالم حولها حتى تمر ثلاثة شهور بعدها تقبل على الزواج من عشيقها، وكيف أن نادية جرجس صديقتها القبطية نصحتها بتطبيق الشرع، فكيف لا تطبق شرعها وهي في حالها الآن لابد أن تعتبر بعد موت أمها وتعرف أننا في النهاية راحلون ولن يفيدنا العبث وتجارينا اللا محدودة، إلا أنها كانت تشعر أنها تقوم بعمل صعب عسير فهي المرأة التي إذا تجولت في شارع التقت لها الرجال مشدوهين بجمالها ودلالها صاحبة وجه ملفت وجسد بض مثير ممشوق العود يافع جذّاب، وأخفت أمر طلاقها عن زملائها وزميلاتها المدرسين حتى لا تكثر حولها أية أقاويل تلك التي تشاع على أية امرأة مطلّقة.. وكان بعض المدرسين يحاولون لفت انتباهها أو التقرب إليها لكنها كانت

ذكية في التعامل معهم بشيء من عدم الانتباه وبعض الكبرياء، فهي دائماً تقلل من الحديث معهم جميعاً فإذا انتهت من حصصها هرولت كالفرس تخرج من باب المدرسة، وكأنها تسرع لأمر مهم، كانت تهرب وتفر ليس إلى المجهول ولكن إلى حياة مع عاشقها وهذه المرة مع تطبيق الشرع.. ثلاثة شهور مضى منها عشرون يوماً على الطلاق.. سبعون يوماً وينقضى ذلك الأمر بعدها أت بشريف إلى بيتي إلى بيت أمي، وكأنّها ماتت لكي توسّع لي كي أعيش، كيف تمر الأيام بدونه وقد أذقني حلاوة لقائه، الذي يجعلني أطير نحو السماء وأحضن موج البحر، ليس لي زمان خارج أيامك فأنت زماني الذي بدونه أحيا عارية بلا ثوب يسترني أو سقف يحميني من شدة الرياح وفورة الزعابيب، أبعادي أنت فعندما أخرج من حدودي أرى ذراعيك يحضنانني إلى عالمك، خطوط قلمك ترسم لي شجرة تظللني أوراقها أينما ذهبت، أنت الذي علمتني أن لصدري شجرتين من تفاح وأن ذراعي جريدتان لنخلة تحمل سبط البلح، علمتني أن لي عالماً خاصاً لا تسبقني فيه امرأة، أخرجتني من دائرة القسوة التي ضمتني منذ سنين إلى عالمها الفقير من كل حياة، جعلت الدنيا تضحك من أجلي، جعلتني أقرأ عناوين جسدي فتحت لك أبوابه تدعوك أن تمسك بثناياه الدقيقة.. فكيف أبتعد عنك.. أجيبك يا حبيبي من كل قلبي، بدونك تعيسة وحيدة ولا أقوى على انتظارك، كل حياتي التي مضت كانت شيئاً عفناً حتى تعلّقت بك منذ أول يوم وصلت فيه إلى مدرسة إمبروزو. ولما التقيت بك في بيت أمي كان ذلك أول شعوري بالحياة وأدركت أنني امرأة فكيف أتركك يوماً واحداً.. إنني أخاف عليك من نساء مدينتي وأغار عليك من رذاذ البحر حين تمشي عند سوره الممتد في طول بلدتي، أنا حزينه بدونك فماذا أفعل.. أحاول

القراءة في الكتب كل يوم ولكن الكلمات تتوه بين السطور، وتذهب كل المعاني التي يطرحها كاتبها بين فقراته، وأحاول النوم لكن يأتيني النعاس على فترات وفي كل مرة أحلم أنك تحملني إلى فراشي عارية.. ما الذي تريده مني يا فارس الأيام.. هل كنت تعرف مأساتي مع أنسى فأرسلك الله رحمة لامرأة أتعسها رجل من أجلاف الأرض، وجدت نفسي أعشق مرة واحدة، جننتي فجأة بالحب ولم يمكث الحب في داخلي يحاورني وأحاوره كما يحدث لمعظم النساء ثم تنتهي القصة بالهجر والانفصال، جاءني الحب فجأة وأخذني من يدي حيث التقيت به مرة واحدة كرجل يخترق جسدي طواعية مني وبكامل إرادتي خلعت له ملابسني بلا خجل.. سنوات طويلة عندما كنت طالبة في تجارة طنطا أذهب إليها كل يوم بالقطار، وكان مبلغ سعادتي أن كل الشباب والرجال زملائي في السفر يتسابقون لمعرفةني والتقرب مني، تعلّقوا جميعاً بي، ولم أتعلّق بواحد منهم ولم أعط لواحد منهم لمسة يد أو نظرة عين.. وضعتهم جميعاً في عربة المؤخرة القديمة في القطار الهكيّع الذي يقف في كل مدينة صغيرة، وانتهت دراستي الجامعية ولم أفتح قلبي لطارق ولم يمس جسدي رجل ولم أمنح قلبي لأحد في إنتظار فارس سوف يأتي، وكان أكثر الأشياء المعرّزة في حياتي هو خوف أمي علىّ فزوجتني هذا الجلف.. دفنتني أمي في مقبرة الحياة.. كيف عشت معه وعاشرته وأنجبت منه ربيع.. كان زمناً بغيضاً زمناً منسياً لا بد أن يذهب وكان شريف جاء إلى مدرستي ليحرّرني من واقعي الشائن مع رجل أكرهه.. وكان الشيء الوحيد الذي أسعدني في حياتي بعد تخرّجي هو خطاب تعييني الذي أخبرني بقرار تعييني مدرسة للمواد التجارية في مدرسة إمبروزو التجارية للبنات، وتوقفت عند كلمة إمبروزو، ما هو إمبروزو

ولماذا سميت بهذا الاسم الخواجاتي، وكل ما علمته من الناس حوله أنه طبيب إيطالي شهير وعالم جريمة ولد في عام ١٨٣٥ وتوفي في عام ١٩٠٩ وهو منحدر من عائلة ثرية يهودية الأصل، وهو المؤسس الأول لعلم الأنثروبولوجيا الجنائية أو الإنسان المجرم كعلم مستقل تجاه العلوم الاجتماعية، وعلمت أن اسمه الحقيقي هو.. تشيرزي لومبروزو.. ولكن لماذا سمي هذا الحي باسمه ولماذا سميت المدرسة باسمه وما هو علاقته بالإسكندرية.. كل هذه الأسئلة طرحتها على من حولي ولم يجبني أحد عليها، وكان أحلى ما في قرار تعييني هو اسم مدرسة إمبروزو، وهكذا نحن في بلدنا لأننا لا نستطيع أن نسعد بواقعا الصعب فإننا نلجأ إلى السعادة بالأسماء الحلوة والغريبة.. وهذا الجوع إلى الحياة هو الذي يجعلنا نذهب إلى الأدبيات والمعنويات لأن مادياتنا فقيرة، ومنذ أول يوم بدأت عملي في هذه المدرسة وأنا أشعر بأن مدرستي هذه فقيرة بالرجال وخالية من علاقات اجتماعية مقبولة في مجتمع المدرسة، وأكبر شيء في مدرستي هو مغامرات الطالبات مع بعض المدرسين أو غيرهم من خارج المدرسة، وسمعت أن هناك طالبات في المدرسة يعملن في الليل بالملاهي مغنيات وراقصات وبعضهن بنات ليل، هذا ما سمعته من حكاوي وأقاويل يتم تداولها في جو المدرسة مثل أي مدرسة ثانوي للبنات في أي مكان.. ومن هذا الجو الممل والركيك عندما جاءني شريف زميلاً في مدرستي أخذته في تلايبي وطرتُ به ليكون لي وحدي بعيداً عن هذا العالم..

.. ولمّا كنت أشعر بالضعف لشوقي إلى شريف ومحاولتي البعد عنه حتى تنقضى العدة كنت ألجأ إلى دموعي وأبكي في فراشي حتى

يأخذني النوم الحزين.. وفي مرّة لمّا حكيتُ لنادية جرجس أحوالي
دعتني للقاء في مقهى النبي دانيال فقلت لها:

- هوّ أنا يا نادية راجل.. تعالٍ عندي أو آجي أنا..

وافقت نادية جرجس ولكنها قالت:

- مين قالك إني باقابل رجالة في القهوة دي..

- أقصد إحنا ستات في البيوت نتكلم أحسن ونشرب سوا
شاي بيتي..

وراحت نادية تضحك ثم قالت لسعاد عبر الهاتف:

- إنت لثيمة يابت.. هوّ أنا باقابل رجالة برضه..

- هي الست الليّ ماتقابلشي راجل تبقى ست..

- طول ماالندنيا موجودة ياسعاد لازم من راجل ولازم من
ست..

- نفسي ينادية تلاقي الراجل الليّ إنت عايزاه..

- نفسي حاجة والواقع حاجة تانية..

- مش بتروحي الكنيسة كل يوم أحد..

- أيوه مرواح الكنيسة بيقويني.. بيقويّ الناس كلها من
الضعف ويبيعين الناس على مواجهة الواقع الصعب
للحياة..

- أنا عايزة آجي معاك مرّة أشوفكم بتعملوا إيه..

- تعالي حدّدي يوم وتعالى معايا دا ها يسعدني قوي يا
سعاد..

- أنا نفسي أعمل حاجة أشغل بيها نفسي لغاية ما العدة
تخلص..

- بس هوّ إزاي باعد عنك طبيعي اليومين دول بيروح فين ؟
هوّ عنده فكرة بالعدة..

- مش عارفة.. هوّ صحيح فين..

تضحك نادية وتقول: على فكرة أنا قلت له ابعده عن سعاد على ما
أيام العدة تخلص.. وبلاش يبقى فيه حاجة جامدة دلوقتي.. اصبر
شوية يا شريف وابعده عن سعاد علشان تكمل أيام العدة في سلام..

- يا خرابي منك ينادية كل ده قلتيه وعملتيه.. على العموم
كتر خيرك طول عمرك بتحبيني وواقفة جنبني..

- دا شيء طبيعي ولازم إحنا الستات نعمل كده مع بعض..

- هاتيحي إمتى ياسعاد..

- الجمعة الجاية..

- والكنيسة..

- أي يوم أحد..

.. كنت ناجحًا في حياتي مع كوثر تلك الزوجة التي جعلتني أعيش الواقع مرّة واحدة وفي منتهى البساطة، وكان لي بيت، واندهشت كيف تم زواجي منها دون التزامي نحوها بأي مطلب مادي كالدبلة وفستان الفرح والشبكة والمهر والتزامات كثيرة تتقل عبء المقبلين على الزواج فيهربون إلى واقع آخر، وقد يطول هروبهم وينشق الكثير منهم في طرق غير طبيعية للحياة، كوثر هي المرأة التي حفظتني من أي تفرعات للشطط في مدينة كبيرة كهذه تلتهم كل أعمال الناس الأخرى وتتسع للكثير من المهارات والانحرافات خاصة بالنسبة للشباب الغرياء..

.. وبعد مرور ثلاثة أشهر منذ زواجنا بدأت كوثر تشعر بدوخة في رأسها والميل إلى القياء فأفضت لجارتها زوجة الشيخ عبد الغني بما يحدث لها فنصحتها بأن تذهب إلى الطبيب، لأن تلك أعراض حمل، ولم تخبر كوثر شريف بتلك المتغيرات وكانت تؤدي له واجبه كما ينبغي مثل أي يوم قبل الزواج أو في أول أيام الزواج وكان هدفها دائمًا ألا تشغله بشيء حتى يتفرغ لعمله، وكانت هذه الأيام أيام تصحيح امتحانات الدبلوم، وعندما تتأكد من أن تلك علامات حمل تخبره..

.. ذهبت إلى الطبيب وأخبرها بأنها حامل في بداية الشهر الثاني، وسعدت بذلك كثيرًا، وعادت إلى البيت، وهَيَّأت نفسها في تلك الليلة أن تخبره بما في أحشائها، وبعد أن تهيأت له وأمتعت شريف زيادة في هذه الليلة قالت له وهي تحتضنه بذراعيها:

- شريف .. وسكنت ..
 - سكتيَّ ليه .. عايضة ايه ..
 - ألا تفرح لما أحمل منك ..
 - طبعاً أفرح .. مش إنت مراتي وهاتبقى أم ولادي ..
 - صحيح يا شريف هاتفرح بصحيح ..
 - قولي ياكوثر فيه حاجة ..
 - أنا حامل في شهري الثاني ..
 - بنتكلمي جد .. والله ..
 - والله يا شريف .. مش إنت مبسوط ..
 - مبسوط والله ..
- وضمها إلى صدره في حنان وراح يردد .. دا أحسن خبر سمعته في حياتي .. وراحت كوثر تبكي، وأخذ شريف يمسح دموعها بأصابعه ويقول:
- هوَّ حد يعيِّط كده برضه .. افرحي ياكوثر هاتبقى أم ..
 - الله .. الله يا شريف .. أنا فرحانة .. فرحانة قوي علشان إنت فرحان ..
 - إلا فرحان .. فرحان فرحة مادقتهاش قبل كده ..
- ووضع يده على بطنها في حنان وراح يدعو لها وكأنه يكلم ويصافح الجنين في أحشائها بامتنان .. وقام وتوضأ وراح يصلِّي شكرًا لله، وكان في قلبه معان فياضة لا يستطيع العقل فهم معناها وكأنه يرى

أشياء جميلة في عالمه غير التي كانت يشعر بها وينطق بها عقله،
وشعر بأن لحظات السعادة القوية لا يستطيع العقل احتواءها وأن في
القلب معانى أخرى كبيرة تتسع لهذه المعاني التي يعجز فيها العقل
عن استيعابها..

.. وفي لجان التصحيح التقى بزملاء وزميلات في مدارس أخرى،
واتسعت دائرة معارفه، وظل خبر حمل زوجته سرًا حتى التقى بعد
شهر بنادية جرجس في مدرسته حين ذهب ليستلم راتبه في أول
الشهر، وجلسا في الحديقة وشربا الشاي وشاركهما بعد ذلك زملاء
وزميلات، وراح كل يحكي ما صادفه أثناء مراقبة الامتحان وتصحيح
أوراق الدبلوم، وانتهى اليوم بالذهاب معًا هذا اليوم إلى مقهى النبي
دانيال، وكانت نادية حزينة لانتهاء العدة عند سعاد وهي التي تعلم
بزواجه من كوثر فكيف سيتصرف شريف في هذا الموضوع وهي
تعرف أن سعاد تنتظره على أحر من الجمر..

.. ولما كان العالم في المدينة مليئًا بالحكايات فهذه مدرسة إمبروزو
بمدرسيها وطالباتها يتبخر عنها مئات الحكايات فما بالك بمدينة
ملآي بآلاف الأماكن فكم حكاية يزخر بها هذا العالم الواسع، في
الأربعينيات وقبلها كانت القرى تمتلئ بحكايات السحر للرجال والنساء
فكان للعرافين دور في تحريك الحياة الاجتماعية في تلك النجوع
والقرى، وكان الخوف من السحر شديدًا، وكان حب السحر أشد،
صراعات من أجل حصول الفتاة على زوج وأخرى لحصول الشاب
على فتاة وكذلك صراع الزوجات مع الأزواج كانت هناك آلهة تعظم
النفوس فينتصر طرف على الآخر من أجل البقاء، فكانت آلهة الحب

تسكن في النفوس قبل أن يكون لها أشخاص نقصدهم من أجل الحصول على مزيد من لذة وسعادة تلك الحياة، وكان بين السماء والأرض تتحرك آلهة كثيرة، وكل إنسان يعيش في تلك الأرض له معتقداته التي هي خارج أصول الدين رغم انتشار تعاليمه، وكان الظلام في القرى والمدن يساعد على ذلك، وينمّيها أكثر تشعب حاجات ورغبات الناس للحياة ويجعلها أشد عنفاً وكراهية فقر الأرض بالموارد وكثرة الناس، فهل كان لابد من آلهة.. آلهة للحب لتكسير أصنام الكراهية، التي يتفرع عنها السحر والظلام ودروب الانحراف.. .. ولم أكن أعرف قبل هذه الجلسة مع نادية أنّها تملك كل هذا الفكر وهذه الفلسفة نحو الحياة والإنسان والآلهة التي تنتشر بين السماء والأرض في نفوس الناس فقلت لها:

- نحن الآن نعيش واقعاً وأمام كلّ منا مطالب مادية تفوق طاقاتنا جميعاً فما هو الحل..
- إنه لولا أن كل واحد فينا فيه بعض من الروح التي تسمو فوق كل مطالب لما كانت الحياة بيننا مازالت تمد خيوطها ليمسك كل منا بطرف منها لتصبح الحياة وتمسى..
- بمعنى لا أفهم لقد دخلت بنا إلى عالم بعيد عن الأرض التي نعيش فوقها ونقاسى من شدة ظلمها لنا..
- نحن نظلم أنفسنا والواقع ملئ بالحلول، وأنا أعتبرك من أول الناس الذين وجدوا حلاً لأنفسهم ووجدوا مخرجاً لكي يعيشوا وليسعدوا..
- أفهم أنك تقدرين حياتي مع كوثر وأن زوجي منها مخرج..

- بكل المعاني خطوة لا يقدر عليها أهل المدينة أنفسهم..
- ظروفى وغربتى هيات لهذا الواقع الذى تحقّق..
- تعال بعيداً عن التحليق.. إن هذه التصورات ربما تفيدنا فى
تتوير طريقنا نحو التغلّب على صعاب الواقع..
- وإلى أين نذهب..
- تعال ندخل الواقع.. وسكنت..
- ندخل أي واقع.. واقع الجميع أو واقعى وواقعك..
- إن واقعى لم يدخل بعد.. دعنا ندخل واقعك..
- واقعى إننى تزوجت كوثر..
- وعلى الجانب الآخر سعاد انتهت عدّتها..
- وماذا تريد..
- الارتباط بك..
- وهل علمت بزواجى..
- لا..
- وهل تخبرينها..
- إنّها ليست عاقلة حتى أخبرها..
- ومن قال إنّها مجنونة.. أخبريها بحكايتى..
- ستصاب بالانهيار..
- أخبريها فإذا قبلت أن تكون زوجة ثانية فلا مانع عندي..

- ولماذا لا تخبرها أنت..
- لا أريد أن أرى غضبها عليّ أمام عيني..
- لو كانت تعرف أمور دينها حقًا لقبلت، ولولا أن الشرع يقدر مشكلات وظروف المجتمع لما كانت هذه التشريعات، إن هذه التشريعات وجدت لحل مشكلات الإنسان..
- الدين يا شريف جاء ليوسّع حياة الإنسان ويسيرها فلماذا لا نقبل حدود الدين وتعاليمه خاصة أنها جاءت من السماء من أجل صالح هذا البشر، الذي يعجّ بالفوضى..
- سعاد زميلتك وصديقتك اذهبي وأقنعيها وهذه هي ظروفي..
- وإذا رفضت وذهبت في دوامة الانفعال والأناية..
- إذا هي تريد أن تكون عاشقة أبدًا..
- وهذا في كل الأحوال أفضل بكثير من أن تكون وحيدة بلا زوج..
- من ناحيتي لن أستطيع أن أكون عاشقًا مرّة ثانية..
- قد تجن وتبحث عن عاشق آخر..
- هي حرّة في حياتها.. إن طلاقها من زوجها كان بسبب كرهها له وليس لأن تتزوجني..
- ولكن أنت الذي جعلتها تقدم بسرعة على الطلاق..
- لم أرغمها على ذلك..

- أبدأ ولكن أنت الذي ذوّقتها حلاوة العشق .. هي قالت لي ..
وسكنت ..
- ماذا قالت .. قولي ..
- أن شريف جاء لأن يخرجني من حياتي .. وقالت .. إن شريف هو الذي أذاقني معنى أن يكون الرجل رجلاً .. وقالت .. إنني لم أشعر أنني أنثى إلا بوجود شريف في حياتي ..
- هذا هو وضعي الآن .. لا أستطيع أن أطلق زوجتي كوثر وأتزوج بها لأحقق لها مطمعاً أنانياً .. لا أهدم بيت لأقيم جديداً .. خاصة أن كوثر .. وسكت ..
- أن كوثر ماذا يا شريف ..
- حامل ..
- ماذا ..
- كوثر حامل يانادية ..
- يانهار إسود .. مرّة واحدة .. من أين جنّت يا شريف حتى تحمل منك امرأة بهذه السرعة ..
- إرادة الله .. سمّي يانادية .. ألا تعرفي كيف تسمّي ..
- أعرف طبعاً .. بسم الله ما شاء الله ..
- عندكم هذا أيضاً ..

- عندنا كل شيء في أمور الدنيا كما عندنا ما يخصنا في أمور الآخرة..
- بدون تفاصيل.. أنا محق أم مخطئ..
- ومن قال إنك أخطأت..
- هل ستخبرينها بكل شيء..
- دعني أفكر.. كيف أقول لها..

.. كانت نادية مذهولة ممّا جرى ومن تتابع الأحداث بسرعة وما تحمله من مفاجآت، إن المهمة التي ستقوم بها مع سعاد ليست سهلة خاصة وأنها تعرف أنّها تتمسّك بالأمر، وأن نفسها غالية عليها.. وأنها لن تقبل ما فعله شريف مع كوثر حتى حملت منه وإن كان ذلك زواجًا، إن كوثر حصلت على تحقيق حياتها من أقصر الطرق وبأبخر ثمن قدّمه شريف لها، إنّها خرجت من دائرة النية مع طالبات مدرسة الأميرة فايزة، ومن أدراك بعد موت أمها أين كانت تذهب لولا وجود شريف في بيتها الذي حال أمامها.. هل كانت ستذهب للغناء أو الرقص في ملهى كما تفعل مثلهن أم يغيرها التسكّع هناك في طريق الكورنيش أو في محطة الرمل حتى يلتقطها رجل.. لقد أنقذها شريف من عالم واسع عليها يتحكم فيه الهوى والرغبة، ويغيرها فيه المتعة والمال ولذة الحياة، كانت نادية مشدوهة مما جرى حتى أنها حسدت كوثر على حملها منه بهذه السرعة، خرجت معه إلى الشارع وفي رأسها كل ما وقع من حياة وصراع مع شريف، وحلّت ذلك أن هذا ما يحدث مع كل رجل مثله يكون مصدرًا لصراع النساء حوله حتى أنها تمنّت في أعماق نفسها لو كانت في مكان كوثر وحسدتها على ما حصلت عليه، ولكنها توقفت عن الإمعان في مثل هذا الحديث مع نفسها لوجود حواجز كثيرة.. فأين هي من تلك الحياة التي تجري حولها.. هل يكفيها دور التوفيق بين الناس، أو حتى أن تكون مصلحة بين سعاد وشريف، فماذا هي تأخذ بعد ذلك.. وشعرت بالندم وشيء من الحسرة في داخلها، ولكنها كتمت تلك المشاعر الغريبة التي اعترتها لأول مرّة وقررت أن تهاتف سعاد لتذكّرها بيوم

الجمعة القادم، وأنها لا بد أن تأتيها؛ حيث تحمل لها أخبارًا مهمة تخصها..

.. كان لا بد من صوت قوي مثل الدين ينزل إلى الأرض، ويسمع صدها الناس ويطيعونه لتستقيم حياتهم المخلوطة بالإعوجاج والنتيه، وكانت الدنيا عند سعاد أنها في الأيام التي تلت انتهاء أيام العدة عبادتها لله كثيرًا وصلاتها في جوف الليل وصلاة الفجر حاضرًا.. وأن زواجها من شريف عاد حتمًا في أيام قليلة قادمة..

استقبلتها نادبة مهللة وبفاصل من الترحاب سبقها قبلات لا تنتهي حتى أن سعاد حضنتها بكلتا يديها فربتت نادبة على ظهرها في حب وامتنان، وجلستا بعد أن هدأت حرارة اللقاء، وكالعادة وضعت ساقاً على الأخرى، وكانت ساقها مغريتين وجذابتين حتى أن أية امرأة لا تستطيع أن تخفي إعجابها بتلك الساق البضة الرشيقة فقالت لها نادبة:

- ياخرابي أحلى ما فيك قعدتك ولو أنا راجل دلوقتي عمري ما هاسيبك تطلعي سليمة من هنا.

.. وراحت سعاد تضحك بصوت عال حتى أن والدتها نادبة لما سمعت رنين ضحكتها همست في نفسها قائلة.. البت دي عليها ضحكة تجنن.. اضحكي كمان ياسعاد.. ضحكتك بتقول كل حاجة..

وكان نادبة تلقى في نفسها ما لقيته أمها من إحساس وابتهاج لضحكتها فقالت لها:

- تعرفي يا سعاد.. ضحكتك دي بتقول كل حاجة عن الست..

- أنا ينادية لغاية دلوقتي ماضحكش ضحكة من قلبي
لراجل زي الضحكة دي..
- إزاي.. وأنت مع شريف ماضحكش كده..
- أبداً كنت باكتم ضحكتي علشان ماما ماتسمعش حاجة..
- باين عليك عايزة تعملي حاجة جامدة قوي..
- أبداً.. مش حَقِّي دلوقتي أتجوز من شريف..
- حَقَّك بس..
- بس إيه..
- لازم تعرفي كل حاجة عنه في الفترة اللي فاتت..
- هوّ فيه جديد مش حياته زي ما هيّ..
- زي ما هيّ.. وأنت خلاص جاهزة.. اشتريت حاجة
جديدة..
- اشتريت هدمو كثير ونصبت أوضة نوم جديدة..
- يبقى ناقص إيه..
- ناقص شريف..
- هاتتجوزي في بيت ماما طبعاً..
- هوّ فيه غيره..
- عايزة من شريف شبكة ومهر طبعاً..
- شريف زي أي شاب غلبان مامعش حاجة..

- ما يمكن معاه..
- دا كل مرتبه بالحصص الزيادة يدويك خمسة وأربعين جنيه..
- على العموم أنا مش عايزة منه غير الدبلة..
- دا أنت قلبك عليه قوي..
- أنا واقعية واحدة مش عايزة تضيع وقت من عمرها.. أنا عايزة شريف بس..
- بقى سعاد دي كلها بسيطة للدرجة دي.. دا غيرك يتأقل بالذهب..
- خلاص يبقى اتجوز واحد عربي علشان يديني ذهب..
- ياه أد كده بتحبي شريف..
- شريف أد بلاد بأرضها وبحرها ومعادنها..
- أد كده شريف أسعدك..
- شريف ده كل الرجالة الحلوة اتجمعت فيه..
- أنا باحسدك على حبك ليه..
- ماتنسيش أنا مش حبيته بس من بعيد.. شريف دا كان عشيقى وأنا عشقته من كل كياني..
- طيب مش المفروض تقابليه وتتفاهموا وتخلصوا موضوعكم..
- خلاص خليه يجيلي البيت..

- مش هايرضى دلوقتٍ ..
- ليه هوّ دلوقتٍ حصل إيه ..
- قالت نادية وهي تعرف أنّها تكذب:
- ماقابلتوش من مدة وماعرفش عنه حاجة وهوّ غطسان مابيسألش ..
- إنت كده بتخوّفيني ..
- أنا خايفة عليه من بنت صاحب البيت ..
- هوّ ساكن في بيت فيه بنت كمان ..
- بنت أد الحيفة تلميذة في الدبلوم بمدرسة الأميرة فايزة ..
- ياخرابي .. إنت شفتيها ..
- شفتها مرّة ..
- إمتى وإزّاي وليه ..
- من أربع شهور .. أصل أبوها مات قتيل ورُحت أعزّيها ..
- يانهار إسود كل ده يحصل من ورايا ..
- دا كلّه مافيهش حاجة ضدك ولا تخصك ياسعاد ..
- بس دا يخص شريف ..
- والله في يوم غاب عن المدرسة عرفت بعدها أن صاحب البيت بتاعه مات وإن ليه بنت وحيدة غلبانة رُحت أعزّيها كواجب إنساني ..

- حلوة..
- بنت ساهية قوي.. طويلة وعريضة وبصراحة تغري أي
رجل..
- يوم منيل النهارده ينادية بالأخبار السوده دي..
- أنا بحكيلك عن واقع..
- ممكن شريف يكون على علاقة بيها..
- ماعرفشي.. ممكن.. أنا مش شايفاه عيش إزاي..
- والبنت دي معاها إخوات وأمها فين..
- أمها ميّته من زمان ومالهاش إخوات..
- يانهار إسود قاعدة لوحدها مع شريف بعد موت أبوها..
ياخراي..
- طيب بس طولّي بالك..
- لأ دا الموضوع كده كبير قوي وعلشان كده غاب خالص
عني ولا حتى سأل وأنا انشغلت بأمي وموتها وبعدين قلت
تنتهي أيام العدة وأشوفه..
- هوّ تقريبًا كل واحد منكم راح في حاله..
- هوّ مش ممكن يكون على علاقة بيها بعد علاقته معايا..
- يعني علاقته معاك هاتمنعه..
- هوّ أنا أي حد ينادية.. يعني معقول يبص لعيلة مفعوصة
في الدبلوم ويسيب واحدة زيّ مدرسة ثانوي..

- الموضوع مش دبلوم ولا عيِّلة ولا مدرسة ثانوي.. دا كلُّه..
- ماينفعش.. هيَّ البنت دي ليها جسم وليها.. وليها.. زي
- ماليك بالضبط..
- يعني إيه..
- ماعرفشي ياسعاد.. الموضوع بعيد عنِّي وعنك.. هوَّ مش
- الخوف من علاقة ممكن تكون حصلت معاها.. لكن أنا
- خايفة من حاجة واحدة.. وسكنت..
- خايفة من إيه..
- يكون ارتبط بيها..
- يانهار إسود وأنا.. هوَّ لعب عيال.. دا أنا..
- دا إنت إيه..
- اقتله يانادية.. اقتله بإيدي دي..
- بلاش افتري يا سعاد.. تقتليه إزاي.. سبت إيه لبتوع
- الشوارع..
- ما إنت هاتجنيني يا نادية.. لو مكاني تعملي إيه..
- أتجوِّزه..
- حتى لو متجوِّز..
- أيوة.. هوَّ فيه بديل.. إذا كنت بتحبيه صحيح اتجوِّزه حتى
- ولو متجوِّز ثلاثة..
- أنا مش أي واحدة يانادية..

- بلاش الغرور ياسعاد.. هي الستات لاقية..
- أد كده الست رخيصة..
- مش رخيصة.. زي أي حاجة في بلدنا عرض وطلب.. هيّ الدنيا عندنا كده.. وبعدين يا سعاد الشرع عمل كده عندكم علشان يبسرّ للناس والمجتمع يعيش في سلام.
- تاني مرّة بتتكلمّي عن الشرع..
- وياه الغلط في كده.. مش الناس لما بتحتار بتروح للشرع سواء عندنا أو عندكم..
- أطلع من مشكلة أدخل في مشكلة أكبر منها..
- شوفي خليك واقعية.. فكري بعقل إذا كان متجاوز عملي إيه..
- يعني بلاش أقتله..
- إنت تحفة ياسعاد.. الأول نشوف إيه اللي حصل..
- حتى لو اتجوز هو مش غطان..
- يعني بتدافعي عنه..
- علاقته بيك كانت حرام مش كده..
- كنت بحبه ينادية..
- بس لما نحب مانعملش الحرام..
- ماكنتش قادرة بعد صبر ست سنين.. ماصدقت لقيته..

- أيوه بس مش كده.. هو حَبَّ يصون نفسه ويبعد عنك ولقى فرصة واتجوَّز.. إيه الغلط اللي عمله.. فرضاً لو حصل واتجوَّز..

- قولي بصراحة إنت عارفة حاجة..

سكتت نادية ثم هزَّت رأسها، وكأنها تتدبر ما دار من حوار بينهما بسرعة مذهلة، وكان هدف نادية من الحوار أن تثبت لها الخبر بعد أن تهَيَّئ له حتى لا يكون مفاجأة صادمة لصديقتها التي تكن لها كل مودَّة.. وتركتها غارقة في هواجسها وظنونها، ودخلت المطبخ لتعمل قهوة ثم تعود إليها في فاصل آخر للوصول إلى واقع الأمور ومعالجتها بشكل مقبول لها ولشريف..

.. قعدت قبالتها وهي تضع القهوة أمامها وقالت في هدوء:

- قهوة سادة.. ياسعاد خدي الأمور بهدوء.. لو الواحدة مننا خدت كل كبيرة وصغيرة على أعصابها يبقى هانموت.. لازم نعرف نعايش مع كل الأمور حتى ولو كانت منبِّلة بنيلة.. هوَّ فيه حاجة حلوة بنعيشها.. مانت شايفة طول عمرنا بنعاني من الغلاء ومن قلة الجواز ومافيش شقق والناس مامعاش فلوس تتجوز وتعمل بيوت.. عايشين في المشاكل دي من يوم ماتولدنا.. قوليلي إيه الجديد الحلو حوالينا.. مافيش.. إحنا كلنا بنحفر في الصخر علشان نعمل حياة، واللي بيعمل حياة مننا بيعملها من بقايا فُتات بيرموه لينا..

- مش فاهمة يانادية دا إنت بتقولي محاضرة..

- أبدأً أنا بقول الليّ حاصل.. إنت عارفة المشكلة إيه..
- إيه..
- إن البنّت منّا بنتتظر الجواز من الرجالة والرجالة عايشة في نفس دايرة الفقر الليّ إحنا عايشنها.. فقر على فقر يبقى هاييجي الفرج منين.. على فكرة الراجل في بلدنا مظلوم والمظلوم التعبان عمره ما يقدر يقدم حل للمشكلة، وعيب الست منّا تفكر إن الراجل هايقدر يعمل لها كل حاجة وهذا وهم كبير..
- برضه رجعت للمحاضرة تاني..
- طيب هاعمل إيه إذا كانت دي هيّ الحقيقة المرّة..
- إنت بتدافعي عن الرجالة..
- الراجل عندنا مش إله وعمره ما كان في بلدنا إله.. ممكن يبقى إله للحب المنحوت.. الست الخايبة منّا بتعتبره إله وهوّ أغلب من الغلب لازم الستات تصحى..
- يعني إيه المنحوت..
- حب التماثيل.. يعني الراجل ممكن يعمل تمثال للحب ينحته من حجر أو من صلصال ويقعد يقول حوالية كلام معسول أو شعر جميل لكن مايقدرش يبني طوية في بيت لأنه تعبّان، وعلشان كده الست والبنّت ضايعين في دائرة الوهم وجميعهم رجّالة وستات بيعيشوا في دائرة الفقر.. الست والبنّت في بلدنا في الظروف دي عليها تصحى وتعرف أن الرجالة غلابة وفقراء وعمرهم ما يكونوا آلهة..

همَّ آلهة للحب المنحوت.. حب الكلام.. حب التماثيل..
تصدَّقِي بالله..

- أصدِّق بالله..

- إحنا كلُّنا بنعيش في دوائر فقر وظلم صنعها لنا الآخرون
كي يعيشوا ونموثُ نحن..

- جبت الكلام دا كله منين يا نادية.. دي مشكلة كبيرة قوي
وخرجت من حكايتي مع شريف.. تعالِ نرجع لحالي اللي
بيكِّي..

- وليه تبكي من دلوقتي..

- لو كان اتجوز ينادية هابكي طول عمري..

- طيب خَلِّيني بكرة أشوف الحقيقة من شريف نفسه..

- يارب أسئِر على..

- يارب..

.. قال المجذوب للمرأة التي تأتيه بسيارتها من ليلة لأخرى:

- أنا كنت ابن ناس..
- إنت ابن مين..
- أنا أبويا كان مدير في الجمرك..
- وإيه اللي عمل فيك كده..
- أبداً..
- قول احكي لي..
- اتجوزت واحدة من حي الجمرك.. كان أبوها موظف في
نفس جمرك أبويا..
- خَلَفْت منها..
- مالحقناش..
- إِرْاي..
- بعد شهر من جوازنا لقيتها بتخرج من ورايا تابعتها في يوم
ومشيت وراها لقيتها ماطولش عليك بتروح مكتب محامي..
- ليه..
- برضه مش هاطول عليك.. كانت بتشتغل عنده وهي
طالبة وظلّت على علاقة بيه بعد جوازي منها..
- وبعدين..

- عرفت دا كله من بواب العمارة ومن فرّاش مكتب المحامي،
يوم بعد يوم عرفت منهم كل حاجة عن علاقتها
بالمحامي..
- وبعدين..
- قلت لأبويا قال لي إنت اللي اخترتها..
- وبعدين..
- خلاصة الكلام علشان زهقت من بعدين بتاعتك.. طفشت
من البيت بعد ما حطيت لها سم في عصير الجوافة..
- ماتت..
- لحقوها بالعافية.. وبعد ما صحيت راحت تاني للمحامي..
- وبعدين..
- رجعت البيت تاني وطلقتها..
- وبعدين..
- طفشت وخذت في طريقي إدروشت شوية ومشيت في
الذكر حبتين..
- ماتجوزتش تاني..
- هربت من الحياة كلها واعتقدت أن الستات كلها خاينة
فقلت أطفش من العالم الخاين كله..
- بقى لك كام سنة كده..
- داخل على عشرين سنة..

- وعایش من ایہ..
- علی التسول.. وباللیل زی مانت شایفة.. فیہ سنّات بتجلی بکیفها وفیہ سنّات باسحبهم من الشارع مرّة بالعافیة ومرّة بشوف الفجان والبخت وبعدين أمسك الواحدة غصب عنها واللیّ بتجرّب معايا بتیجی تانی..
- وأبوك فین دلوقت..
- مات بحسرتہ علیہ..
- لیک إخوات..
- بنتین وولد..
- مادوروش علیک..
- ماعرفش.. هربت منهم کلّهم.. المجتمع اللیّ بره کلّه خاين وأنا عایش حر.. وباننقم من کل النسوان وكلهم خاينین، وأنا باعمل زی المحامي اللیّ ّّ خانني في مراتي، وكل الستات زی مانت شایفة بیحبوا كده..
- طیب إنت لیه بتدعی الناس للصلاة ومابتصلیش..
- مش عارف كان نفسي أبقى عابد لرینا وماقدرتش.. أمشي من هنا قبل الفجر بساعة وأمشي شویة في شوارع محرم بك وإمبروزو أَدعو الناس للصلاة وبعدين أدخل الجامع أستحمّی وأجی هنا أنام للضهر..
- وبتاكل منین..

- من زوار القبور.. ناس كثير منهم عارفني بيدوني فلوس وأكل..
- إنت وحش.. إسمك إيه..
- اسمي بتاع زمان نسيته مش عايز أي حاجة تفكرني بأي حاجة لغاية ماخنتتي بنت الخاينة.. ممكن تسميني التايه..
- يعني إنت ابن ناس وتاه..
- على فكرة ممكن تكون فلوس الحرام هي اللي خلت ربنا مباركش فيه..
- إزاي..
- أبويا طول عمره بيشتغل في الجمرک وكان بيفتح مخه قوي مع المستوردين علشان يدخلوا بضائعهم بالتهريب أو بأقل رسوم جمرکية.. الفلوس الحرام في الآخر دمار..
- طيب ما انت بتتكلم كويس أهه..
- لكن أنا أدام الناس كلها عبيط ومجذوب ووسخ..
- لكن أنا شايفاك راجل ميه ميه..
- بتجامليني..
- أبداً مانا شايفاك وعرفتک.. اتعودت عليك لولاك كنت اتجننت من زمان..
- وجوزک فين..
- كأنه ميت..

- يعني إنت خاينة كمان زي الستات..
- لأ.. قليل قوي من الستات اللي بتعمل زيّ لكن تقدر تقول كده إن الراجل هوّ السبب في أي حاجة بتعملها الست.. ولمّا جرّبتك ماقدرتش أسلاك..
- وأخرتها..
- ياللاً بقى خأصني عايزة أمشي.. معاك فلوس ولاّ عايز..
- هات هوّ فيه حد يكره الفلوس..
- وأنا ماستغناش عنك..

- دعته نادية لتناول الشاي في مقهى النبي دانيال، ولمّا ذهب إليها حكّت له ما جرى بينها وبين سعاد، وأفهمته أنها مهدّت لها أمر زواجه من ابنة صاحب البيت فقال لها:
- أخبرتها صراحة.
 - لم أصرّح لها بأنك تزوجت فعلاً، ولكن قلت لها لو فرض وتزوج فلماذا تنورين ولا تقبلي الأمور بشكل واقعي..
 - كيف؟
 - إمّا أن تقبلي الزواج على ضرة أو تذهبي في طريقك..
 - وهل قبلت..
 - لدرجة أنني قلت لها ليتني مكانك وأكون زوجة ثانية لرجل مثل شريف..

- وماذا قالت..
- لم تقبل.. إنها تعيش في عالم ذاتي وهي أنانية بشكل رهيب وشرسة..
- لم أقترف خطأ لكنني فعلت خيراً بزواجي بهذه اليتيمة.. والله ينادية إنها فتاة طيبة وساذجة، وأعطتني نفسها بالفطرة وخدمتني من أول يوم سكنت في بيتهم، وكأنها أختي أو زوجتي.. كما يقولون خدمة العبد للسيد..
- ما فعلته صالح من جميع الوجوه.. وهي في كل الأحوال فتاة ذكية أغرقتك بمفاتها واستفردت بك في بيتها والذي شجعها على ذلك أبوها الطيب المسالم فكانت الأمور في بيتها مهياًة لأن تفرض نفسها عليك بشكل كامل وقوي..
- والظروف التي ساعدت أن تعيش معي بشكل خال وكامل أن زوجة أبيها كانت تخرج كل يوم، وتمكث بالليلي خارج البيت فلم يكن في البيت الذي أقطنه سواي وهي منفردين..
- زد على ذلك أن بنات مدرسة الأميرة فائزة ضليعات في فن الإغراء..
- لماذا هذه المدرسة بالذات..
- فتيات فاقات رسين كثيراً في الدبلوم وكل واحدة تنقل عن الأخرى كيف ترقص وتغني وكيف تتسكع في شوارع الهوى..
- لكن كوثر لم تلحق بعمل من هذه الأعمال..

- أنت أنقذتها وأغنيتها عن ذلك، وأدركت مصلحتها معك، كنت بالنسبة لها منقذ الوقت وساعدها على ذلك كافة الظروف في بيتها، التي هيأت لها ذلك..
- دخلنا في موضوع آخر..
- سوف أذهب إليها في بيتها هذه المرّة..
- وماذا أنت فاعلة..
- سأصارعها بأنك تزوجت..
- أمن الممكن أن تقوم بأي عمل من أعمال العنف ضدي..
- وماذا تفعل أي امرأة غير أن تصرخ وتلول وتلطم وبعد أن تشبع من الندب على حظها.. إمّا أن تقبل الزواج بك كزوجة ثانية وإمّا أن تذهب لحالها.. لكن هل أنت فعلاً جاد للزواج منها ويكون لك امرأة ثانية..
- ولماذا لا أقبل.. أقبل وأقبل.. على الأقل يغفر الله لي ما تقدّم من ذنوب اقتزقتها في أيام العشق معها..
- ليت كل الرجال مثلك يملكون من الصحة النفسية والبدنية ويفعلون مع المرأة ما تفعل أنت..
- ربما لأنني غريب فتنفرد بي النساء، وأن حياتي الاجتماعية خالية من الأب والأم فذلك يعطي مجالاً للتفرغ لهذه الأمور فلا يعارضني أحد..

- ليس هذا فقط.. أنت تزوجت من كوتر بدون أن تنفق قرشاً واحداً.. وهي قبلت ذلك بكل ممنونية.. وإذا تزوجت من سعاد فهي تقبلك بمجهودك وشخصك خاصة أنها جرّبتك..
- .. وضحكت نادية ضحكة عالية صاحبة مثل كل امرأة وأي امرأة يعجبها شيء يختمر في رأسها نحو الرجل.. ثم هدأت من ضحكتين أطلقتها وهزّت رأسها وهمست:
- نفسي أعرف يا شريف معنى.. راجل مالوش حل..
- أهي التي قالت لك إنّي راجل مالوش حل..
- نعم هي التي قالت في قعدة من قعدات الانسجام بيني وبينها..
- خلاص.. هذا حسن وشهادة عالية من سعاد صاحبة الجسد الصاخب والسيقان الرهيبة..
- هذه حقيقة.. سعاد هذه ليست امرأة عادية.. هي نوع من النساء يحتاج إلى رجل من نوع خاص، وفي كل الأحوال لا بد أن يكون هذا الرجل خارقاً.. ولقد كنت كذلك.. وهي التي أعلنت عنك ذلك لي..
- أليس من السذاجة أن تصرّح امرأة لأخرى بذلك عن رجل..
- إنها تثق في وائني لن أكون عليها خطراً..
- ولكن هناك كثيراً من النساء قد يعرفن الحب عنّا فيدخلن عشناً ويهدمنه..

- من دواعي الحيطة والخصوصية ألا تصرّح المرأة بفروسية زوجها معها..
- ليس كل النساء يفعلن ذلك..
- لكن الكثيرات منهن يشكين عجز أزواجهن..
- دائماً نخرج إلى موضوع آخر.. دعينا يا نادية ننتهي من موضوعنا مع سعاد..
- سوف أفعل.. لكن هذه مواضيع تنساب إليها أفكارنا ونفوسنا دون أن ندري لأن الحياة حولنا تدخل إلينا من كل جوانبها فلا نستطيع أن نفكر في موضوع واحد..
- قدّمت لي الكثير.. ولولاك يانادية لتعقدت معي كثير من الأمور، أنت يا نادية شيء جميل وطيب في الحياة تقدّمين الخير للآخرين رغم أنك بلا نصيب..
- أنا مؤمنة بأن النصيب سوف يأتي..
- اعطني يدك لأقبّلها..
- لا يا شريف.. أخاف ألا أقوى بعد ذلك معك..
- أقبّل يدك كناية عن تقديري وامتثاني.. لقد قبّلتها قبل ذلك..
- أشكرني نظرياً وأن يكون لي في قلبك مكانة طيبة.. دعنا من اللمس.. أنت رجل ليس له حل.. وصدّقني أنا في حاجة إلى قبّلتك ولكن دعني أحافظ قدر ما أمكن على الحدود.. أنت قبّلتها من قبل سهواً منّي..

- من أنت يا نادية..

- أنا نفسي لا أعرف من أنا..

.. الساعة تقترب من السادسة مساءً، ومن نافذة شقة أمها التي تطل على شارع كبير يطل غسق ينفذ قبل الغروب في الغرفة الكبيرة، التي رصت فيها أمها كراسي أنترية قديم متين من طراز كلاسيكي كلما مرّ به الزمن زادت قيمته وفخامته، أخذت تقرأ في كتاب دين لكنها لم تكن تفهم كثيرًا من الكلمات والجمل فألقت به في جنب الكنبه، التي تسترخي فوقها بقميص عار وهي تضطجع في دلال، وأكثرت من التثاؤب، وراحت تحلم أيام كان شريف يأتيها ويمارس معها العشق في نفس الغرفة ولكن فوق أرضيتها المعمولة من خشب الباركيه الأصفر الداكن، وتذكرت عندما قامت من جانبه في تلك الليلة الماجنة التي النقته فيها لأول مرّة، تذكرت عندما نهضت من بين أحضانها، وشاهدت نهوض القمر بين طيات السحاب العالية فوق أبنية المنشية المتصبة منذ عشرات السنين، وكيف أن هذا القمر الصغير ينيّر وجه المدينة بلا صخب وكيف أنه يُغمّر الأرض بكل هذا القدر من الضياء الحنون، واحتضنت بذراعها ظهر الكنبه العالى.. إن نادية تأخّرت عن مواعدها كما أبلغتني في الهاتف أنها سوف تأتي قبل السابعة، إنّها سوف تأتي لماذا قلقي هذا تأتي في أي وقت، إن ذكرياتي معه في الأيام الفائتة هي أعلى ما أحلم به الآن وغدًا حتى آخر عمري، لهذه الدرجة يكون الفرق بين الرجال.. بين من أمات حياتي وبين من أحياها، وحتى ولو تزوج.. ألا يكفيني أن يكون لي عاشقًا بعض الوقت أو يوم أو ليلة وأنتظره على شوق، فليذهب إلى كل نساء العالم ثم يأتيني ليلة واحدة ويذهب ثم يعود أليس في ذلك وحده حلم لذيد.. وأخذت تتقلّب على جنبها وعلى ظهرها والجسد الرائع يفترى فوق الكنبه بفتنة جماله، إنها مدينة يزينها الجمال الذي

صبغه الله في وجهه وجسد امرأة بلا رجل وقطع تأوهاتها وشطحات تياريحها شديدة الخيال طرُق على بابها فقامت متجهة إليه:

- مين نادية..

- افتحي ياسعاد..

.. فتحت لها وهي شبه عارية، رجعت نادية خطوة للخلف مندهشة من قميص نوم يكشف جسدها كله حتى أن نادية تمنّت لو كانت رجلاً يدخل إلى بيت عشيقته.. لكنّها امرأة ياخسارة.. واحتضنت كل منهما الأخرى في ريبة وكأن المرأتين سحاقيتان.. ودخلت نادية غرفتها الفسيحة وسعاد تتقدمها بترحاب وتهليل حتى هدأت أنفاسهما المتهدّجة والمضطربة، ولم تكن سعاد في حاجة أن تضع ساقاً فوق الأخرى فهي شبه امرأة تنزل البحر بمايوه كشريط زينّ علبة الحلوى، وسعدت نادية وهي تتمعن ذلك الجسد المذهل في روعته، وعاودها النزوع لبيتها كانت رجلاً أمسكت بكل أمنياتها وتماسكت قائلة كأنها ترجوها:

- يابت عيب قومي البسي أي حاجة..

- هوّ إنت راجل يانادية..

- أبداً بس كده حرام عليك.. دا إنت تجنني ياسعاد..

- شوف بقى الدنيا فقيرة إزّاي..

- فعلاً فقيرة ياما ستات زيّك عايشين كده وخلص ومش

لاقيين أي حياة ليهم..

- مافيش عدالة في الاقتصاد ومافيش عدالة في الحياة الاجتماعية..
- الحياة الاجتماعية يتحكم فيها الاقتصاد..
- إنت عارفة مشكلتنا في إيه إحنا المدرسين..
- مش عارفة..
- إن المدرس بار .. هو ابن بار للوطن..
- مش فاهمة..
- المعنى في إطلاق هذه الكلمة على المدرس إن المدرس صاحب مثل عليا وأخلاق عالية، وعليه في النهاية أن يعمل بهذا المرتب الضئيل والباقي على الله..
- وهل كل الفئات والمهن في المجتمع أبرار..
- الشرطة ليسوا أبرارًا وكذلك العسكر ومهن أخرى التي يريدونها أن تسيطر على أمور البلد.. إنهم يشبعونهم حياة من مال وسكن وأمتعة أخرى بلا حدود حتى يضمن الحاكم ولاءهم له فهم يحمونه، ويدافعون عنه ويعملون من أجل مصلحته على شرط استمرار الحاكم بمنحهم المزايا والعطايا التي لا تنتهي..
- هذا ما يحدث في كل المجتمعات المتخلفة ما يهم الحاكم أن يحكم بالعصا والبندفية فهناك ناس يتمتعون بثروة البلاد وآخرون أبرار مثلنا، في بلاد أوربا المدرسون من قمة الهرم الاجتماعي، فليس هناك مدرسون يجوبون الشوارع ليل

نهار يتسوّلون بين البيوت، وكأنهم شحاذون يعطون التلاميذ الدروس مقابل حسنات، فالمدرس في بلاد مثل بلادنا تحت أمر التلميذ فكيف يكون مدرسًا له كرامته.. من وضع هذا من أوصلنا إلى هذا الوضع.. وهكذا الحال نحن مدرسون أبرار، نحن في الحقيقة خلف أسوار الحياة.. وضع رهيب ومخزٍ وكيف ينقلب هذا الوضع المجتمعي إلى وضعه الصحيح.. هذا مستحيل مادام يحكمنا هؤلاء العسكر وأفراد هذه الشرطة، التي ترعب مجتمعًا بأكمله بهذه العصا القذرة، التي تأخذ الصالح بالباطل، وتعامل الناس جميعًا كأنهم لصوص وبلطجية..

- هذا حال مثل الدود الذي يعيش في داخل أمعائنا ونحن لا نراه..
- هذا معناه أننا نعيش وفي داخل كل منّا دودة..
- ليس هذا فقط.. إن فقرنا هو سبب حزننا..
- نحن لسنا فقراء معيشة وثروة.. نحن فقراء نظام فقراء دماغ، الفقير الحقيقي ليس فقير مال ولكن فقير عقل.. ويبدو أننا تعودنا على النهب واللصوصية..
- إذا أي عقل يدير بلادنا..
- هو عقل والسلام..
- يعني الدنيا عندنا ماشية بلاموطي..

- إنت فاكرة بياعين السمك في محطة ترام إمبروزو.. لما
يحبُّوا يعاكسوا الستات اللِّي واقفين على المحطة بيقولوا
إيه..
- لأ مش فاكرة..
- بيلعب.. بيلعب..
- إيه هوَّ اللِّي بيلعب..
- يعني السمك بيتلعبط..
- ودا معناه إيه..
- معناه حاجتين اتنين.. عايز يفت نظر الناس للسمك وأنه
صباح وطاقظة..
- والثاني..
- معنى جنسي..
- إِرَّاي..
- بيخَلِّي كل الناس اللِّي واقفة على المحطة رجَّالة وستات
تموت من الضحك لأنه بيمس عمق الفطرة في داخلهم
وهي الجوع والجنس..
- يانهار إسود دول شياطين..
- وعلشان كده صيادين السمك الكبار في بحري حتى الصبية
الصغيرين بيقولوا دائماً كلمة بلاموطي.. يعني هيَّ كده
باختصار ماشية بلاموطي.. وعلى فكرة.. وسكنت..

- على فكرة إيه..
- كُله بيلعب وكل فريق أو أي واحد بيطول حاجة بيلهفها في البلد دي.. حتى في البحر.. البحر زي البر.. الهف واجري.. كُله بيلهف إلا المدرسين..
- فوضى..
- طيب قوليلي إحنا طايلين إيه..
- إحنا كده مش لاقيين حاجة..
- تعرفي إحنا طايلين إيه.. الصبر..
- الصبر على البلاء..
- وبعدين.. آخرتها إيه..
- آخرتها زي أولتها..
- تعرفي أنا بروح الكنيسة ليه كل يوم أحد..
- ليه..
- علشان آخذ شوية صبر وأعيش مع ربنا شوية..
- يابختك.. أنا عمري مادخلت الجامع..
- ليه ادخلي علشان تقوى شوية..
- أصلي عمري ما تحجبت علشان أدخل الجامع..
- ادخلي.. مش لازم حجاب حُطِّي طرحة فوق راسك..
- مش عارفة العملية بالنسبة ليّ صعبة شوية..

- وليه ماتبتديش واحدة واحدة..
- لَمَّا أتجوزَ شريف..
- يعني إنت عايزة مسمار العقل الأول..
- أيوة..
- طيب ما لَمَّا تبتدي بمسمار الروح ربنا يفرج عليك بمسمار العقل..
- مش عارفة ينادية..
- على فكرة إحنا خرينا الدنيا فوق راسنا..
- إزاي..
- هو أنا جاية علشان نتكلم الكلام ده..
- أهو برضه من حالنا..
- فكريني أنا جاية ليه يا سعاد..
- علشان شريف.. اتجوز ولأ..
- طيب ممكن تقومي تلبسي جلابية حشمة يابت إنت..
- حاضر ينادية هاقوم..
- اعلمي قهوة وانت جاية..
- سادة..
- أيوة..
- يانهار إسود.. وضربت بكفي يديها على صدرها..

.. دخلت تحمل صينية القهوة، وترتدي جلباباً حشمة وبصوت لاهث
وهي تضع القهوة فوق المنضدة:

- إتجوّز ينادية..

- إتجوّز..

وصوتت وضربت وجهها بكفي يديها.. ياخربك ياسعاد.. ياخربك..
وراحت تهذب بقبضتيها على رأسها، وقامت إليها نادية تمسك بذراعيها
وتحتضنها بيديها حتى توقفها عن اللطم وهبّد رأسها.. ولمّا نجحت
نادية في ذلك أصابها الوجوم وراحت في نوبة شديدة من البكاء
والنحيب بصوت عال كأن عزيزاً مات لها.. ونادية تهديّ قائلة:

- مش معقول.. ماينفّش.. إنت كبيرة مش صغيرة.. مش

كده ياسعاد أرجوك.. اهدى.. خلتّي إيه للعيلة الصغيرة..

- كده ينادية ماخشتهش ليه..

- أحوشه إزّاي هوّ أنا شفت حاجة.. هوّ أنا عايشة معاه..

- طيب ماقلتليش ليه من ساعتها..

- أقول لك إيه.. دانا من يومها محتارة أقولك إيه..

- وإيه كمان ينادية قولي.. بقى له كام شهر..

- أكثر من أربع شهور..

- وإيه كمان..

- بكفاية..

- لأ قولي وإيه كمان..

- لَمَّا تَهْدَى شَوِيَّة..
- يَانِهَارِ إِسْوَد هُوَ فِيهِ كَمَان..
- لِأ.. مَا فِيش..
- لِأ فِيهِ..
- حَبَلْتُ مِنْهُ..
- آه.. آه.. حَبَلَهَا الْخَايِن.. وَحَبَلَهَا كَمَان..
- يَارَيْتِ تَعْقَلِي شَوِيَّة..

ولم تكمل نادية كلامها، وارتمت سعاد على الأرض في نوبة صراخ حادة ولطم بعدها لم تفق.. وراحت في غيبوبة على أثرها استدعت نادية طبيبة تعرفها لتتنقذ سعاد مما أصابها من إعياء شديد أخذها إلى حالة من اللاوعي والتهيه مما جعل نادية مذهولة مما جرى وندمت على ما قالت له لسعاد..

.. حتى تنتهي فترة آلامها من الحمل في الشهور الأولى من قيء ودوخة، كانت كوثر تفعل ما تستطيع لإسعاد شريف كما كانت في الأيام الأولى قبل الزواج وبعده، إلا أن شريف كان يتجنبها ولا يطلب منها شيئاً أكثر من احتمالها مثل أي امرأة في أيام الحمل الأولى، ولأشد ما تكون الفتاة في حاجة إلى أمها تحنو عليها وتقضي لها حاجتها وتقف إلى جوارها في أيام الضعف هذه وفي يوم قالت كوثر لشريف:

- اوعى تبص لحد ثاني يا شريف..
- إزاي يا كوثر ليه بتقولي كده..
- علشان الحمل تاغبني شوية..
- هو أنا عايزك بس عشان الحاجة دي..
- مش عارفة.. خايفة أكون مقصرة..
- المفروض أساعدك في حاجات البيت بس.. وسكت..
- بس إيه.. أنا عايزاك تخلي بالك من شغلك مش أكثر من كده وماتعيش هم في أي حاجة في البيت..
- أنا على فكرة مش هاقدر أكمل في التعليم..
- ليه.. البنات بيعاكسوك..
- لأ مش كده.. التدريس مش في دمي والمدرسين عمالة تاكل في بعضها.. أنا عايز أبقى محاسب..

- زي ما أنت عايز بس إزّاي..
- أقدم في المسابقات وأسعى في شركات القطاع العام وأشوف معرفة..
- خلاص شوف مصلحتك..
- بكفاية قوي السنة دي وأديني استفدت في فترة الجيش من تعييني في التربية والتعليم.. شوف من سبعين لغاية خمسة وسبعين كفاية قوي خمس سنين.. دي وزارة سايبية الناس فيها بياكلوا بعض..
- خلاص دي حاجة خاصة بيك هادعيلك في أي مكان تروحه..

نظر إليها برهة ممتناً لبساطتها وإخلاصها له، لكنه لم يقل لها أن أحد أسباب تطليق مدرسة إمبروزو كان لأسباب مع الطالبة نعمة والتي تعمل راقصة في المساء، ومع الطالبة منيرة التي كانت مخطوبة لابن عمها، وحدث معها ما حدث منه وثالثة مع الطالبة صباح اليتيمة والتي قامت بتربيتها جدتها فلما أصبحت فتاة يانعة ماذا فعل بها عمها بعد موت جدتها.

ثلاث حكايات أزعجته عندما اندمج في جو المدرسة التعليمي والاجتماعي، وحينما اضطر غصباً عنه أن يعطي بعض الدروس في البنرس للصف الثالث والمحاسبة للصف الأول، ولولا علاقته بسعاد لتناولته بعض الطالبات الغاويات واللائني يتسابقن في مصاحبة المدرسين العزّاب، إلا أنه رغم ذلك الذي يمنعه إلا أنه لم ينح من علاقات جاءت إليه ولم يذهب إليها، والذي كان يجعله رشيداً في

الإمساك بنفسه أن كوثر قبل زواجه منها كانت تعطي له نفسها بلا حدود، وكأنها كانت تقدّم له طبقًا من التفاح يقضم منه كيف يشاء، وأن علاقته بسعاد وذهابه إلى شقتها ومعاشرتها معاشرة الأزواج كان في نفسه مكنتياً بما أنعمت عليه ظروفه من امرأتين.. امرأة في بيته وامرأة في المنشية تعطيه جسدها كله، وكان على الأجناب ثلاث حكايات مع ثلاث بنات وكل فتاة منهن لا تعرف ماذا تريد الأخرى منه، وكانت واحدة بعد الأخرى جاءتة صدفة وبدون ترتيب، ولم يكن بعد حياته مع إمرأتين توافقاً لأن يعرف أية فتاة من المدرسة، إلا أن صباح اليتيمة كانت تشعر تجاهه بشعور لا يفوقه شعور آخر من الفتيات.. وتقدّمت نحوه في يوم وهو يجلس في حديقة المدرسة وحده قائلة في خجل:

- أنا عايزاك يا أستاذ..
- عايزة إيه.. عايزة درس..
- عايزة درس وعايزاك..
- درس في إيه وعايزاني إزاي..
- بزنس.. وعايزة أشوفك..
- تشوفيني.. ما إنت شايفاني أهه..
- عايزاك برة..
- برة فين..
- مش إنت ساكن لوحديك..
- أبداً أنا ساكن مع أسرة..

- طيب يا أستاذ شوف مكان..
- أشوفك في حديقة المنتزة..
- منتزة إيه يا أستاذ..
- أنا عايزاك لوحديك في أي مكان تاخديني فيه أكون فيه معاك إنت بس..
- ماعنديش شقة أو سكن لوحدي علشان آخذك فيه..
- أنا عندي..
- فين..
- شقة جدتي..
- طيب قوليلي عايزة إيه..
- يا أستاذ من يوم ما جيت المدرسة وأنا باقف قصادك علشان تاخذ بالك منِّي ولا إنت هنا..
- فعلاً أنا شفنتك كذا مرّة واقفة منتحة قصادي..
- طيب أديك قلت..
- بس أنا كده أخاف آجي معاك شقة جدتك..
- هوّ مين الليّ يخاف.. مش عايزة منك حاجة.. هاحكيلك حكايتي بس.. على فكرة جدتي الليّ مرياني ماتت من سنة..
- مش معنى أنا تحكيلي ما المدرسين كثير..

- القلب وما يريد بقى.. وهامت بعينها في وجهه ثم همست:
- مش أي حد أحكيه حكايتي..
- مش عارف أقول لك إيه..
- أيوه يا أستاذ.. زهقتي ماتقولش حاجة.. قولي بقى هاتيحي معايا إمتى..
- بكرة الخميس..
- أيوه يا أستاذ بعد ما طلعت روعي..
- خلاص بكرة..
- جدتي في الشاطبي.. أقصد شقتها في الشاطبي.. هاديك العنوان..
- يانهار أبيض دا إنت مرتبة كل شيء..
- أنا جاهزة من زمان بس إنت مش واخذ بالك.. خد العنوان..
- وناولت صباح مدرستها العنوان ورقم التليفون في ورقة كانت جاهزة في جيبها منذ شهر..
- ..وقالت له وهي تنصرف:
- بالكثير الساعة اتنين تكون عندي..
- يعني دا أمر..
- أبدأ يا أستاذ أنا اللي تحت أمرك.. هامشي بقى قبل ما حد يلاحظ حاجة..

- طيب روحي يا صباح..

- باي يا أستاذ..

كانت تهرب من حياتها بالسير في شوارع محطة الرمل تتفرّج على فاترينات المحلات، وعاكسها كثير من الشباب ووقفت لها السيارات، ولم يكن هذا هدف سيرها في شوارع كل الناس تتلذذ بالسير فيها.. ولكنها كانت تهرب من ما حدث لها مع عمها المتزوج وله أولاد وهو شاب في عمر الخامسة والثلاثين.. فعندما ماتت الجدة تركت لها بيتها وحيدة تعيش فيه، في ليال تنام معها ابنة خالتها وأخرى تنام معها ابنة عمها وثالثة تنام معها صديقة لها، وكثيراً ما تنام وحدها، لكنه جاء يوم ذهب عمها إليها يسأل عنها فاستقبلته بقبلاتها، إنه مثل أبيها، وكان هذا العم يعمل سائقاً على عربته البيجو بين الإسكندرية ومطروح، وكانت أخلاقه أسوأ من أصحاب الغرز في تدخين الحشيش مع زملائه من ليلة لأخرى، ولم يكن يصلي أو يصوم ولم يدخل مسجداً في حياته، وكان دائم الهروب من الجيش حتى أنه قضى معظم خدمته في سجون العسكرية، وخرج من خدمته الإلزامية بعد سبع سنوات بدلاً من خروجه العادي بعد ثلاث سنوات، كان ولدًا فاقداً ومتشرداً وسكيراً، وكان سيئ السلوك مع زوجته في البيت وأمام أبنائه وكثيراً ما يلجأ إلى سب الدين في بيته ومع زملائه، كان جملة من الأولاد السفلة والمنحطين بين زملائه أو مع جيرانه أو في بيته، ولكنه كان عمها.. فقامت بواجب الضيافة نحوه إلى أن حلّ المساء ولم يذهب فقالت له صباح:

- مش هاتروّح يا عمي..

- لأ أصلي زعلان مع مراتي.. هامشي الصبح..

- براحتك يا عمو ..

- فيه سرير تان .. سرير جدتي مافيش مشكلة ..

- في أي حطة أنام ..

.. قبل منتصف الليل قام إلى المطبخ وعمل في الخلط عصير ليمون ووضع لها المخدر في العصير وتناولها معاً العصير .. وشربت صباح عصيرها بالمخدر ولم تكن تتوقع أو تفكر لحظة أن عمها يفعل ذلك ولم يطرأ على بالها شيء من ذلك .. إنه عمها وتأمناه على كل شيء ..

.. في الهزيع الأخير من الليل دخل عليها غرفتها وهي لا تدري بشيء بعد أن فعل المخدر برأسها وجسدها ما فعل وذهبت في غيبوبة وفي دنيا غير الدنيا .. دخل غرفتها بعد أن شرب أكثر من خمس سجائر معبأة بالحشيش .. وجد صباح في سريرها عارية إلا من قميص نومها .. دخل عليها كالوحش الكاسر وراح يقلبها يمناً ويسرة وعلى ظهرها ولم تفق إنها مثل طينة يقلبها في فراشها كما يشاء وهي لا تدري بشيء؛ حيث فعل المخدر بها مفعوله كاملاً .. جرّدها من ملابسها ودخل على عرض أخيه كالبهيم الكاسر السافل المنحط .. فعل بها ما أراد .. كثيراً فعل بها حتى أنها فتحت عينيها وشعرت بوجع جسدها وصرخت وتأوّهت دون وعي .. لم تكن تستطيع أن تقاوم أو تفعل شيئاً .. هي في حالة دوار وتحت تأثير المخدر فهي مشلولة الفكر والجسد .. وتركت له جسدها كأن رجلاً يعاشر ميتة .. بعد الفجر بقليل غادر عمها الكلب عوض مفتاح الدرش البيت وتركها في دمها إلى أن فاقت لنفسها قليلاً بعد الظهر لتجد نفسها غرقانة في دم شرفها، وكأنها طير تم ذبحه فوق الفراش ..

.. حدث هذا يا أستاذ وبعد أن فُقت من الفاجعة أدركت ما حدث، ولم أبلِّغ أحدًا من أهلي ولو كنت أملك شيئًا من دوافع الانتقام لذهبت إلى بيته وقتلته أمام زوجته أو على الأقل حكيت لأهلي جميعًا ما حدث من هذا العم.. أكيد يا أستاذ هو ابن حرام.. اكتفيت بأن تركت أمري لله وحسبنت عليه ليل نهار حتى أنه في يوم جاءني خبر بانقلاب سيارته في الطريق ودخوله المستشفى بعد ما حدث بشهور قليلة وما زال حتى اليوم عاجزًا في بيته يمشي فوق عربة العاجزين بساقين مبتورتين من أطراف الركبة، انتقم الله منه وأدَّله ويكفي أنه سوف يعيش عاجزًا ومشلولاً يعدُّب طيلة حياته.. كان هذا يا أستاذ انتقام الله.. فقال لها بحزن شديد:

- فاجعة.. وتركك بمصيبتك..
- لهذا أتيتُ بك..
- ياريت أقدر أرجعك تان بنت..
- اسمع يا أستاذ أنا باكره الرجالة كره العمى..
- ما أنا راجل منهم..
- أكيد مش كلُّهم..
- والعمل إيه يا صباح..
- أبدًا ولا حاجة مش هاتقدر تعمل لي حاجة..
- طيب إيه اللي أقدر أعمله..
- مش عايزة حاجة منك ولكن أنا استرّحت لِمَا حكيتك..
- وما فيش حد يعرف حكايته..

- ما فيش غير أنت يا أستاذ..
- كان ممكن تقوليلي في أي مكان ماكانش لازم البيت، أنا فكرت أنك مجرمة زي البنات إيّاها..
- ياريت كنت زيهم وماحصليش كده..
- على العموم سرك في بير..
- يا أستاذ علشان بحبك قلت لك سرّي..
- حب من القلب..
- على فكرة جسدي مات.. لدرجة أنني باكره أي حد يمسنّي..
- بس أكيد ليك قلب..
- أيوه ليّ قلب كبير قوي وبحب واحد بس يا أستاذ..
- مين هوّ يا صباح..
- أنت يا أستاذ..
- والعمل يا صباح..
- أبدًا أنا عايزاك تبقى حنين كل ما عوزك ألافيك أحكي معاك بس..
- إذا كان كده دا موضوع مش صعب عليّ..
- ممكن أمشي..
- ممكن.. بس هاتجيلي ثاني ومقدّر ظروفّي..
- أنت على راسي يا صباح..

- يعني مش هاتبعد عنِّي بعد ما عرفت فضيحتي..
 - إزَّاي أعمل كده.. دانت يتيمة ولازم أقف جنبك.. مالكيش
ذنب في الليِّ حصل..
 - ربَّنَا يخليِّك يا أستاذ..
- وتشنجَّت بالبكاء ونهنت وانسابت دموعها بغزارة وهي تودِّعه عند
الباب وشدَّ على يدها وانصرف حزينا..

.. المجتمع هو الشيء الذي أمقته الآن .. إنه يأخذ منّا كل شيء، ولا يمنحنا الفرصة للاستعداد لمواجهة الصعاب بشكل صحيح ودون صدام، تعلّمت قبل أن يطلب الناس شيئاً أكون قد فعلته من أجلهم، فكم عدد الناس أصحاب المشاعر الرقيقة الذي يقدّمون لمجتمعهم، وبكل بساطة راحت كوثر تبكي وقالت لشريف بعد أن شبتت من البكاء:

- وابه ذنبها ..
- ولا حاجة .. عم ابن حرام .. طيب وهاتعمل إيه لما تيجي تتجوز المسكينة ..
- هاتروح للطبيب المشهور بعملية الترقيع ..
- البنت دي مش هاتعمل كده ..
- هيّ وحظها بقي ..
- إنت الوحيد الليّ قالت لك ..
- بتقول كده ..
- بتثق فيك ..
- بتقول ..
- ألاّ يا شريف فاكر لماّ حبيتك وبقيت أجلك الأوضة أدّلك نفسي ..
- فاكر ..

- مش كان ممكن تضيّعني..
- قوي..
- لكن حافظت عليك لغاية ماتجوزتك..
- كان ممكن تضيّعني..
- كان ممكن..
- كُنت هاتسييني..
- ماعرفشي إيه اللي كان هايحصل..
- إذا الظروف خدمتني وأديت نفسي لواحد وقدّر إخلاصي
ليه وكان ممكن ما تتجوزنيش زي كثير من الرجالة اللي
بتقابل إخلاص البنات بالقسوة والجمود..
- ممكن.. إنت عايزة توصلي لإيه..
- عايزة أوصل.. ليه مانحلّس مشكلة البنت دي..
- دي مشكلة كبيرة قوي.. إزاي..
- ماتشوف واحد من زمايلك بتوع الأرياف يتجوزها..
- اشمعنى بتوع الأرياف.
- يمكن طيبين شوية ويكُونوا تحت السيطرة ومش متمردين
زي ولاد المدينة..
- يعني واحد نخدعه..

- ما قصدش كده.. ندور على واحد راجل يعرف حقيقة البنت دي ويتجوزها..
- ما فيش حد يعمل كده..
- ألا لو أختك تعمل إيه..
- دي تبقى مصيبة..
- هو الشرع عندنا قال إيه بالنسبة لجواز الرأجل..
- مش فاهم..
- مش الراجل ممكن وحسب الظروف يتجوز أربعة..
- إذا كانت الظروف بهدف الإصلاح والخير والستر يتجوز طالما فيه حكمة.. النبي إدانا مثل.. بس الناس مش قوية زي النبي.. أقصد مش قوية في روحها، والنبي كان صاحب رسالة لكن إحنا الناس بنعك، الناس كلها بتكلم بالدين لكن فعل الدين ما فيش والدين مش كلام..
- ياريتني كنت راجل أتجوز البنت دي..
- معقولة دا إنت روحك عالية قوي يا كوثر..
- أبداً أنا باتكلم جد..
- خلاص أشوف واحد ونساعدها..
- شوف ما فيش حد لو عرف الحقيقة هايرضى يتجوزها في الزمن الأغبر اللي إحنا عايشينه ده..

- مش لازم نقول الحقيقة نعالج موضوع البنت الأول عند الطيب ..
- .. وبعدين ..
- .. نجوزها ..
- مش عايزين نخدع حد ..
- طيب نعمل إيه ..
- أقولك يا شريف ..
- قولي ..
- إيجوزها إنت ..
- يانهار إسود بتتكلمِّي جد ..
- والله باتكلمَّ جد ..
- وترضى بزوجة ثانية ..
- .. وليله لأ ..
- إنت مجنونة ياكوثر ..
- الستات هي اللي مجنونة ولكن أنا بالشكل ده وموافقتي أكون عين العقل ..
- إنت يا كوثر بنختبريني وبعدين تقلمي على ..
- والله أبدًا باتكلم جد .. وحياة اللي في بطني .. تعرف لو عملت كده يا شريف ربنا هايبارك في اللي في بطني ..

- فرضاً إنك بتتكلَّمِي جد هاترضى تعيش معاك زوجة تانية
في بيتك..
- ما هي محلولة يا شريف مش بنقول هيَّ عايشة لوحدها في
بيت جدتها..
- أيوه..
- إتجوزها هناك في بيتها..
- أنا مش مصدِّق الليَّ بتقوليه ده..
- على الأقل استريح منك يا شريف..
- هوَّ أنا عبء عليك يا كوثر..
- بصراحة ساعات باتعب منك دا إنت راجل جبَّار.. روح
يا أخي لواحدة تانية تشيل عني شوية وتاخذ رزقها..
- يانهار إسود عليك يا كوثر..
- وليه إسود دا أبيض وأبيض.. دا أنت المفروض تتجوز
أربعة..
- إنت عارفة المفاجأة في إيه..
- في إيه..
- إنك بتطبِّقى شرع الله وإنت في منتهى الرضا.. وييجي ده
من بنت ما خلصتتش الدبلوم وهي أصلاً من مدرسة الأميرة
فايزة المشهورة بفجر البنات..

- شوف كل ده إشاعات وكلام نظري.. هي المشكلة البنات من قلة بتشطح هنا وهنا.. اسمع مافيش رجالة بحق وحقيقي في البلد.. والرجالة في بلدنا بتخدع البنات وتتهرج ولو كل واحد منهم عارف دينه بجد ماكانش دا يحصل..
- بتقولي كلام كبير قوي..
- ولا كبير ولا حاجة من بكرة نروح سوا نזור صباح..
- بجد..
- أنا كلامي راجل يا شريف..

.. هل جنئت إلى المدينة لأتزوج من كل امرأة في طريقي، وتعجبت كيف لرجل مثلي يتزوج من امرأة دون أن يدفع فيها قرشاً واحداً، والرجال مثلي لا يستطيعون الزواج دون أن يدفعوا الآلاف في بنات الناس كي يتزوجوهم، وقلت هذا الرزق جاءني؛ لأنني أعيش وفق تحليق خيالي أجده واقعاً في مجتمع يملأ نفسه بصعاب دون أن يكون هناك أية صعاب.. فأنا أشرف على الوجود الذي صنعته من ظروف وتقدير ظروف الآخرين ومعالجتي لها بشكل أخلاقي يلتصق بالواقع الذي يسهل تذليله بحسن التصرف لكي ندع واقعاً يعالج واقعاً ملاصقاً له، نحن الذين نوجد الهاوية من حُمقنا وضلالنا الذي يعيش فيه أكثر من نصف مجتمع، فهل أصهر الحديد من نفس النار التي تكوى أناساً صنعوا لأنفسهم ظلاماً ضيق نفوسهم المريضة..

.. في اليوم التالي لمعالجة كوثر لظروف صباح طالبة الدبلوم في مدرسة إمبروزو، كنت مذهولاً وكأن الله قد حبانني بسقوط نجم من

بطن السحاب ليلقيني في عالم آخر جديد فتحه ربِّي لي، ومن يكون إنسانًا يقدَّر ظروف الناس والنساء فهو بني آدم في طوره الأولى بالحياة، وإن لم يفعل الرجل مثل ما أفعل فأبي إنسانية اكتسبها إنه والحيوان شيء واحد، إن الناس في مدينتي يدخلون أنفسهم في طرق صعبة، وكأنهم يقومون بشيء عظيم، وكيف يكون الإنسان إنسانا وهو ثقيل على نفسه وعلى الآخرين، إن من لا يحمل مع الناس همومهم ومشاكلهم فكيف يكون في مجتمع متحضر أول ما فيه الإنسانية التي يقدِّمها الفرد لأخيه الإنسان، إن مجتمعًا يحمل الناس فيه عوار بعضهم البعض لهو أمر مؤسف، وإذا دعنا الخلق للخالق ومن يقدر على عمل شيء طيب يقدِّمه لكان ذلك أفضل وأنقى وأرقى بدلاً من مراقبة الناس والكلام المشين عنهم..

.. إن ما حدث لصباح قد يحدث لأختي وأختك ونحن مسئولون عن تقديم الحلول الفعلية للانتهاء من هذه المسائل المؤسفة، وأن نقوم بحلِّها في صمت وستر، وكأن شيئاً لم يحدث، وإن رجلاً مثل عمِّها يجب أن يقتل في ميدان عام، ويعرف الناس أنه اعتدى على محارمه فيبصق الناس في وجهه قبل أن يشنق، ولأن الله يعرف أن الناس ضعفاء ولا يفعلون شيئاً من أجل الحق، فإن الله يمهل ولا يهمل وانتقم الله منه في طريقه وأدَّله ما بقي من أيام في عمره..

وكان هذا محور الحديث بين شريف وزوجته كوثر، وبعده أدرك شريف أن كوثر بلغت من الإنسانية الكثير، وأن من مدرسة الأميرة فايضة التجارية بنات فاضلات، وفي صباح أول جمعة بعد ما حدث هاتفت كوثر صباح في الهاتف بحضور شريف الذي كان يجلس بحوارها سعيداً:

- آلو..
- آلو..
- صباح..
- أيوه صباح مين إنت..
- أنا كوثر مرات شريف..
- شريف مين..
- شريف مدرس إمبروزو..
- يالهوي هو الأستاذ شريف متجوز..
- أيوه أنا مراته..
- ماحدش يعرف عنه كده.. أنا نفسي باعرف أنه عازب
وساكن لوحده..
- أهو دا اللي حصل يا صباح.. المهم أنا عايزاك في
موضوع مهم..
- تحت أمرك اتفضلني..
- مش هاينفع في التليفون هاجيلك البيت..
- أهلاً اتفضلني في أي وقت..
- هاجيلك النهارده أنا وشريف بعد صلاة الجمعة..
- أهلاً.. أهلاً.. شريف.. الأستاذ شريف عارف السكن..
- هانجيلك بعد الصلاة على طول..

- مستتيك يامدام..

- باي..

- باي..

.. وفي هذه الليلة لم تكتحل عيناها بالنوم، لكنّها ذاقت منه لماماً بعد مطلع الفجر، ماذا في الأمر إنّها لم تحكّ لأحد حدثها الأليم إلاّ لشريف.. هل أخبر زوجته بالكسوف منها، وفي ضحى الجمعة قامت صباح من فراشها وصلتّ الصبح، وفتحت نافذة الصالة التي تطل على ترام الرمل، وسرّحت نظراتها عبر آفاق الفراغ، الذي يتشابك بأسطح البناءات العالية حول منزلها، كان شهر أغسطس قد انقضى وبدا سبتمبر بجو حار ذكّر الجميع بطقس الشهر الفائت شديد الزمهرير، وقالت في نفسها وماذا يخجلني إن حكيت كل التفاصيل لزوجتي شريف كما حكيت له، فأنا لست فاعلة ولا مذنبه في شيء لكنني ضحية مجرم حقير يقال إنه شقيق أبي، فهل كانت جدتي قد حملت فيه من رجل آخر غير جدي.. لا يمكن أن يكون إلاّ ابن حرام، لم يكن لذاتي وجود في داخلي وكل ما أعنيه أن وجع مجتمع بأسره يجرنني إلى لا شيء، من ينفذني من هذا الدمار، الذي أصاب عرضي وشرفي.. ليس لي غد وأصبحت في غابات المجهول التي يغزوها طغاة المجتمع من المارقين كل يوم، إنني سوف أعيش بقية عمري في هذا المجتمع وحيدة ذليلة، إن المجتمع حولي سوف يدعو إلى تمزيقي والإعراض عني عندما يعلمون بفضيحتي، وأنني لا أستطيع أن أفصح بالحقيقة لهذا المجتمع السكندري؛ لأنهم عن أولهم وآخرهم سوف يدينونني؛ لأنني نمت عارية في غرفتي وشربت العصير من يده الآثمة، هذا المجتمع لا يغفر حتى وإن عرف الحقيقة فأين أذهب..

.. أخذت كوثر زوجها من يده وركبا تاكسيا إلى عنوان صباح بالشاطبي، إستقبلتهما في خجل لكنها كانت متوسمة خيراً في شريف وزوجته، جلسا بالصالة وقدمت لهما شايًا وجلست أمامها بجلباب البيت مرحبة بهما، وكانت كوثر تنتظر إليها في شفقة، ولكنها من لحظة لأخرى تقول:

- إنت بظلة يا صباح.. أد كده إنت استحملت اللي حصل.. وتكرّر قولها حتى قالت لها صباح..
- شريف.. أقصد الأستاذ شريف قالك..
- قال لي ولا يهّمك.. إنت عارفة اللي ماتعرفهش لولا شريف كنت هاضيع، زي أي واحدة بتضيع في البلد دي..
- إزاي يامدام كوثر.. هو إنت حصل إيه بعيد الشر..
- أمي ماتت.. شوف الواحدة لما تموت أمها بتبقى يتيمة، وأبويا غلبان لا يعرف الطور ولا الطحين.. هو في الأول والأخر صبي ميكانيكي في شركة النصر بعد كده كبر شوية شوية لكن هو في الآخر اسطى ميكانيكي..
- طيب يامدام الموضوع لغاية دلوقتٍ عادي.. فين الضياع عندك..
- ضياعي من أول ما أبويا اتجوز واحدة فاجرة من غيط العنب..
- بعد أمك..
- أيوه.. وماقدرشي عليها ومشيت بكيفها وفي الآخر مؤتت أبويا..

- قتلته..
- يانهار اسود.. إرّاي..
- بعدين هاحكيلك التفاصيل يا صباح..
- وعشت إرّاي يامدام من غير أب مش بكفاية عليك موت أمّك..
- إنت عارفة.. برضه باختصار.. لولا واحد أنفذني من دا كله..
- إرّاي..
- شريف.. قبل مرات أبوبا الليّ ذلّته وبهدلته وقبل ما يموت أبويا.. قبل كل المصايب ربّنا بعت لي شريف.. يعني مع كل المصايب الليّ حلّت بي ربّنا بعت شريف سكن في بيتنا.. ولولا شريف كانت مأساتي هاتبقى أكثر منك..
- إنت بتصبريني يامدام..
- أبداً والله.. على فكرة أنا مش جاية النهارده علشان تحكي لي من تاني.. أنا جاية ومعايا الحل لأن أي واحدة في البلد معرّضة تمرّ بنفس المأساة أو زيّها..
- مش فاهمة..
- أنا عايزة أجوزك..
- ومين يرضى يتجوز واحدة ماتت زيّ.. هاتجوز إرّاي..
- تتجوزي واحد عارف حكايتك..
- مافيش راجل يعرف حكايتي يتجوزني..

- لأ.. لأ ماتظلميش نفسك.. سيبي الموضوع على..
- على فكرة إنت بتواسيني بكلام طيب..
- شوفى يا صباح.. علشان المفاجأة ماتبقاش مني أنا.. أنا هاقوم أدخل الحمام وشريف هيقولك مين هابتجوزك يا صباح..
- إيه.. إنت بتقولي إيه..
- اوعي تفتكري إني باجبي عليك.. دا إنت زي الفل والليّ ليه نصيب معاك هايبقى أسعد إنسان في الدنيا..
- مابقتش فاهمة حاجة..
- طيب صليّ على النبي واستغفري الله.. أنا هاقوم وشريف هيقولك كل حاجة..
- سبحان الله.. إنتو مخبيين ليّ إيه..
- هاقوم.. شريف أهه.. اسمعي منه..
- خلاص يامدام.. هاسمعه.. ياترى فيه إيه..
- خير يا صباح..

.. في رقة بالغة أمسك شريف يد صباح وقبلها فاندشت قائلة
بصوت خفيض:

- فيه إيه..
- ولا حاجة.. تتجوزيني..
- يانهار مطيّن يا أستاذ.. تتجوز إزاي ومراتك..
- مالكيش دعوة مراتي موافقة..
- معقولة الليّ بيحصل ده.. تتجوز واحدة عارف حقيقتها
إنّها..
- إنها إيه.. جرى إيه في الدنيا كل واحدة في الدنيا دي
معرّضة لأيّ مصيبة..
- وأنا مصيبيتي كبيرة قوي..
- لأ.. مالكيش ذنب فيها.. المجتمع لازم ياخذ حقه..
- المجتمع جبان وظالم.. بكفاية علىّ إن ربنا خد حقي وانتقم
منه..
- هو ده الليّ بنقوله ونحمد ربنا إن انتقام ربنا نزل.. وسبيك
من المجتمع.. المجتمع بعيد عن الناس.. ما هو المجتمع
هوّ الناس والناس هيّ الليّ بعدت المجتمع وخزّبت ما
فيه..
- بس أنا مش قادرة أتكلم على نفسي.. إزاي هانتجوزني..

- ياريت بلاش الكلام اللي مالوش لازمة.. هاتيحي كوثر مراتي وتشوفك عايزة إيه من حاجات علشان تتجهزي وتبقى عروسة أد الدنيا وهانعمل فرح..
- ممكن أعيط يا أستاذ..
- عيطي زي ما أنت عايزه.. بس هاتعيطي على إيه ياصباح..
- هاعيط فرحانة من أمر ربنا، اللي بيحصل دا مش طبيعي..
- الحمد لله اللي بيحصل ده هو دور المجتمع اللي باقي منه لسه ناس كويسين.. وراحت تبكي وكل من شريف وزوجته يهدئانها في حنان بالغ..

.. في الوقت الذي تعبت فيه شوارع إمبروزو والشاطبي وشوارع الحي التجاري ما بين المنشية ومحطة الرمل من مشاوير شريف وكوثر وصباح في شراء حاجيات العروسة، انتقلت صباح من نار الغادر الذي اعتدى عليها بقسوة إلى أسرة أخرى مكونة من رجل وزوجته بلغا كثيراً من الإنسانية التي افتقدها المجتمع منذ عقود، وكان ذلك الذي حدث فلتة من فلتات الأقدار التي قدرها الله لهذه الفتاة اليتيمة، وكان جميلاً أن صباح كانت تمتلك كل المال اللازم لتجهيزها، وفي أيام قليلة عقد مأذون الشاطبي الزواج، ودخل شريف بها في بيت جدتها وتركته زوجته أسبوعاً ليستمتع بأيام عسل صاف مع صباح بنت مدرسة إمبروزو التجارية، وكانت كوثر لصباح نعم الأخت والأم،

وعملت لها ما لا يتخيلُه إنسان أن تفعل ضرةً لضررتها ما فعلته كوثر لصباح.. وغمر الثلاثة سعادة تمتعوا بها بعيداً عن مجتمع يلهو ولا يدرى بشيء من حوله من أعمال الإنسانية، التي يقوم بها قلّة من البشر.. إلا أن كوثر بعد أسبوع حضرت إلى العروسين تأخذ شريف لشعورها بوحشة مفاجئة لغيابه عنها وأمسكت في خناقه أمام صباح مهزّرة:

- جرى إيه يا شريف إنت نسييتني ولا إيه.. لأ كده هاغير بقى
ماقدرشي على كده..

- فضحكوا على كلامها ولحقتها صباح قائلة:

- وأنا مراضاش يامدام كوثر بالظلم ده.. كفاية علىّ الأسبوع
ده يا أستاذ..

- موافقة يا كوثر..

- العدل هيّ أسبوع وأنا أسبوع..

- كتّر خيرك يامدام.. اعلمي الليّ يرّحك جميلك علىّ
مغرّ قني.. إنت الرّيسة وإنت الحكم.. والليّ تحكمي بيه
أمر علىّ.. إنت ليك فضل علىّ مايتنسيش..

.. واحتضنتها كوثر وراحت تقبلّها ثم التفتت نحو شريف قائلة:

- قوم.. هوّ أنا بقيت قديمة ولا إيه.. هيّ صباح إدتك أحسن
مني.. دا إنت فظيع قوم يا شريف..

وراحت صباح تضحك وهي تجر شريف من يده نحو الباب:

- قوم بقى روح مع ست الكل.. دا هيّ الأصل..

- مرسى ياصباح كلُّك ذوق..
- دا من قلبي يا حبيبي..
- طيب سلام دلوقتي.. بعد أسبوع هايجيك الراجل ده..
- لمّا تزهقي منه ياروحي ابعته.. دا كله من خيرك..
- وكانت كوثر تمسك بكف شريف وهما ينزلان الدرج وكأَنَّها تخاف أن يرجع منها إلى صباح وتقول:
- إنت نسيتي ولأ.. هيَّ صباح أحسن منِّي يا شريف.. قوللي لقيت فيها إيه أحسن.. قول اتكلم..
- مافيش أحسن منك يا كوثر..
- صحيح يا شريف..
- اهدى يا كوثر مالك عصبية كده..
- هو أنا عاد فيا عقل..
- علشان خاطري.. اهدى علشان اللي في بطنك..
- إنت راجل فظيع بتلبد جنب النسوان..
- وراح شريف يضحك بأعلى صوته بعدها ركبا تاكسيًا إلى بيتها في إمبروزو..

وكان المجذوب قد بدا عليه القلق بعد شهور من عدم مجيء فايضة إليه، هذه بنت البلد التي لها طعم الجواقة النباتي التي تأتيه من وقت لآخر ولا تغيب.. وهي التي تأتي إليه لنيل مزاجها وإشباع رغبتها

الجامعة في الجنس، فهي عندما تجوع تأتي إليه مسرعة وبرغبة
مجنونة لتشبع منه، أكثر من المرور في شارعها، ويصل إلى بيتها
ويقف تحت شباكها مُناديًا بأعلى صوته:

- قومي للصلاة فينك يا عبد المتعال أنا جلال بن إبراهيم..

- قوموا للصلاة فينك وفين أيام النواح والليالي الملاح..

- يافائزة بدنيتك يافائزة بدنيتك.. فينك تعال.. واللي ينسى
الماضي ينسى الحاضر وينساه الزمان.. حتى الجفا
ينساه.. ليه تجافيني دانا غلبان.. هوّ العاشق يخون فين
أيامك.. افتح ورد علىّ تعال بكرة.. تعال ماتنسانيش،
مافيش حد يخون العشق زي من عشرين سنة زوجة خانت
زوجها.. ليه تخوني.. خيانة في أولها وفي آخرها..

- قومي للصلاة وتعال.. تعال الأول.. وصلّيّه وقت ما
يعجبك..

.. ولم يكن هناك فائدة من كلامه فلا صدى يرد ولا يصد، حتى أنه
كتب لها ورقة يقول فيها.. فائزة.. إنت فين يا فائزة.. تعال في بيتي
أنا جلال بن إبراهيم ابن؟ البلد.. فاكرة العشة وشجرة الكافور جنب
القبور.. فاكرة الليالي.. تعالي وحياة العُمر اللي فات وحياة النبي
دانيال.. وحياة المرسي أبو العباس.. ومقهى النبي..

.. وراح يردّد بعض الكلمات منها ما كتبه في الورقة والتي دسها من
تحت شيش الشباك فوكتت على حافة سرير فوزي المهجور منذ
شهور، ولم يكن أحد من الناس في البيوت والسامعين لندائه كل فجر

يعبأ بما يقوله.. إنه مخبول فليقل من الليل للصباح فلا معنى ولا اعتبار لكلامه.. إنهم لا يعتبرون أي معنى لكلام المجاذيب..

.. وجدت كوثر رسالة جلال على سرير أبيها وهي تتظفها بعد شهور من هجرانها فأعطت الورقة لشريف لغرابية ندائها ومن كتب هذه الورقة.. إنه نداء لصاحبة الفراش التي ألقيت إليه، لقد ذهبت لكن من هو صاحب هذه الرسالة وماذا يريد ألم يعلم أنها ذهبت.. هكذا راح شريف وكوثر يفندان ويفسران ما في الرسالة من كلام ونداء لكنهما عجزا عن تفسير أي شيء إلا أن كوثر قالت لشريف:

- أد إليه الفاجرة قادرة حتى بعد موتها بيدوروا عليها.. النار
قائدة حواليتها بعد ما راحت في داهية.. شوف الراجل ده..
شوفه مين ولما تلاقيه ودّيه السجن ليها علشان يعرف إنه
كان واقع على ليमान..

فقال لها:

- كل ده مش مهم.. خَلِّينا في الليّ في بطنك.. خَلِّينا في
حياتنا مالناش دعوة بأي كلام يخص غيرنا.. كفاية
حكاياتك الغريبة يا كوثر..
- برضه مش هانعيش وحدينا..
- طيّب خَلِّينا في صباح..
- آه منك يا يا.. مش قادر تنساها.. مش مكفيك الليّ عملته
ليك من يوم ماجبتك من عندها..
- لأ يا كوثر ماتحملنّيش أكثر مما أتحمل.. مش إنت الليّ
جبتيا..

- جبتها أي علشان ربنا والستر وكل حاجة حلوة.. لكن ماتتساش إنِّي ست ماتجيش سيرتها وأنا معاك..
- أنا مستعد ماروحش ليها وأنتي معاكِ على طول..
- لأ مش عايزين ظلم..
- والله مانا عارف أعاملك إزاي وإيه اللي يريحك..
- في الأسبوع بتاعي اوعى تجيب سيرتها مافيش غيري أنا..
- طيب يا كوثر خلاص..
- شوف أنا في شهري السابع وأد إيه شايلة لكن بابسلك كأني متجوّزة النهارده..
- الله يرضى عليك مش مقصرة.. بس ماتجهديش نفسك قوي في الموضوع ده علشان الجنين.
- شوف أد إيه إنت عندي نمرة واحد.. وتعرف إن مافيش واحدة تحبك أدِّي..
- عارف من غير ما تقولي..

.. كان الحديث نفسه مكرراً ومعاداً من يوم لآخر، حتى أن شريف قال لنفسه ياريتي ما تجوّزت هيّ النسوان بتتنجنن ولاّ إيه.. هوّ فين الخير الليّ بيعملوه في بعض.. ولاّ بيعملوا الخير وبعدين يندموا عليه.. ولاّ عندهم الخير شيء بيعملوه وينسوه لكن عمرهم ما ينسوا غيرتهم من بعض.. يابخت الرجل الليّ متجوز اتنين من غيرتهم عليه.. الاتنين بيقطّعوه ويجنّوه.. وهوّ في الآخر جوز الاتنين هايص

وحيران وشقيان بين الاتنين.. وراح يكلم نفسه.. وقال لنادية جرجس
وكأنها أمامه:

- فرق كبير ينادية بين الإنسانية والواقع.. مين يقدر يطبق
واقع الدين، لازم يكون راجل صبور قوي وجبار قوي.. مش
إنت ينادية قلت طبّق الشرع.. طيب أنا مش عندي
مشكلة.. خلّلي الستات يسامحو بعض شوية.. قولي لهم
يطبقوا بعض شوية علشان الحياة تمشي.. بلاش الغيرة
اللي بتفرتك الرجل.. قولي ينادية.. كملّي..

وتصوّر نادية ترد عليه حتى يرحم نفسه من معاناتها:

- والله لو جينا مصلح لكل واحدة يمكن ماينجحش..
- وهاتجيبى المصلحين منين بالعدد ده.. دا المصلحين في
أي مجتمع بيتعدّوا على الأصابع..
- ليه إحنا مانصلحش من أنفسنا.. ليه مايكونش الواحد مننا
هو المصلح لنفسه..
- العملية دي صعب قوي..
- وعلشان كده الدنيا ماشية بقدره قادر..

.. هكذا راح يكلم نفسه ويحاول نادية بالتخيّل؛ لأنه كان يعتقد أن
نادية هي الحكم الوحيد بينه وبين نساءه، وأن هذه الفتاة الراقية سوف
تكون له المرجع الأول والأخير، لكن الشيء الوحيد الذي كان يتوجس
فيه مع نادية أنّها ستصرّ في يوم ما على زواجه من سعاد وهي
صديقتها المقربة..

.. وراح مرّة أخرى يشطح مع نفسه قائلاً في تدبُّر .. ومين يقدر على
ثالثة..

.. لم تدرِ نادية جرجس بزيجته الثانية، ولو علمت فكيف تبُلِّغ سعاد،
إنها في مكنون نفسها تريد تزويج سعاد بشريف، ويكفي أن تعلم سعاد
بزوجة واحدة، وكان شريف يدرك معنى أن يخبر نادية بخبر زواجه
من صباح؛ لأنه في نهاية الأمر سوف تخبر نادية سعاد وعندها تحلُّ
مصيبة الغيرة ويقدر اعتزاز سعاد بنفسها.

.. ذهبت نادية إلى سعاد في بيتها فوجدتها حزينة مستكينة، ولم يكن
من عادة سعاد أن ترتدي ملابس حشمة فهي دائماً ترتدي من الثياب
أقصرها وإباحيتها كشيء من التنفيس عن النفس وتعبيراً عن ما يخبئه
الجسد من رغبات، فهي محرومة من الرجال دائماً، ولكنها عندما
وجدت شريف فإن في جسدها دائماً ناراً ملتهبة تصرخ بالشوق إليه
فهو الرجل الذي أحيأها بعد موت.. واندثشت نادية من قنوطها
واستكانتها فقالت لها وهما يتناولان الكيك مع الشاي الذي قدّمته
سعاد:

- مش عادتك.. دا إنت مؤدبة قوي النهارده..
- زهقت من لبس الشفتشي.. هالبسه لمين.. كأن الواحدة مننا
بتدّن في مالطة..
- ولأ موضوع جواز شريف أحبطك..
- هوّ مش أحبطني بس.. دا مؤتتي..
- والعمل إيه دلوقتي..

- لَمَّا أَقْبَلَ بِالْأَمْرِ بِالْوَأَقِعِ دَا هَائِبِقَى ضَعْفٌ وَلَا عَقْلٌ ..
- اِصْمَعِي مَشْ إِنَّتِ عَائِزَةٌ شَرِيفٌ ..
- عَائِزَاهُ .. وَعَائِزَاهُ هُوَ فِيهِ غَيْرُهُ ..
- اِعْمَلِي زِي السَّنَاتِ الشَّاطِرَةَ .. اِتْجُوزِيهِ وَخَدِيهِ مِنْ مَرَاتِهِ ..
- إِزَّيَّي يَانَادِيَةَ ..
- زِي السَّنَاتِ مَا يَتَعْمَلُ ..
- مَشْ فَاهِمَةٌ ..
- مَشْ هَائِقُولُكَ كَلَامٌ قَدِيسِينَ لَكِنْ هَائِقُولُكَ كَلَامٌ سَنَاتٌ ..
- يَخْرِبُ بَيْتَ السَّنَاتِ أَنَا مِنْهُمْ وَاتَعَقَّدَتْ مِنْهُمْ ..
- كَلَامُ السَّنَاتِ بِيَقُولُ .. خَلِيَّهُ يَكْرَهُ مَرَاتِهِ وَيَبْقَى بِنَاعِكَ إِنَّتِ
- بَس ..
- فَسَّرِي أَكْثَرَ ..
- جَنَّنِيهِ بِاللِبْسِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْكَلَامِ إِيَاهُ وَإِنَّتِ مَعَاهُ .. وَبَعْدِينَ
- فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ إِنَّتِ أَفْرَنْجِي يَأْسَعَادُ وَمَعَاكَ بِكَالْوَرِيُوسِ
- تِجَارَةٌ مَشْ سَائِقَةٌ دِبْلُومٌ .. إِنَّتِ فِي الْمَنْشِيَّةِ، وَهِيَ مِنْ
- حَوَارِي إِمْبَرُوزُو، إِنَّتِ بِنْتُ مَدِيرِ فِي الْجَمْرِكِ وَهِيَ أَبُوهَا
- عَامِلٌ مِيكَانِيكِي .. إِنَّتِ أَفْرَنْجِي يَأْسَعَادُ وَهِيَ مَهْمَا كَانَتْ
- بِلْدِي .. فِيهِ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ التَّفَاحِ وَبَيْنَ الْجَوَافَةِ ..
- إِنَّتِ بِنْتُ صَحْحِينِي يَانَادِيَةَ .. بِتَرْفَعِي مَعْنَوِيَاتِي .. لَكِنْ مَشْ
- قَاعِدَةُ السَّنَاتِ مَشْ بِالشَّهَادَةِ وَلَا بِالْأَحْيَاءِ وَلَا بِأَبُوهَا ..

- أنا معاك ولكن فيه فرق.. استغلي الفرق ياسعاد علشان تتسيه مراته في إميروزو..
- بس إنت مش نادية.. مش العادة مش دي أخلاقك إنت خلّيتني أكره مراته وحقّزيتني عليها.. إنت برضه شرسة زي كل الستات ينادية..
- أنا مش قديسة ومهما كنت متديّنة فأنا في الأول والآخر ست باتكلّم بلسان الستات، وأنت صديقتي ياسعاد وعايزة أخلص منكّ يمكن ربّنا يسهّلي بعدك..
- ياحببتي أد كده بتحبيني..
- خلّي بالك ولو كنت ست بصحيح ياسعاد وعايزاه يبقى بتاعك إنت بس احبلي منه زي ما الثانية حُبلت..
- لو قدرت أجب منه خمسة هاجيب علشان أكلبشه.. ماتتسيش إن هوّ الرّاجل اللي اخترق نفسي وجسدي..
- أهو كده.. إنت كده جدعة وواقعية وبنّت المنشية..
- وصلت مش عيب أتجوّز راجل على مراته..
- أهو كده كمّلت ولو كان ليك بصحيح مايتجوّزشي عليك، إنت عارفة العيب مش إنكّ تتجوّزي على واحدة ولكن اللي يعيب الست إن الرّاجل يتجوّز عليها..
- ياه.. ياه ينادية.. دا إنت قلت حاجات..
- مش وقته نشجّع بعض المهم دلوقتني تخلّصي وتتجوّزي في أسرع وقت من شريف..

- اسمعي ينادية من الآخر هات شريف من النهاردة قبل
بكرة..
- من غير شبكة ولا حتى دبلة..
- خديه الصاغة وهات معاه الدبلة وتعالوا هنا على طول..
- وأنا هاجيب الجاتوه..
- عقبالك ينادية..

.. منذ أن كبرتُ وأصبحت فتاة يانعة وأنا ألقى كثيرًا من العناء في مدينتي، وكنت أتصوّر وأنا تلميذة حتى الثانوية العامة أن القادم جميل، وأن الدنيا بعد ذلك سوف تحملني إلى محفل كبير للحب والدفء، لكن ما وجدته كان صادمًا، مات أبي حسرة على أخي، الذي غادر المنزل بلا رجعة نتيجة خيانة امرأة، أما أخي محمد فهو الذي هاجر إلى إنجلترا بعد موت أبي ولم يعد وتزوَّج من إنجليزية وقطع صلته بنا ولم يعد أخونا الذي كان، وكل منّا نسى الآخر ولم يبق غير أختي هدى المطلقة لأسباب منها غلظة وقسوة الرجال والحقيقة لا أعرف من أين يأتي الاختلاف هل تمرّد المرأة التي لا يعجبها شيء في الرجل أم أن الرجال في مدينتي أجلاف، وهل الرجال الذين يأتون من محافظات إلى مدينتي يزيدون مناخ المدينة بوهيمية وانحدارًا، فأين الرجل في مدينتي؟ أهم التائهون في أحياء متقلّبة المزاج كما تقلّبها زعابيب وهياجات مياه البحر العاصفة، فالبحر يهيج والناس تتغير فلا يذهب الرجال في مدينتي وهم من أصلها إلّا إلى التجارة القادمة وتوزيعها في أنحاء المدينة ثم تعاد الكرّة من جديد.. ونساء ينتظرن أن يفعل الرجل شيئًا من أجلهن فلا تجد إلّا أشباح رجال تاهوا من أجل إقامة حائط يحميهم كي يعيشوا في ظله، ويعودون مرّة أخرى إلى السوق وإلى معارك الحياة ليستكملوا بناء بيوتهم تاركين البيوت الحقيقية وهي نحن النساء بلا كلمة حب ودفء بلا وعد صادق، ويلجأ الرجال إلى الكلام وإلى الكذب وإلى الهراء، عن من تبحث النساء في مدينتي؟ عن وهم ظلّ مخزونًا في صدر كل فتاة حتى انتهت من دراستها، وأصبحت فتاة يانعة فتتظر حواليتها فلا تجد إلّا وهماً باعه الرجال في سوق المدينة

المزدحم بالكثير فلا يمكك الواحد منهم إلا فتات يقدمه للمرأة التي تنتظره.. من وهم إلى وهم فيبيع الرجال كلامًا يكفي لإقامة تماثيل للحب المنحوتة عند كل ناصية وناحية وفي كل زقاق، وأنا من باعني إلى ريفي كان أقصى ما يحلم به أن تقول له زوجة أبيه كلمة طيبة، كان أقصى ما يحلم به أن يكون له وظيفة بالجيش وأن يخدم كعسكري ثم عريف ورتيب حتى يصل في نهاية عمره إلى نقيب مخلة له معاش وله كيان مثل كثيرين من الذين كانوا راسبي إعدادية في قريتهم، وأصبح الواحد منهم الآن صولاً أو ملازمًا أو نقيبًا.. كانت هذه إحدى أضحوكات الحياة في بلدنا الذي يقسمه العسكر وأصحاب العصا بمزاجهم..

.. وكنا نحن جميعًا الضحية وأكثر المتضررين من إقامة مجتمع غير عادل هُنَّ النساء، فكيف لي من حياة في وسط هذه الفوضى القاصمة لكل ما هو إنساني..

.. تركتني نادية جرجس وكل ما قدّمته لي من حياة هو شريف، الذي تزوج من كوثر ابنة صاحب البيت وهي راسبة دبلوم التجارة في أعتى مدرسة خاصة بها كثيرات من التلميذات الفاقات والضائعات..

.. هذا كل ما قدّمه وعاء الرجال لي، وأنني عشقت شريف ومنحنته جسدي فإنه في كل حال أفضل الرجال في مدينتي، ولا أستطيع أن أدخل في تجارب مع رجل آخر فأنا لست حقلًا للتجارب، ولم أتعود أن يكون جسدي لرجل آخر، فهو رجل واحد انكشف عليّ وهو الرجل الذي أقبله بكل ما في نفسي ورغبة شديدة في جسدي تتوق إليه، فأنا أفضل حالاً من نساء غيري تائهات لا يعرفن شيئاً عن رجل قد يأتي أولاً يأتي..

.. مرّ يومان وأخبرتني نادية بأنها اشترت هي وشريف ما يلزم القران،
وأنها سيأتيان إليها الليلة ومعهما المأذون وعليها أن تجهّز لذلك،
وفي الثامنة مساء يوم عشرة من سبتمبر لعام ١٩٧٦ تم عقد زواج
شريف على سعاد، وحضر العقد أختها هدى وربيع ابن سعاد الذي
كان صامتاً لا يتكلّم، وكأنه لا يفقد شيئاً، ولكنه سأل خالته عن أبيه
فأخبرته أنه بالجيش وسوف يأتي إلينا هناك وليس هنا، وكانت سعاد
قد دعت جارتهما القديمة طنط ماريا لتحضر الفرح وهي الجارة التي
تعلم كل شيء خاص بعلاقتها مع زوجها السابق، وكانت صديقة
العمر لأمها منذ أكثر من أربعين عاماً، وزغرذت نادية التي لم تزغرد
لأحد من قبل وكذلك طنط ماريا غير أنّ زغرودتها كانت تنقطع من
نصفها، وكانت أقوى زغرودة هي التي تطلقها هدى حتى أن كثيراً
من الجيران قد خرجوا إلى البلكنات ليطلّعوا من أين تأتي هذه
الزغاريد حتى عرفوا جميعاً بزواج الأستاذة سعاد مدرسة المحاسبة،
وأن هذه هي زيجتها الثانية..

.. في اليوم الأول للزواج لم تكن تتمنى أكثر من أن يكون شريف
كما عهدته في الأيام التي عشقته فيها، ولم تقم من غرفتها إلا إلى
الحمام لتغيّر طاقماً آخر من تلك التي تشتريها بنات الذوات من
محلات خاصة في محطة الرمل؛ حيث تبيع هذه المحلات أرقى
أنواع الملابس الداخلية المستوردة مباشرة من إيطاليا، وكانت تستحم
بعد كل تغيير طقم جديد كانت تريد أن تشتريه من كل الدنيا وليس
تأخذه من زوجته كما أوصت به نادية، ومن شدة انبهاره بها كان
يقول لها: النساء في مدينتي بعض منك وقميصك مثل ذهب تبيعيه

في سوق صاغة المنشية في مزاد عالمي، وصديرتك تمسك بجبل من تفاح في أعلى قمة سفح في دنيا البساتين التي يلمحها الرجل الحالم في حلم ليلة من ليالى الصيف عند شاطئ محيط خلف المتوسط يتنزّه فيه الجن والجنيات، الذين مازالوا يرتعون في طرف الموج السابح عندما تخلفوا عن ليالى ألف ليلة وليلة، مازال هؤلاء هناك يقفون منتظرين فتح المزاد السري لصديرتك التي تمسك بكنوز العالم النادر من نساء كل شواطئ البحر المتوسط في إيطاليا وباريس، فأنت المطر وأنت البصر ولا يصدق أحد أنك كنت تتزلين من حي المنشية وتذهبين إلى حي أقل منه عراقية لتقومي هناك بتدريس مادة المحاسبة لطالبات كن يحسدنك على فتنة جمالك، ولو كان أهل المنشية وإمبروزو يعلمون أن لجسدك هذا عالمًا آخر يصنع من المدن مدينة أفضل من مدينتهم لتسابقوا جميعًا في أن يخطفوك من هذا العالم إلى عالم يقيمون فيه مدينة باسمك أنت ملكتها.. فمن ضوء ركبتيك يطلع فجر مدينتي ومن قدميك تحرث أرض الفلاحين إذا مشيت فوقها ومن خصلات شعرك نبتت فروع القمح ومن رموش عينيك اكتملت سنابله للحصاد، حرام عليك ضيعت بيتي في إمبروزو فهناك بيت فيه زوجتي ولي ابن في بطنها، تُهت في بيتك عن كل العالم حولي فإذا نزلت منه لأذهب إلى بيتي هناك فلم أهد إلى بيت في هذه المدينة وأعود إلى بيتك وكأن بيتك هو بيتي الوحيد في المدينة، أنت المسئولة عن جنوني وعن تيهي وعن أن لا امرأة إلا أنت.. ومن ليلة لأخرى أعبّر عن تيهي وجنوني لها كأن أقول لها مرارًا كما قلت في الليلة الأولى عندما صعدت إلى قلعتها:

- هانزل إزاي وارجع البلد..

- بلد مين هو إنت ليك بلد..
- بيت مراتي بلدي..
- مين مراتك ياوس..
- مراتي بنت فوزي..
- اللي أبوها كان عبيط..
- وهو الغلبان مانعبروش..
- دا كان راجل قفا بتسييه مراته وتسرح في الشوارع..
- بس هو كان راجل من الشعب الغلبان، وإيه ذنب أي واحد
طلع لقي نفسه غلبان..
- ذنبه إنه يتتُه غلبان على طول..
- وبنته ذنبها إيه..
- لو قدرت تروح لها روح..
- طيب سيبيني ياسعاد..
- الباب مفتوح لو قدرت اطلع من هنا.. المسدس في الدولاب
هأطخك بيه..
- حاسس أني مش قادر كأن سحرك مسك دماغي ونفسي
وروحي حاسس أني متكتف..
- إنت عارف إنت شريت إيه..
- إيه..

- شربت سحر من أكبر ساحر في إسكندرية دا غير كده
- مش إنت في فراشي .. مش أنا إديتك نفسي .. أنا إديتك نفسي الليلة علشان حاجتين ..
- إيه همّة ..
- عشقتك قبل كده والنهارده اتجوزتك .. هات أي قوة في العالم تاخذك منّي ..
- طيب مش هانتعبي مني ..
- مستحيل .. اضريني .. مؤتتي .. اشتمني .. عمري ماتعب من حياتي .. ياوس ..
- حاجة غريبة هوّ الليّ يحب يشتم أو يضرب أو يموت ..
- زي ما شتمتك قبل كده .. هوّ دا بقى المزاج بتاعي ..
- لكن إزاي تشتميني الشتيمة دي وأنا في عز لقائي معاك ..
- اسأل النسوان ليه بتعمل كده ..
- كوثر ماشتمتكش ..
- أبداً ..
- ونادية ..
- ليه هيّ مراتي ..
- أنا شايفة إتها لازقة معاك ..
- أبداً ياريت البلد دي فيها واحدة تانية زي نادية ..

- عمري ما شفت كده..
- مش هيَّ صديقتك إزاي تظنيَّ فيها الظنون دي..
- أنا عايزة أخلص من أي حد حواليك.. عايزاك لواحدك..
- طيب اهدى شوية..
- اهدى إزاي ياوسد يابتاع النسوان..
- أنا عمري ما عرفت حد غيرك قبل ماتجوز..
- النسوان كلاًها بتلف عليك حتى نجوى المجنونة التعبانة..
ونادية..
- مش اتفقنا إن نادية دي حاجة تانية..
- وش عَرَفني.. ما يمكن بتلف عليك بطريقة تانية..
- بصراحة هيَّ نوع ثاني من الستات..
- نوع إيه.. ياوسد.. هوَّ فيه أحسن منِّي.. قول اتكلم..
- لأ.. لأ مافيش مش كده إنت هتأكليني أكل الليلة خَلِّي شوية
بكرة..
- بكرة إيه ما يمكن تكون الليلة آخر ليلة في حياتي..
- أد كده إنت مجنونة..
- إنت الليَّ جبت لي الجنان..
- إنت شربت خمرة قبل كده..
- عمري ما شربتها..

- أصل اكسيرك وطعمك وكلامك وطريقتك تقول إن فيه حاجة كبيرة مخمورة فيك..
- الليّ أعرفه إن أبويا كان بيشرّب خمره وهوّ مع أمي..
- الخمره دي بتعمل حاجات غريبة في الناس.. الليّ بيتجنن والليّ يبشط والليّ بيبقى خارق للعاده.. زيّك كده إنت ست مش أي ست هوّ انت معموله من خمر..
- بطلّ تخاريف يا شريف..
- أنا الليلة عرفت أن كل ست ليها طعم.. وأن كل ست بتدّي حاجة للراجل..
- وأنا طعمي إيه..
- إنت أكبر ست مجنونة في البلد..
- المهم أجنك إنت..
- أعتقيني بقى لي أسبوع.. خليّني أفوق وأعرف أرجع لإميروزو..
- من مصلحتي ماترجعش خالص.. هاترجع لمين ياوس..

.. ولماّ عدت إلى كوثر كنت شارداً وكانت هي أكثر شروداً، وكنت قد أخبرتها في صباح يوم زواجي من سعاد بأنني مسافر إلى البلدة لأمر يتعلّق بالأسرة، وحملت وأنا أخرج من بيتها حقيبة ملابس، وكانت مندهشة لهذا الأمر المفاجئ، وقالت في حزن:

- هُوَ إنت ليك إيه في البلد واشمعنى النهارده.. هيّ كده فجأة
مرّة واحدة هاتسييني..

.. قبلّتها واحتضنتها ورحت أربت على ظهرها وأنا أهمس في أذنها
بحنان:

- معلش أول مرّة أسيبك.. غصب عنيّ..

- طيب إديني تليفونك هناك أطمئن عليك..

- مافيش تليفونات.. ماتقلقيش دي كلّها أسبوع بالكثير..

- أيّوه حرام عليك وتسييني لوحدي..

- خلاص ياكوتر ماتعملهاش مشكلة دانا هاجيب فلوس
وفطير وبط..

- مش عايّزة فلوس ولا كل ده.. عايزاك ماتسيينيش ويس..

.. ولم ترض بسفري المفاجئ وراحت تزرف الدمع الغزير، وانفكت
من بين ذراعي وهبت نفسها فوق حافة السرير، وراحت تبكي.. وما
كان منّي إلاّ أن قبلّت رأسها وانصرفت وأنا أعرف تمامًا أن كل ما
في داخلي كاذب، وأنني أظلمها ظلمًا كبيرًا..

.. ولمّا عدت إلى زوجتي الأولى والتي حافظت علىّ في بيتها
وأحبّتي، وأخلصت وفي بطنها جنيني الذي تكلمه وهي تضع
أصابعها عليه كلّما تحرك في بطنها:

- حبيبي شريف..

.. وكانت نصُر على تسميته شريف وهو في أحشائها، وكان أول فضائي عندما فتحت حقيبي، التي سافرت بها لتأخذ ملابسها منها، وتضعها في الغسالة فوجدت ملابسها نظيفة فرعقت قائلة:

- بالهوي بالي دا الهدوم نظيفة زي ما هيَّ أمال لبست إيه..

.. مفاجأة وقعت فوق رأسي وتلعثت الكلمات في فمي، ولكن كتمت صوتها ولحقتها قائلاً:

- آي يا حبيبي محمد أخويا حلف علىَّ ألبس من هدومه ولا أطلع هدمة واحدة من هدومي..

- إزاي ودا في عرف مين.. هوَّ عندكم بتلبسوا هدوم بعض إزاي يا شريف..

- دا عرف الفلاحين بقي.. إنت هاتعملي من كل شيء حكاية.. والله ياكوثر لو ماسكتي هاقوم أضرب نفسي بالجزمة.. وسُقت عليها الحركات إياها وعملت أنني زعلان منها؛ لأنها لا تصدقني وتخونني في كلامي.. بمعنى أنني نجحت في دقها على حَقِّها وأخذتها في دوكة بالألا يجب تكذبي وأن كلامي مصدق وأنه لا داعي للتحقيقات ورحت أزعق لها، وكأنها جرحتني فدخلت عليها الأقاويل والأفانيد وبلغتها بخاطرها أو غصباً عنها، ولكنها سكنت حتى لا أنقلب عليها فهي دائماً ترضيني وتتمنى رضائي عنها رغم أنني في الكثير من الأمور أدقُّها على حَقِّها..

.. لكنَّها في هذه الليلة كانت تُدس رأسها في صدري وتهمس:

- غريبة يا شريف.. فيه ريحة غريبة فيك..

- تلاقىها ريحة البلد..
- هوّ في البلد بارفان.. دي آخر حاجة يستعملوها تلات
خمسات بتاعة الحلاقة..
- أصل أمي حطّت لي ريحة من عندها..
- هيّ أمك لسه بتتريّح لأبوك..
- لسّه وبتتكحل كمان..
- بس دي ريحة.. ريحة حلوة قوي..
- فيه عندنا عطار اسمه عتريس بيعمل ريحة معنّقة بتشتريها
منه كل ستات البلد يوم السويقة..
- يمكن.. قلت لأمك إنك اتجوّزت..
- قلت لها.. ما هي عارفة من ساعتها.. مش بعت لهم
جواب وحكيت لهم عن التفاصيل كلها..
- وقلت إنّي حبلت..
- هوّ دا الجديد..
- وفرحوا ياشريف..
- أمي زغردت..
- وقلت لهم إنك اتجوزت صباح..
- لأ ما قلتش..
- ليه..

- هاعرفوا إنك عبيطة..
- فعلاً ياشريف أنا عبيطة في كل حاجة.. عبيطة لأنني لازم
أصدّقك وعلشان أرضيك باحط الجزمة في بقي علشان
ماتزعلش.. ياشريف أنا غلبانة مسكينة ماليش غيرك..
اوعى تظلمني.. لو مش علشان خاطري يبقى علشان الليّ
في بطني..
- إن كنت ظلمتك في يوم مش قاصدي والليّ غصب عنه
يبقى مش بيظلم.. لكن عمري ما كنت قاصد أنني أظلمك..
- شوف ياشريف.. الظلم ظلم.. مافيش فيه أنواع ولا فيه
تفانين..
- طيب اهدى شوية علشان ماتزعلّيش نفسك على الفاضي
وعلشان الليّ في بطنك ياكوتر..
- .. وضعت يدها فوق بطنها في حنان وقالت:
- والله أهه.. شوف بيتحرّك أهه.. على فكرة هوّ سامعنا
ياترى عايز يقول إيه..
- عايز يقول حب ماما قوي ياابا..
- كويس قوي.. خلاص طاوعه ياشريف.. وحبّني..

- .. عندما انفردت سعاد بشريف ليلة زواجهما قالت له في فزلكة وهو
يتأهل ليدخل الحمام ليستحم:
- هوّ أنت هاتغير من غيارات هيّ غسلتها..

- أمال هالبس إيه ياسعاد..

- تعالى شوف جايبة ليك إيه..

.. وفتحت ضلفة دولابها.. بص شوف.. داخلية وجلاليب نص..
وبيجامات.. وروب صيفي.. وبارفان وعدة حلاقة وكريم.. كل حاجة
جديدة.. ارمي شنطة الهدوم دي برّه مش عايضة هدوم مطرح حد أو
من ريحة حد.. جرى إيه يا شريف.. أنا سعاد والأجر على الله.. مش
أي واحدة أنا.. ولمّا تمشي سيب هدومك دي.. ماتروحش بحاجة
منها هناك.. تلبس غيار من هدومها يوم مانت رايح بس.. خش
الحمام.. الأول.. هاحمّيك بإيدي.. وأنا الليّ هالبسك.. إنت من
النهارده بتاعي.. كلّه بتاعي.. لو قدرت أغيرّ شعر رأسك لغيرّته..
خش.. اعرف أنّك في حمّامي وانسي إنّك دخلت حمام واحدة قبل
كده..

.. كان شريف بين الثلاث نساء، وكأنه يعيش وحدة مُطلقة لا يراه
فيها أحد، حتى أن كل امرأة منهن تعيش معه، وكأنّها المرأة الوحيدة،
وكان شديد الصمت فعلاً لما تحبّ كل واحدة منهن، غير أن نادبة
جرجس كان يركن إليها عندما يضجر من شيء مع الثلاثة، وفي أول
يوم من العام الدراسي الذي بدأ في أول أكتوبر ١٩٧٦ همست في
أذنه أن يلقاها بعد الثالثة في مقهى النبي دانيال، وكان شريف في
أشد الحاجة لأن يتحدّث إليها، وأن يعلمها بزوجته الثانية بعد كوثر
خاصة أن هذه التلميذة صباح تعرفها نادبة، وكانت تعطيها دروساً
خصوصية في سنواتها الثلاث، وكان صوت نادبة هذه المرّة مرتعشاً
حين قالت له وهما يحتسيان الشاي:

- سعاد ولأً كوثر .. احكي لي ..
- هيَّ سعاد ما حكتش ليك ..
- المرّة دي صم بكم ..
- ليه مش كانت بتحكيك ..
- علشان إنت بقيت جوزها .. لما كنت عشيقها كانت بتحكي ..
- يعني بقى ليها خصوصية ..
- ما عرفش .. لكن باحس دلوقت أنها خايفة منّي ..
- أنا نفسي أعرف هاتنك صابرة لإمتي ..
- يعني هاعمل إيه .. كفاية علىّ بانقرّج ..
- لكن إنت تسوى كثير في سوق الستات، إزّاي المدينة دي كلها ما فيهاش حد بيشفوك ..
- بيشفوني بس ما فيش راجل زي شريف ..
- إنت دائماً تكسفيني بمجاملاتك ..
- خلّينا نتكلم عن نسوانك أحسن .. كوثر ولأً سعاد ..
- كوثر زي أي حاجة تاخديها من حارة أو شارع في حي شعبي .. هيّ الست البلدي الحلوة الليّ تاكلي منها طبق طبيخ مسبّك أو كيكة حلوة .. زي الجوافة البناتي والعرقسوس والسوييا والتمر هندي، وفي الآخر تقول لك تعالي بقى اعمل بأكلك بشكل ابن البلد الجدع .. كوثر دي

هي بنت كل حي شعبي في البلد في بحري إسكندرية
وقبليها، وهي دايمًا الست اللي بترضى بأي شيء وبتصدق
ودى من النوع لمّا تخلف هايبقى ابنها الأول وجوزها
بعدين..

- ولسه إنت معاها في قوتك بعدما تجوزت سعاد..
- شوفي كوثر دي بيت مققول وكل ما آجي ليها بعد سعاد
أحس أنني بادخل كل الأحياء الشعبية في مصر كلها..
ومافيش حد يشبع من الشعب بتاع بلدنا..
- وسعاد دي إيه أكيد مفلزكة الأمور معاك..
- سعاد دي أستاذة في الحب.. زي موجة بحر جاية من برّه،
زي محل شيك فاتح في محطة الرمل بيبيع هدم مستوردة،
بتعمل حاجات في الحب عمري ما شفتها ولا هاشوفها..
كل يوم باحس أنني بسافر بلد أوروبي، وفي يوم قلت لها
إنت مصنوعة من خمر:
- قالت لك إيه..
- إن أبوها كان بيشرب خمرة وهو مع أمها..
- .. ولأول مرة أشعر بأن نادية تختلف عن ذي قبل، فهي تكز على
أسنانها، وتضع ساقًا فوق الأخرى بعصبية شديدة، وشعرت بأنها تريد
منّي الإفاضة في تفاصيل لقائي خاصة مع سعاد، وكنت أندش
فقلت لها..
- أشعر اليوم بأنك ست طبيعية مش زي كل مرّة..
- ليه هو أنا كنت عفريت قبل كده..

- لأ كنت شديدة الحرص في كلامك ولم تضعي ساقًا على الأخرى مثل اليوم..
- ما هو أنا في الآخر ست مصرية.. خلى بالك أنا ست مصرية وإنك راجل مصري، في الأول والآخر كل واحد منا له حق في الثاني..
- مش فاهم دا كلام أول مرّة أسمعته..
- يعني ليه الناس ما بنتجوزشي بعضها طالما همّا في أرض واحدة..
- يعني..
- يعني الناس تحب وتتجوز وما فيش حاجة توقفهم أو تحوشهم..
- تقصدي الحب والعشق والجواز والدين ما يكونش عائق يمنعهم..
- ليه لأ.. وممكن يتم ده وكل واحد على دينه، في رأيي عمر الدين ما يقف ويمنع الحب والعشق والجواز.. ليه الناس تحط عائق أمام الحب..
- يعني الأرض هيّ الأساس..
- مش أرض مصر بس.. أي أرض في العالم مباح فيها الحب والعشق والزواج؛ لأنه حياة بين الناس.. حرية الناس مهمة جدًا طالما ما فيش مساس بالأديان والعقائد.. إنت فهمتني.. يعني الدين ما يكونش عائق أمام الناس علشان تحب وتعشق وتتجوز..

- ومن غير كلامك ناس كثير بتعمل كده بس ماحدّش شافهم.. من غير كلامك فيه ناس بتمارس الحرية من أوسع أبوابها..
- وعلى فكرة الدين لوحده.. ماحدّش بيمسه؛ لأن الدين دا حاجة كبيرة قوي بين الناس وريّها مال الدين ومال الحرية طول ما الحرية بتحت الدين فوق راسها، وسواء قلنا أو ماقلناش الناس بتعمل الليّ هيّ عايزاه من غير ما تتكلم..
- لكن الناس في بلدنا بتقتل علشان وعلشان..
- أهو دا الليّ مش ممكن.. هوّ دا التعصّب.. هوّ دا التخلف..
- دع الخلق للخالق عايزة تقولي كده..
- أقصد الناس تعيش في حب بلا حدود ودون الإضرار بالغير أو الناس، ياناس الدين دا علاقة الإنسان بربه والرب هوّ في الآخر الليّ بيحاسب، إحنا ماتخلفناش علشان نحاسب بعض أو نقتل بعض، إحنا اتولدنا علشان الحب والسلام..
- دي دعوة جديدة ينادية بس مين يقدر عليها أو يقدر يعلنها..
- ياشريف اعلناها ولاّ ماأعلناش.. ناس كثير بتعمل ده من غير كلام ولا حد يقدر يحوشها..

- إنت مخبيّة كثير قوي ينادية.. يعني إيه حد يقتلني إذا
جيت وعشقت واتجوزت واحد من بلدي.. دا برضه منطوق
ولاً كلام.. هوّ فيه دين قال كده..
- لأ مافيش بس دا إعلانه في بلدنا صعب..
- علشان التخلف والتعصب.. هوّ إحنا متأخرين من شيء
شوية..
- والله إنت ينادية عندك فكر عال جدّا..
- وإيه فائدة الفكر من غير تنفيذ..
- صحيح.. إيه فائدة الدماغ من غير أرض..
- يعني إنت راجل مافيش حد زيك وعشان كده الحريم
تتجوّزك وتحبّك وفيه ناس كثير بتحبّك مش قادرة تتكلم..
- معقولة.. مين همّ دول..
- .. ضحكت نادية مثل أي امرأة تضحك في كباريه لدرجة أن المتر
ابتسم من رنين ضحكها وطولها ولمّا هدأت من ضحكاتها قال
بصوت خفيض:
- قولي ينادية.. إنت عارفة أنّك حبيبتي.. قولي.. هات من
الآخر.. إنت أختي وزميلتي و بنت بلدي.. بلدي إللي
جدودنا عايشين فيها من آلاف السنين..
- وليه ماقولشي ياشريف..
- قولي ياأعلى نادية عندي في إسكندرية..

- لأ قول ينادية ياأغلى عندي زي البلد كلها..
- هاقول بس بعدها هاسيبك واجري وماتجريش ورايا.. خد كلامي وفكر فيه وسيبني أجري وأجري..
- خلاص اتفقنا..
- إنت اتجوزت كوثر وسعاد مش كده..
- أيوه..
- وممكن تتجوز واحدة تالته ورابعة..
- ممكن..
- طيب أنا عايزة أتجوزك..
- بتتكلمي جد..
- وعلشان كده هاقوم واجري..
- طيب أجري وراك..
- لأ اوعى.. زي ما اتفقنا.. سيبني أجري لوحدني ياشريف..
- خلاص ينادية.. اجري..

.. هذا الشيء قائم وحده وفي بلادنا فقط نضع الدين حائلاً أمام كل شيء يسعدنا، وأنا سنفعل لو كنّا أحراراً طالما هذا الفعل لا يضر بالآخرين، لماذا تجمّد الناس في قرانا ومدننا عند هذا الحائل، هل يحاسب الناس بعضهم بعضاً وأخذوا صفة من صفات الله، فمراقبة الناس لبعضهم وقتل البعض واعتقال الأحرار لهي أمور لا توجد في مجتمعات أخرى لا تعرف كيف تأخذ بأسباب تقدمها، وكان للفقر والخوف وأساليب التربية العميقة أحد أسباب أن يتخذ كثيرًا من الناس شكلاً ما ليثبت وجوداً له، وفي طول الدنيا وعرضها ما كان الدين إلاّ نبراساً ينظم علاقاتنا ويقيم مثلاً للسلوك بين الأفراد والجماعات، والدنيا منذ أن نشأت لا يستطيع أحد إملاء الدين على الآخرين، جميعاً في وعاء الحياة والدين عامود نحاول أن نتبرك به ونأخذ بأسبابه لتكون حياتنا ذات قيمة، وما كان الدين يوماً إلاّ نهراً يأخذ منه كل منّا قدرًا ليستطيع به التغلّب على مصاعب الحياة، وما كان الدين قهراً ولا فرضاً وما كان الدين للناس جميعاً إلاّ شيئاً يسيراً يأخذ منه الناس طواعية ليكون السلام والحب بينهم حتى يموتوا، فلنعد إلى سيرة الدين الأولى،.. ولكن كيف وتفاصيل الحياة الصعبة أصبحت في قبضة الناس كقطعة من نار مجبورين أن نمسك بها لتحرقنا أولاً، فنحن كي نعيش في بلادنا لا بد أن ننكوي بالنار، فنمر بقنوات الفقر والقهر والخوف، هكذا تعودنا في شرقنا كله، نتكلّم عن الحرية والخير والسلام بين الناس ونحن أبعد الناس عنه، نتكلّم عن العبادات فنقيمها شكلاً وقليل من يفعلها من قلبه، نتكلّم عن الفرائض، ولا نعرف كيف نتعامل كما أمرتنا الأديان، فإذا كان رجل الدين يقتل أو يؤجّر القتل،

فكيف تدعو أن الدين معاملة، وهناك ناس بعيدون عنا ويقومون معاملات الأديان كلها، والغريب أن هؤلاء ليست لهم ديانة..

.. قَلِّبت نادية الأشياء في رأسها ولم أعد أفهم كثيرًا مما تعنيه، وليس المهم أن أفهم كل شيء لكن الأهم أن أفعل شيئًا واحدًا مما فهمته منها، وخلصت أننا في بلادنا خلطنا بين أمور تخص الله وحده وبين ما يجب أن يخص الناس، وأن الشيء المؤلم هو الخلط بين أمر الله وأمور البشر في مدينتي، ولم أكن أستطيع تحرير الناس من ذلك أو دعوتهم للرجوع عمدًا هم فيه؛ لأن ذلك صعب جدًا، ولكن ما أستطيع فعله الآن وأنا غريب ضعيف في هذه المدينة أن أقوم بعمل الخير وتحقيق كثير من الحب والسلام في أي حارة أو زقاق في هذا المجتمع، واعتبرت مع نفسي أنه من الأعمال الصالحة، التي يستطيع الرجل عملها طالما في مقدوره هذا أن يتزوج من النساء مثلي، ولقد فعلت.. ثلاث نساء ولم يبق إلا واحدة..

.. وبعيد عن دور العبادة الثلاثة الموجودة في شارع النبي دانيال.. لم أشرك شيئًا في مسجد النبي دانيال الذي يقع في نفس شارع المقهى، الذي كنت أجلس فيه مع نادية.. ولم تشرك نادية قسيسًا من كنيسة المرقسية التي تقع في نفس الشارع وهي أقدم كنيسة في مصر وإفريقيا وهي المقر البابوي لبابا الإسكندرية، ولم يكن أحد منا يهوديًا حتى يذهب إلى المعبد اليهودي في نفس الشارع أو يشركه..

.. كان لي قريب يدعى خليل الهلالي وقريب آخر يدعى محمود النوبي.. دعوتهما ليشهدا على عقد قراني، وحضر من جانب نادية والدتها والسيدة جارة سعاد وزوجها السيد رؤوف جورج وهو من رجال التعليم القدامى في الإسكندرية، وأوصت نادية رؤوف جورج وزوجته

بألا يخبرنا سعاد بشيء.. وكنا أحرارًا ونحن نتزوج وعلامات الرضا تبدو على كل الحاضرين، ولم يستطع واحد من رجال الدين في دور العبادة الساكنة في شارع النبي دانيال أن يحضر؛ لأننا تعمّدنا ألا ندعو أحدًا من هناك، وكنا حريصين على أن يكون زواجنا مدنيًا من ناس عاديين يفعلون الخير ويشتركون فيه دون الدخول في أية فلسفة، ولم يكن هناك شيء أعلى يخصّنا من هذه المدينة سوى حُبنا الذي لا يستطيع أحد إيقافه فزواجنا أقام حدودًا أقوى من أسوار الحديد، ودقّ ناقوسًا للحب والحرية يسمع أجراسه من يعيش في المدينة كل صباح ومساءً..

.. ودارت أيام من أقوى أيام الحياة في مدينة الإسكندرية، وعلمت بعد ذلك أن محمد بن دانيال الموصلي وهو أحد شيوخ المذهب الشافعي هاجر من الموصل إلى الإسكندرية في القرن الثامن الهجري، هاجر منها ليكون حرًا في مدينة أكثر حرية من الموصل آنذاك، وعاش في الإسكندرية وبقي ضريحه في المسجد على عمق خمسة أمتار تحت الأرض، كان هذا العالم العراقي يدعو بالحجة والتفسير والفقهاء لإصلاح الناس، وأنا بزواجي من نادبة أدعو إلى حرية جديدة لحب الوطن وكنت بزواجي هذا قد أقمت حرية جديدة للحياة، التي يجب أن تكون في مدينتي، وفي يوم سألت نادبة:

- لماذا أقاموا المركز الثقافي الفرنسي في شارع النبي دانيال..

- لا أعرف يا شريف.. سوف أسأل..

- سؤال آخر يا حبيبيتي..

- من هو النبي دانيال..
- يقولون إنه أحد أنبياء بني إسرائيل، ويعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد..
- لماذا تكثر الكتب القديمة على أرصفة هذا الشارع..
- وكل الكتب التي تصدر حديثاً تباع في الأكشاك المنتشرة بين أكوام الكتب فوق الأرصفة..
- هل نستطيع الإقامة في هذا الشارع..
- لم لا.. علينا أن نبحث عن شقة هناك..
- إنني سوف أشعر بالأمان والدفء إذا عشت في شارع النبي دانيال..
- وأنا أيضاً..
- نحن الآن تزوجنا.. هل يغنينا زواجنا عن ذهابنا إلى المقهى..
- لن نستغنى عن مقهى النبي دانيال أبداً..
- إنني لم أدخل معبداً يهودياً في حياتي..
- وأنا..
- لماذا لا نذهب إلى هذا المعبد لنرى ما فيه، ونعرف شيئاً من تعاليمهم وصلاتهم..
- لا يمنعنا أحد..
- لماذا لا نعرف كل شيء عن كل شيء..

- هذا ما يجب أن نفعله..
- اذكري اسمك بالكامل ينادية..
- نادية جرجس الديب عطية إبراهيم..
- زوج خالتي اسمه عطية إبراهيم.. وسكتت شريف ثم أردف..
- وجد أمي اسمه عطية الله..
- إننا جميعاً من عطية الله.. ومن أدراك إذا عدت إلى الوراء فسوف تجد أن لنا جدًا واحدًا وجدة واحدة..
- نحن في بلادنا منذ قرون طويلة.. نحب ونعيش ونزرع ونحصد وننام ونصحو..
- ولكن لماذا الآن نكره.. لماذا الآن نخلف.. لماذا الآن نتصارع..
- أليست هذه خيبة من خيبات هذا الزمن..
- إذا عدنا إلى الدين قليلاً فإنه لم يكن في حياتنا إلا الحب والسلام..
- فليتأمل كل منّا دور العبادة الثلاثة في شارع النبي دانيال.. ومقهى النبي يتوسط هذه الدور..
- ولماذا لا نتعامل كما يتعامل الناس في بلاد أخرى.. والمدهش أن هذه البلاد لا تعرف أي دار من دور العبادة الثلاثة..
- ليس ذلك هو السبب الحقيقي للتخلف والجهل..

- أكيد..
- فلنعد إلى ما وصلنا إليه..
- قلت إنه ينقصنا أن نذهب إلى المعبد اليهودي..
- من أنت ينادية..
- أنا زوجتك..
- زوجتي فقط..
- أنا كل شيء لك..
- وسوف ننجب أبناءً وأحفادًا..
- المهم أن يتذكَّر أحفادنا من كان أجدادهم..
- هذا ما تتساه الأجيال دائمًا..
- لقد أهملنا التاريخ في عصر ينسى فيه الناس الكثير..
- ألم نضيِّع وقتًا كثيرًا في الكلام..
- تعال الآن نحب..
- هل نامت العزيزة أمك..
- نامت وهي الآن تحلم..
- حتى لا تسمع كلامنا ونحن نحب..
- وإذا سمعت فإنها سوف تسعد كثيرًا..

.. وكان شريف يقترب منها ويأنسها من خلال أفكارها وحكاياتها عن الأديان والحياة، وأن وحدة الوجود تتجه إلى رب واحد، وأن الجميع ينصهر في بوتقة واحدة، وأن الحب والعشق والزواج كل هذه أوعية للتوحد في وعاء من أجل أن يعيش الجميع الحياة بشيء من الانسجام، وأنه لولا هذه الخلطة ماكانت الحياة، وأن إرادة الإنسان في الفعل وليس بالكلام والاختلاف، ولذلك فإنك تجد أن كافة المنابع الإنتاجية في هذه الحياة من صناعة وتجارة ومعاملات وعلاقات اجتماعية هي كيان المجتمع الحقيقي، وأن هذه جميعاً بمقدار قوتها يتخطى المجتمع العثرات، وأن رجال السياسة ورجال الدين هم الذين يوقفون هذا التقدم؛ لأن دورهما يخضع للفطريات والفلسفات، التي توقف كثيراً وتشل حركة الحياة، وإذا نظرنا إلى أي بلد في العالم تجد من دمّر ثلاث.. رجال السياسة ورجال الدين ورجال العسكرية، رجال الدين، لأنهم يتوقفون عند الكلام عن العبادات وينقلونه من الكتب وكل منهم يخاف الاقتراب من المعاملات؛ لأنهم لا يعرفون كيف يتعاملون فكيف يأتون باجتهادات وأمثلة وواقع للمعاملات وهم أصلاً في حياتهم فقراء في التعامل، وكل من هؤلاء الثلاثة صاحب اختلاف وتناحر، وهو الذي يمسك البندقية هو سبب خراب بلادنا من عام ١٩٥٢ وحتى الآن، ناهيك من صاحب العصا الذين يخوفون الناس بعصاهم لكي يسرقوا بعد أن يشبع الحاكم من السرقة وينهبوا بعده، والغريب أن نادية كانت تشبع شريف أفكارها وهم في عز اللقاء فيقول لها ولم يكن يملك غير أن يوافق؛ لأنه مقتنع بما تسوقه من أفكار:

- صحيح.. وماذا نحن فاعلون.

- إننا فقط نعيش وهذا يكفيننا.. إن زواجنا الذي تم بإرادتنا.. هل استطاع أحد أن يوقفه، وهؤلاء العشاق في هذه المدينة الواسعة من يوقفهم عن حياتهم، إن العسكر والسياسيين وماسكي العصا يسرقون البلاد ونحن نعيش بأرواحنا وأجسادنا وأفكارنا.. ونمسك البلاد ونسيطر عليها اجتماعياً.. هل أحد يستطيع منعنا..

- ورجال الدين هناك..

- ليتهم هناك إنهم يتكلمون فقط ويوعظون خلف جدران معابدهم، وهم إذا خرجوا إلى الشارع فهم يرتدون ثوب الغلابة أو ينافقون الذين يسرقون..

- ومن هنا كان الضياع.. إن الضياع لا يأتي من تحت لكنه يأتي من فوق كالصاعقة، إن الضياع يسلّطه علينا من يمسكون البلاد أصحاب العصا ومعهم فريق من رجال الدين، الذين ينافقونهم كي يعيشوا، فيضيع المجتمع من تحت، ومن هنا يكون الضياع المجتمعي الذي صنعه ما يسمون أنفسهم بالسلطة وهم من أضعف الناس تدبيراً..

- ولو ترك شريف نفسه لعاش مع نادية أبداً، وهي زوجته الرابعة لما لها من فكر واع ورقة متناهية هذا غير متعتها في فراشها، الذي لا تحدّه حدود، لو ترك نفسه معها لعاش بدون نسائه الأخريات، ونسى حتى سعاد صاحبة الجمال والفتنة، لكنه في ليلة من الليالي تحدثت معه نادية كأنثى فقالت له بعد أن علمت بزواجه من صباح بسبب مأساتها مع عمها فقالت له:

- وما طعم هذه المسكينة يا شريف..
- هي حقًا مسكينة فعندما أذهب إليها أجدُها مرعوبة وعندما أقترُب منها تصرخ وتفرع، وكأن عمها يقترُب منها كل ليلة..
- وأي نوع هي من النساء يا شريف..
- هي مثل الرمان.. فاكهة إذا أكلتها فإنك تبذل كثيرًا من الجهد كي تأكل حباتها.. وإذا لم تضعها في طبق به ماء وليمون وسكر فإنك لا تستطيع تناولها..
- هل تعني أنك تجد مشقة معها..
- بها شوك.. أبذل مجهودًا كي أهيأها للقاء وتبدأ لقائي بالصراخ..
- فهي امرأة مفزوعة..
- لكنها مسكينة..
- فإذا قضيت معها ساعة وانصرفت شكرتني وحمدتني كأنني أسديت لها معروفًا كبيرًا..
- كأنك لم تتزوجها..
- أشعر أنني تزوجتها؛ لأنه كان يجب أن أتزوجها ولكي أحميها، وساعدتني على الارتباط بها زوجتي كوثر..
- إذا كان زواجك بها إنسانياً..
- وهل في هذا عيب..

- لا عيب ولكن أعرف عنك كل شيء.. وسكتت قليلاً ثم طفقت:
- وكوثر..
- كوثر الآن تقترب من وضع مولودها.. وهي في حالة ألم ووجع دائم والرجل دائماً يهرب من أوجاع وآلام المرأة، وقد يذهب إلى أخرى في أيام الحمل والوضع..
- هكذا كان المثل على الرجال يقتربون من المرأة طيلة ما هي لحم فإذا صارت عظماً أعرضوا عنها وقد يذهبون إلى غيرها.. هكذا غدر الرجال..
- هذا تحليل أنت حرّة فيه.. قد يكون ذلك واقعاً صحيحاً..
- إن الرجال يضيّعون على المرأة وفاءها المستمر..
- أبداً إن المرأة في بلادي بعد إنجابها تكون غريزة أمومتها أقوى من أي غريزة أخرى..
- وهل في هذا عيب..
- هذا واقع.. وأصارك أنني الآن أشعر بأن لي زوجتين فقط..
- تقصد أنا وسعاد؛ لأننا لم نلد بعد..
- كوثر سوف تذهب إلى طفلها وتتركني وصباح هذه زوجة غلبانة تكتفي بالقليل..
- سعاد صديقتي من سنين، ولكنني شعرت بعد زواجي منك أنها غريمتي الأولى..

- أنت وهي تسيطران على مشاعري..
- ولماذا لا أكون أنا فقط..
- هذا ما تقرُّه الأيام..

.. كان المطر يسقط بغزارة في الأسبوع الأول من أكتوبر على غير المتوقع في هذه الآونة من الوقت، وكانت سعاد تنام فوق فراشها في دعة ودلال، وهو ينصرف إلى صورة شاب علقت بالحائط، ويتأملها مليًا، فقالت له:

- هل أعجبتك الصورة..
- إنه يشبهك..
- أخي جلال عندما كان شابًا وقبل أن يغادر..
- يغادر؟ إلى أين..
- ألم أقل لك إن لي أختًا ذهب عنها منذ عشرين عامًا..
- أتذكر ولكن ذكريني بحكايته..
- خانته زوجته بعد شهر من زواجه فغادر بيتنا ولم يعد، ولا نعرف عنه شيئًا حتى الآن..
- أتذكر اسمك يا حبيبتي منذ أن كنا في مدرسة إمبروزو..
- سعاد إبراهيم الشلقاني..
- ولو كنت قد نسيته منذ إمبروزو.. فاسمى في وثيقة زواجي
- أظنك قرأتها كثيرًا..

- آه ياسعاد لو كان أخوك..

.. قعدت في سريرها وانتبهت إليه وقالت في لهفة:

- من هو.. لو كان أخي.. ماذا تقصد..

.. فتح شريف ضلفة دولابها، وأخرج محفظة من جيب بنطاله وراح يفتش في أوراقها حتى أمسك بكارنيه وورقة طوت الصورة في داخلها، واتجه إلى الصورة وراح يتحقق من ملامحه.. ولم يبذل كثيرًا من الجهد في ذلك.. إنَّها نفس الصورة..

.. رجع إلى سريرها وجلس بجانبها وفي هدوء قال:

- انظري يا حبيبتي.. هل هذا جلال.. هي نفس الصورة التي بالحائط.. أمسكتها بيد مرتعشة، وتأملتها ملياً بعينين ملأتها الدموع في لحظة ثم صرخت:

- هوّ.. هوّ جلال.. هذا كارنيه نادي سموحة.. من أين أتيت به يا شريف..

- اهدى اهدى..

- سوف أحكي لك.. لكن لا بد أن تهدئي تعالي في حضني.. وأخذها إلى صدره وراح يحكي لها.. ولما انتهت انهارت بين ذراعيه وملأت دموعها صدره العار فلماً هدأت قليلاً قالت:

- وهل رأيته كثيرًا بعد ذلك..

- رأيته كثيرًا في كل ليلة بعد ذلك؛ حيث كان حريصًا أن ينادي رفيقته في بيتها وهو بيت كوثر الذي كنت أعيش

فيه.. وكان يخلط نداءه للناس بأن يقوموا للصلاة بالنداء عليها..

- وماذا كان يفعل بعد ذلك..

- يذهب إلى المسجد ليستحم، ويذهب إلى بيته.. إلى كوخه..

- وأين كوخه..

- عرفت بعد ذلك أنه يسكن في شارع جانبي في المقابر، التي تقع قرب شارع أبي قير..

- ومازال حتى الآن يسكن هناك..

- لم أتابعه منذ مدة ولكنني أعتقد أنه هناك..

- تعتقد أنه زهد الدنيا..

- لا إنه ليس بزاهد، ولكنه عاد فاسقًا محترفًا..

- تصفُ أخي بالفسق..

- أبدأً ياسعاد.. لكن هذا واقع.. لقد جعل من كوخه هذا وكرًا

يصطاد فيه النساء من شارع المقابر، حتى أنني علمت في

كثير أن هناك نساءً من عائلات يذهبن إليه في كوخه من

وقت لآخر ليأخذن مزاجهن منه ويقولون عنه إنه رجل بلا

حل..

- أخي أصبح في هذه الحال..

- لقد عاد وحشًا.. إنه ينتقم من النساء في عشته هذه،

يقولون إنه عنيف في معاشرتهم مما يجعل كثيرًا من

النساء يرغبن في ذلك، ويقولون إنه يحكي لكل امرأة
تعاشره حكايته فيتألمن من أجله ثم يألفنه..

- وكيف يعيش.. من أين يأكل..

- كلمًا نالت المرأة مزاجها منه أعطته مالا.. كما أن زوار
القبور يزورونه بكثير من الكعك والطعام، الذي يأخذونه
إلى موتاهم..

- هكذا بلغ حال أخي.. لكن أريد أن أتأكد أنه هو بلحمه
وشحمه..

- إذا ذهبت إلى هناك فإنك تعرّضين نفسك للاعتداء منه..

- سوف أخبره بأنني سعيد..

- أعتقد أنه نسيك.. إنه لا يتذكّر أحدًا يذكرّه بالماضي..

- سوف أحمل له ما يثبت أنني أخته..

- وماذا بعد ذلك..

- آتي به إلى بيتنا..

- ومن يعتني به ومن ينظفه.. ومن يعيده إنسانًا عاديًا.. إنك
سوف تأتي بكثير من المشكلات إلى هذا البيت ولن يطيقه
أحد من الجيران، وسوف يسبب لك مشكلات كثيرة..

- أتمنعي عن أخي يا شريف..

- لا أمنعك ياسعاد افعلي ماتريدين..

- تعال معي..

- إنني أخاف من المقابر ولا أستطيع القرب من المجازيب..
- سوف أذهب وحدي..

.. مرّت أيام أخرى وسعاد لا تعرف ماذا تفعل بشأن أخيها إذا كان هو الذي يسكن المقابر، وبدأ العام الدراسي فكانت تذهب إلى مدرستها باكية حتى أن عينيها تورمتا من كثرة البكاء، والجدير بالذكر أن شريف ترك مدرسة إمبروزو والتحق بالعمل كمحاسب في شركة النصر لإنتاج الحراريات والفخار بالمحمودية، وسعد كثيرًا بهذه النقلة في حياته؛ لأنه يحب أن يكون محاسبًا وترك المدرسة بما فيها من جو لا يقدر عليه وحكايات الطالبات هنا وهناك وحكايات المدرسين والمدرسات، ولقد حاول أن يحب جو المدارس فلم يستطع، وكان عمله كمحاسب بعد عام واحد في مدرسة إمبروزو أبرز ما في حياته من تطوُّر، وسعدت نادية جرجس لذلك حتى لا يلحظ أحد في المدرسة أنّه زوجها وفي يوم قالت له نادية:

- إنني أحب أن يكون زوجي محاسبًا، وأن يعفيه الله من مشكلات المدرسين وهذا حصل، كما أنني في داخلي سعدت كثيرًا بابتعادك عن أنظار الطالبات وأنتي لا أضمن أن يمر عام آخر في المدرسة بدون علاقة مع طالبة خاصة وأنتك مرغوب منهن..

.. كان شريف يستمع إليها وهي تسترسل في التعبير عن سعادتها بعمله الجديد، وبعد أن انتهت هزَّ رأسه، وابتسم وقال وكأنه يهمس في أذنيها:

- هكذا تخافي عليّ يا حبيبتي..

- وكيف لا أخاف وأنت كل حياتي..
- متى ستأتي أمك من شبرا..
- إنها قد لا تأتي إلا لزيارتنا..
- هل جعلناها تهجر بيتها..
- إنَّ لها بيتًا في شبرا.. شقة أبيها.. شقة خالية، لقد أخبرتني في يوم وفي حديث طويل بيني وبينها.. أنها بعد أن اطمأنت علىَّ وضمنت سعادتي مع رجل أحبُّه وأنها سوف تذهب إلى شبرا لتعيش هناك في بيت كان مسقط رأسها.. وكانت هذه رغبتها الحميمة فوافقتها على ذلك..
- هكذا كانت الأم.. أم رقيقة.. وأنجبت نادية النبيلة الرقيقة..
- أنا ممتنة دائماً لتقديرك..
- وماذا قالت لك غير ذلك، ولماذا لم تخبريني بخطوتها هذه في حينها..
- قالت لي إنَّها تحب أن تغادر في هدوء، وأنه علىَّ أن أخبرك فيما بعد..
- حقاً هناك ناس في بلادنا يتصرفون بحكمة بالغة..
- ولم أخبرك بكل ما قالته..
- قولي يانادية كل ما أخبرتك به..
- أتمنى أن أهاقها في يوم وأخبرها أنني حامل..
- يامناي.. أتمنى هذا يانادية في أقرب وقت..

- هايكون أجمل طفل في الدنيا..
- ولا تنسى أبداً يا شريف أننا لن نترك عادة تعودنا عليها قبل زواجنا..
- هي عادات كثيرة.. ذكريني دائماً بأي عادة كنا نعتادها..
- مكان عزيز علينا..
- وراح شريف وقد وضع كف يده على رأسه محاولاً تذكر المكان، ولمّا وجدته لم يهتد إلى معرفته قالت:
- هل تنسى مقهى النبي دانيال..
- كيف أنسى مقهى كان لي فيه أجمل اللقاءات مع حبيبتي..
- ولا تنس أن في هذا الشارع.. وسكنت..
- .. وكان شريف دائماً يحب أن يسمعها حتى آخر ما في داخلها من أفكار وحكايات.. فبادرت ثانية وقالت:
- هل تنسى أن في هذا الشارع ثلاثة دور مهمة..
- ثلاثة دور؟ وصمتت برهة ثم طفقت بحنان:
- دور العبادة..
- كان يجب ألا أنسى..

.. سعاد طيلة عمرها لا تمنع نفسها مما تريد، فهي ماذا تريد الآن بعد أن علمت بمكان جلال وإلى أي حال وصل إليه من الشفاء، تركها وذهب إلى زوجته نادية وترك لها همًا كبيرًا تتشغل فيه، هل تأتي بأخيها إلى البيت وهل يرضى وإذا رضى فهل سيعود إنسانًا عاديًا.. لا تعرف.. لكنها كانت في حيرة ولا تعلم ماذا تفعل فتعلمت قيادة السيارات ومرّت أيام أخرى فاشتريت سيارة فولكس فاجن، وراحت تجوب بسيارتها شوارع هادئة خالية من المركبات والمارة حتى عادت ماهرة في القيادة، وكان المارة في الشارع إذا رأوا سعاد تسير نحو سيارتها المركونة في ركن من شارع جانبي وقفوا جميعًا مشدوهين ليتأملوا هذه السنيورة، ويشعر بها أصحاب الحوانيت في الشارع عندما تمر بهم بشائعة رائحتها العطرة فيجدون متعة في التلطّع إليها، وكانت رزينة لا تلقى بالاً بأحد.. ممشوقة القوام ملفوفة الجسد بهية الطلعة في لفتتها، تتحني بنايات الميدان تحية لمرورها، وكانت عيناها السوداوان المكحلتان بكحل حوانيت المنشية يجعل من كل شوارع الحي وكأنه شاطئ يتمتع برزاز البحر صباح مساء فيشعر الناس جميعًا حولها بأنهم سبحوا فوق الأمواج ثم عادوا إلى أعمالهم منتعشين، وشعرها الأسود المضفور في خصلة واحدة معقوصة فوق ظهرها.. وقطع من القروش الذهبية تزركش هذه الخصلة، هذا غير قرطين من الذهب تحرس جانبي وجهها الملائكي وتزيده إثارة، وعقد من اللؤلؤ يزين عنقها وقد ارتفع أنفها عزة أعلى كتفها وكأن في فمها شفتين من قرمز وعاج من هو الغنى في المدينة؟ صاحب كل هذا الجمال وهذه العزة، ولا يفيد من يشخص بصره نحوها إلا رؤية محفل مرّ به، ولم يكن صاحب كل هذا سوى شريف المحاسب بشركة

النصر، ولم تكن هي إلا مدرسة للمحاسبة في مدرسة لوران للبنات، فكيف لكل هذه الأبهة أن تكون شقيقة جلال.. وكيف لها أن يتصور الناس أن شقيقها هذا الذي انشق عن الحياة وأصبح خارج نطاق هذا المجتمع أن يعيش معها في بيت واحد وهو في هذه القذارة، وقد حذرنا شريف في أن إعادته إلى البيت مستحيلة، وهذا نذير بأن شريف قد يهجر بيتها إذا جاءه جلال.. إن أخي صعب جدًا أن يعود.. إنني لن أروّض وحشًا اعتاد على العيش في المقابر ومعاشرة النساء الضائعات.. اقتنعت في هذا اليوم وهي تركب سيارتها متجهة إلى لوران أن ذلك أمر مستحيل، وعليها أن تحتفظ بحياتها عند هذا الحد، إن أكثر ما تستطيع أن تفعله نحوه من بعيد هو أن تذهب إليه وتعرّفه بنفسها وأن ساعدته في شيء فعلت ولكن من الأطراف.. من بعيد دون أن يمس حياتها بمكروه، ولا هي تمس حياته الذي تعود عليها خاصة أنه ألفها منذ سنين طويلة..

.. عادت إلى بيتها في هذا اليوم وهي تشعر بأنها عادلة في قرارها، لكنها قرّرت أن تذهب إليه لتعطيه نقودًا وملابس خاصته قد تجدها في البيت وطعامًا، وفي منتصف الليل قامت وراحت تفتش في دولاب أمها وفي حقائب قديمة عن ملابس تخصه فوجدت الكثير فوضعت في حقيبة وقلتها، وفي جيب جاكيت قديم وجدت مسدسًا محشواً برصاصتين، فاندحشت وضبطت زرار الأمان ومسحت السلاح الصغير بقماشة، ودون أن تدري وضعت المسدس في حقيبتها التي اعتادت أن تحملها مساء كل يوم، لكنها سألت نفسها.. لمن هذا المسدس.. إنها لم تر أباهما في يوم يحمله.. هل هو لجال.. لأي أحد.. إنني ذاهبة إلى مكان موحد ومخيف.. إن حمله مفيد خاصة وأنني ذاهبة وحدي.. وكانت سعاد قد تدرت في فرقة للدفاع المدني

بنادي سموحة بعض الأيام على كيفية استخدام السلاح والدفاع عن النفس وذلك في أثناء ما كانت طالبة في المرحلة الثانوية.. وجدت كثيرًا من الملابس الداخلية وبيجامات وقمصان وملابس أخرى تخصه ملأت بؤجيتين وربطتهما بإحكام..

.. كان لا بد أن تذهب وإن تعرّضت لأي خطر، إنه شقيقها وحببيها وكم من أيام وليال لعبت معه في الشارع ومدخل العمارة والطريقة بين الشقق، وكم من ليال غطاهًا في فراشها.. عطف عليها وحنَّ كما يفعل الأخ الكبير دائمًا بأشقائه، وفي صباح يوم الخميس الذي تذهب فيه مبكرًا إلى مدرسة لوران؛ حيث تنتهي حصصها في الواحدة ظهرًا، قامت وصلت الصبح قبل بزوغ الشمس ثم جلست فوق سجادة الصلاة، وأخرجت المسدس من حقيبتها وراحت تمر براحة يدها على ماسورة السلاح كأنها تنظّفه، لكن السلاح كان نظيفًا؛ ولكنها كانت كمن تقول ليتني ما أشدُّ زنادك ولا أكون ضارية نار في يوم صوب أحد حتى وإن كنت أدافع عن نفسي.. .. انتوت أن تذهب إلى كوخ المقابر بعد انتهائها من اليوم الدراسي، إن الفولكس ستساعدني في الدخول بين الأشجار التي تملأ محيط المقابر لصغر حجمها وستجعلني أفر بسرعة إذا ما وجدت ما يخيفني حول غرف الموتى، كان يوم الخميس يكثر فيه زوّار القبور لكنها عندما اقتربت من محيطها، وجدت ناسًا كثيرين يغادرون، إن أهل الموتى يأتي بعضهم قبل أن تطلع الشمس، وأغلبهم يأتون في العاشرة والعادة أنه لا أحد يمكث أكثر من ساعة ثم ينصرف بعد توزيع الرحمة وقراءة الفاتحة، ولمّا وصلت بعد الثانية عند أول شارع على يسار المقابر كما وصف لها شريف بأن كوخ جلال يقع في آخر هذا الشارع.. دخلت بجسارة والعربة الفولكس كأنها عجلة في يدها تحرّكها بسهولة بين أشجار

الكافور والجزورين المزروعة بكثافة حول المقابر منذ سنين طويلة..
ويعد أن مرّت بصف المقابر حتى نهايته توقفت بالعربة وجالت
بناظرها لترى الكوخ فلم ترَ شيئاً، وكان عليها أن تستدير بعربتها
قليلاً إلى اليسار حتى تجد عشته، لكنها فضّلت أن تهدأ قليلاً،
وشعرت برعشة تسرى في أوصالها وفجأة جاءها صوت رجل:

- عايز مين ياللي هناك..

.. كان الصوت متحسراً فخافت وأدارت محرك العربة.. هل أعود
مسرعة؛ حيث كنت، وقعت في الهلاك.. إنَّ صوت الرجل أصابني
بالرعب فكيف إذا اقترب مني؟ ماذا أنا فاعلة.. أخرجت المسدس من
حقيبتها ووضعت على التابلوه أمام عجلة القيادة لكنها سرعان ما
خبّأته في جيب سروالها.. وعاودها الصوت أكثر حدة: مين هناك..
وكأنه خفير المقابر يؤدي عمله..

فردت بصوت مرتعش:

- ممكن تقرب شوية.. مش عارفة أدخل أكثر من كده..

- إنت مين وعايزة مين..

وبدأ الصوت أقل حدة وقلّت حشرجته..

- أنا عايزة .. عايزة خير.. إنت الخفير..

- أنا بن ستين في ستين.. تعال مش جيتي قبل كده..

- لأ ماجيتش.. تعال خدني..

.. خرج من باب كوخه وتقدّم نحو العربة التي تقف على بعد عشرين
متراً من مسكنه، واعتقد أنها امرأة غاوية من اياهم التي تأتي عادة

على سمعته بأنه رجل مالوش حل.. رزق أروح له.. كلّمّا اقترب هربت أنفاسها في عظام جسدها.. أغرورقت عيناها وملاّتهما الدموع.. وقف قرب العربة على بعد مترين منها وقال وهو يحدّق في وجهها:

- تعال انزلي..

- إنت مين..

- إنت الليّ مين..

- إنت اسمك إيه..

- وإنت مالك ومال اسمي..

- عايزة أعرف اسمك..

- ك.. ياقحبة.. انزلي.. مش جاية علشان..

هاتعملي شريفة.. انزلي يا حلوة.. تعالى..

واقترب منها كالوحش يفتح باب العربة.. وصرخت.. صرخت صرخات واهنة كأن أحدًا خنقها.. وأمسك بذراعها وشدها:

- تعال يا حلوة.. هو فيه حد يخاف منّي..

.. وحاولت التخلّص من كف يده الذي كلبش بذراعها كأن جنزيرًا حديدياً أطبق بجسدها كله.. وجذبها بقوة فوقعت بالأرض فحملها بذراعيه واتجه مسرعًا نحو كوخه وهي تصرخ ويطبق على جسدها يعصّرها بذراعيه القابضتين.. ورمّاها فوق فراشه وكل ما بها من خوف يزعق صارخًا بصوت يستغيث فزعًا:

- إنت مين .. إنت مين ..
- أنا الليّ قالوا عنه النسوان .. يا .. يامن .. ياشر .. وخلع
بنطاله كالوحش الكاسح .. وارتمى فوقها ومدّت يدها في
جيب بنطالها وسبحان الذي جعلها تشد الأمان بأصابع
مرتعشة وقالت وكأنها تستسلم:
- طيب .. استنى .. أقلع البنطلون ..
- ماكان دا من الأول ..

.. وراحت تخلع بنطالها وسحبت المسدس من جيبيها واتشغل في خلع
بقية ملابسه ثم انقلب يقفل باب عشّته، في لحظة ارتدت بنطالها
ثانية وصوبت فوهة الماسورة الصغيرة قبل أن ينقلب إليها وداست
بإصبعها على الزناد لتنفجر رصاصة في رأسه والثانية صوب ظهره ..
.. وقع غارقاً في دمائه وفتحت باب الكوخ والتفتت يمنة ويسرة فلم
تجد أحداً .. وجدت حقيبة صغيرة لامعة الجلد فوق رف العشة
فأمسكت بها ونزعتها بيدها وهرعت نحو العربية مذهولة لا تصدّق ما
الذي حدث .. ومن هذا .. هل هو جلال أخي .. لا أعرف .. هربت
أنفاسها المتهدّجة الهالعة الخائفة .. ما هذا الذي جرى .. لييتني
طاواعت شريف .. هربت من المقابر واندست وسط ارتال السيارات في
شارع أبي قير لا تدري أين تختفي ..

.. ليت من قتلته رجلاً آخر وليس جلال، قالت وهي تطلع درج البناية
وكررتّها مرّات حتى فتحت الباب ودخلت وألقت بالحقيبتين فوق
منضدة السفرة، وهولت إلى غرفة نومها، وارتمت على سريرها ..
ياخرابي .. وراحت تُسمع أركان البيت كمن تتدب ياخراب بيتك

ياسعاد.. ياندامتى يأمه.. وحملت فى صورته بالحائط.. وزعت
صارخة جلال.. يا جلال.. أروح فىن من حياتى.. أروح لمين يالهوتى
من بدرى.. أقول إيه.. أسكت وأخرس ولأ أبغ عن نفسى.. أبغ
مين.. أودى نفسى فى داهية فى واحد ما يستاهل..

كان قاطع طريق.. ولمأ أخذها تفكيرها بأن أهاها كان مجرمًا وحشا
لا يرحم خارجًا عن مجتمع المدينة كلّه راحت تهدأ.. لقد خلّصت
المدينة من وبائه.. لو كانت هناك مدينة عادلة لكافأتها على فعلتها،
وشعرت ببعض القوة، وأن المدينة ليس فيها أى عدل وسيحاكمونى
كأى قاتل، إن مدينتى ومن يحكمها هو الذى أوصل جلال إلى
وضعه هذا ولمأ سكنت المدينة وتعاضت عن دورها قمت بدور
العادل فى مدينة ظالمة..

.. صلبت عودها وانقلبت إلى الصالة لتمسك بالحقيبة التى أخذتها
من عشته ونكشت ما فيها فوق المنضدة فإذا هى صور لجلال وهو
صغير مع أمه وأبيه وأنا وإخوتى.. حتى كبر وصور أخرى وهو فى
الجامعة وكارنيه لنادى سموحة.. إنه جلال أخى.. والذى قتلته هو
جلال بعينه ولحمه وشحمه..

.. ولماذا أضيّع وقتى فى وسوسة وخوف ولا فائدة منه هل أحكم على
نفسى بحزن وضيق لا ضرورة له.. كلب وراح.. وبدأ قلبها يقوى..
وراحت تسمع جدران البيت.. كلب ومات.. كلب ومات..

.. خلعت ملابسها وفتشت فيها عن أى أثر للدماء فلم تجد فألقته فى
الغسالة، وتناولت ملابس نظيفة ودخلت الحمام لتستحم من أوساخها،
وكأنها ستبدأ عالمًا جديدًا نظيفًا.

.. جاء وقت الوضع فولدت كوثر ولدًا سمّته أمه شريف حبًا في أبيه، وأخبر شريف صباح بولادتها فجاءت إلى بيت كوثر صاحبة الجميل عليها هالعة فرحة.. إنها فرصة رد الجميل تخدمها وهي والدة كما يفعل الأهل والحبايب عندما تضع لهم عزيمة عليهم.. وكان شريف جد سعيدًا بوئام زوجتيه، وأحضر شريف المأذون مرّة أخرى ليعقد قرآنًا قانونيًا رسميًا ليستطيع تسجيل الولد باسمه، ولما انتهى من إجراءات كثيرة سجّل ولده شريف، واستخرج له شهادة ميلاده.. وسعدت كوثر بالجو العائلي الذي غمرُ بيتها خاصة بعد ولادة ولدها وقيام صباح بخدمتها ومراعاتها كما تفعل أخت لأختها..

.. علمت نادية بوضع كوثر فجاءت إلى بيتها في السبوع، وحملت ما يلزم وزيادة مما أسعد شريف وكوثر كثيرًا.. وكان شريف قد أخبر كل من كوثر وصباح كل على حدها بزواجه من نادية منذ أكثر من شهر.. وقبلت كل منهما الأمر فلم يكن أمام أي منهما شيء آخر غير القبول لأمر قد وقع وهما لا تستطيعان رفض أمر اتخذه شريف، وأصبح أمرًا واقعًا..

.. وبلغت درجة وفاقهما أن اعتبر شريف كل من كوثر وصباح بيئًا واحدًا.. ويمكن لكل منهما أن تعيش مع الأخرى دون أية مشكلات، وأدرك أنه من الزوجات في الإسكندرية طبيّات كما يوجد مثل هذا في الريف، ولم يكن هذا في يوم ينبثق لنا من قانون أخلاقي ينتشر بفعل قانون، لكن الوفاق مع امرأتين يأتي صدفة بالتفاهم على رجل واحد.. وبعد أن تأكّدت كوثر من إخلاص صباح لها أصبح قلبهما يتفق على رجل واحد بعد أن ربعنت كوثر وأصبحت جاهزة لاستقبال زوجها، وسعد كثيرًا عندما كان يذهب إلى الشاطبي في بيت صباح فيجد

الزوجتين تنتظرانه، وفي الليل يدخل غرفة صباح أو غرفة كوثر كما يرتاح وتهوية نفسه، وفي الصباح بعد أن يذهب شريف إلى عمله تقول كوثر لصباح مداعبة:

- عجبتيه إمبارح..
- والله ماكنت أقصد..
- عجه الكحل ياللي تتقصفي..
- اتكحلي زيي ياكوثر.. أنا بتكحل علشان عيني توسع شوية لكن إنت عينك واسعة طبيعي..
- ياللا ياصباح شبعنا بقى أنا بقيت أم..
- ياما نفسي أحبل منه..
- بكرة تحبلي وتحببي عنتره..
- ياريت..

.. وكان ذلك الحوار على سبيل المثال في كل يوم وليلة وتنتهي المداعبات بينهما والغيرة على زوجها بكثير من الاندماج وتنصهر كل منهما في قضاء أعمال البيت سواء كانتا في الشاطبي أو إمبروزو.. وأسعد ذلك شريف كثيرًا؛ حيث كان يقضي أسبوعًا معهما وأسبوعًا مع نادية وثلاثة أيام مع سعاد ثم يهرب منها خاصة بعد أن أخبرته من كان في الغابة عند المقابر.. ورغم أنه أكد لها أن هذا جلال ولم تكن هي في حاجة إلى تأكيدات فلقد وجدت صورًا من ميلاده حتى غادر البيت ولكنها كانت تخفي عنه كل التفاصيل ولخصت حكايتها:

.. ذهبت لأبحث عن أخي فوجدت ذلك الرجل الذي لا يشبهه أبدًا
بعد أن عاد مجذوبًا فحاول الاعتداء عليّ فدافعت عن نفسي ولو كان
أخي ما اقترب مني بهذه الوحشية.. وتسكت فيقول لها:

- أنت في كل الأحوال قتلت سواء كان أخاك أو أي شخص
آخر..

- إن كان هو أو مثله يستحق القتل..

- أنت مقتنعة بهذا..

- مقتنعة وعليك أن تؤيدني في ذلك..

- بعد أن أصبحت قاتلة.. عدت أخاف منك..

- ألم تعد تحبني..

- لا أعرف..

- هذا ما بقى لي في حياتي.. إنني لم أقترب قبًا..

- لو اغتسلت بمياه البحر كلها لما تطهرت من ذنبك..

- أهون عليّ أن أذهب وأبلّغ عن نفسي..

- حتى الآن لم تهتد الشرطة إلى القاتل..

- سوف يلقونها لخفير المقابر أو مجذوب آخر..

- وهل سيرتاح ضميرك..

- أميل إلى أن ضميري يميل إلى أنني خلّصت المجتمع من

وباء سواء كان أخي أو غيره..

- في النهاية كل إنسان قبالة ضميره..

وينتهي الحوار المكرر المعاد، ويشعر الزوج الذي كان عاشقاً لها في أحلى أيام حياته أن عشيقته وزوجته قتلت، وأنها عادت قاتلة فكان يذهب إلى نادية ليحكي لها ما رسب في نفسه من حزن على فعلة سعاد فتقول له مهدئة:

- إذا كنت لا تتراح بالذهاب إليها فطَّلقها..

- هكذا أكون قاسياً..

- إنها قاتلة..

- أتحكمن عليها لأنك تريدني منِّي التخلُّص منها..

- أريدك أن تتخلص منها قبل أن تقوم بفعاليتها..

- كنت أعتقد أن قلبك به قدر من السماح..

- أنا امرأة وهذه ضرتي وهي أكبر منافسة لي عليك..

- وكوثر وصباح لا يهكم أمرهما..

- أشعر أنهما مسكيتان ليس لهما قدراتي أو قدرات سعاد في

جذب الرجل حتى أغار منهما.. طَّلقها قبل أن تحمل منك،

وتكون أم ولدك قاتلة..

- تضعين حدًّا فاصلاً وتعودت منك قدرًا من السماح ولم

أتوقَّع منك هذه الحدية..

- ليست حدية ولكنَّها صرامة وعلاج نهائي..

- لقد أوقعت نفسي في مشكلات، لأنني تركتُ نفسي كثيرًا لإحساسي..
- مشكلات مقدور عليها ولو لم تكن رجالاً تعيش بكثير من الإحساس لما تزوجت بهذا القدر من النساء.. ليت بعض الرجال مثلك حتى تُحل كثيرًا من الظلمات.. ولو لم تكن بهذا القدر من الجمال النفسي لما تزوجتني..
- إنني أجد في الذهاب إلى بيت سعاد بعضُ الجُرم.. أشعر أنني أذهب إلى بيت قاتلة.. وقاتلة لشقيقها..
- ألم تبلغها بأنها قاتلة..
- أبلغتها ولكنّها مقتنعة بفعلتها..
- إذا كنت تحبني فلا تذهب حتى تهدأ الدنيا من حولك.. لكن لا بد من طلاقها..
- إنني أريد أن أذهب بعيدًا لأعيش وحدي حتى تشفي نفسي..
- وتتركني.. كم أنت قاس.. إنني أحبُّك..
- وكانت هذه نهايات الحب..
- ليس للحب نهاية حتى آخر الزمان..
- إنني أخاف من الغد؛ لأنه قد يحمل وقائع لا أقدر عليها..
- لقد أصبحت غامضًا لست الرجل الذي عرفته..

- أبدأ أنا هذا الرجل ولكن أشعر بأن هناك ظلمات يصنعها غيرنا..
- إن الذين يعيشون بدون إحساس هم الذين يشعلون النار حولنا..
- لا أفهم..
- ليس المطلوب منك أن تفهم كل شيء..

.. في جلسة فضفضة بين سعاد وصديقة أمها الوفية زوجة رؤوف جورج جارتهم القديمة أفضت سعاد بسرها.. فما كان منها إلا أن أخبرتها بزواج شريف من نادية، وكانت الساعة تقع فوق رأسها فنقلت إلى المستشفى في حالة شديدة من ضيق في التنفس وإغماءات متتالية لم تفق منها إلا بعد ثلاثة أيام فنقلت ثانية إلى البيت ولم يفارقها شريف ساعة واحدة، ولما استردت عافيتها قليلاً قالت لشريف وهي تمسك بكف يده:

- تزوجت على..
- لم أتزوج من غريبة عنك..
- ليثها كانت غريبة.. صديقتي أخذت زوجي..
- وما الجرم في هذا..
- جُرم كبير.. إنها تستحق القتل..
- القتل ليس جديدًا عليك..

- فعلاً يا شريف أنا قاتلة.. أقتل نادية حتى أكون قاتلة محترفة..
- لا تأخذي الأمور بهذه الحدة..
- منذ قتلي لجلال وأنا أشعر بأنني جننت..
- إهدئي وكوني عاقلة.. أنت في حاجة إلى راحة طويلة..
- إذا أردت لي أن أعود كما كنت طلق كل النساء وكن لي وحدي..
- لا يمكن أن يحدث..
- إذا أنت تريد أن يزيد جنوني..
- أنت حرّة في نفسك..
- أنت سبب جنوني.. لماذا لم تخبرني بزواجك منها..
- وهل أنا مجنون..
- أنا أو نادية.. من تحب يا شريف.. ألسنت أنا أفضل منها بكثير..
- أكيد..
- تجاملني..
- أبداً..

.. انسدت الدنيا في وجهي وعدت لا أنام ومرّت أيام، وحالتي النفسية تزداد سوءاً، وراح شريف ينام على الكنبة في الصالة ولا ينام في فراشي فعدت أشعر أنني أموت يوماً بعد يوم، ولم يعد للحياة طعم ولا لذة ولا شوق، وبدأت المرارة في حلقي هي الريق الوحيد الذي يدخل إلى جوفي، وانقطعت عن عملي في المدرسة، ونزلت إلى السوق وحشوت المسدس رصاصتين كي أقتل نادية غريمتي هذا هو الحل عندها سأرتاح ويكون زوجي وحدي فلن ينام على الكنبة بعد قتلها لا بد أن تعود إلى الحياة مرّة ثانية.. أنا امرأة لا يتزوج علىّ أخرى مهما كانت.. إنها الخائنة ولا بد أن أقتلها حتى أصبح قاتلة كما قال..

.. وبدأت تظهر لها تهيؤات في الليل حتى أن الكوابيس تطاردها أثناء نومها بالنهار، وفي يوم عندما كان شريف يأتيها ليطمئن عليها ويحاول تهدئتها خاصة بعد قتلها لأخيها، ولم يكن في هذه الجيئات يلقاها، ولكنه كان يظهر أنه تعبان ويريد أن يناي بنفسه في سرير آخر بالغرفة الأخرى لشعوره بأنها هي الأخرى لا تطيق أحداً إلا أن ذلك كان يزيدا توترًا وعصبية فقالت له في يوم:

- أصبحت غير مرغوب فيها يا شريف..
- أبدأ أنا وأنت في أزمة خاصة بعد قتلك لجلال..
- ممكن أن تنسى ولا تذكرني بما حدث.. هو أخي وقتلته وقتله حلال لقد أرحمت المدينة من وبائه..
- لكنني أشعر بالقلق وأنا أدخل هذا البيت..
- لأنني فيه.. لم تعد تحبني..
- أحبك شيء وما حدث شيء آخر..

- لو كنت تحبني حقًا لما تزوجت هذه..
- أنا أحبكم جميعًا.. كوثر وصباح وأنت ونادية..
- الآلهة وحدها تحب هذا القدر من النساء.. يقولون في الأمثال أنه في الزمن القديم كان هناك رجال يسمونهم بالآلهة لاتساع قلوبهم وصدورهم واستيعاب عقولهم لأحداث الناس حولهم.. فكانوا يتزوجون ويصلحون ويضربون مثلاً للناس ليقتدوا بهم في الخلق والسلوك، لكن اليوم في هذا الزمن العفريتي لا يوجد رجال مثل هؤلاء..
- ولماذا لا أكون أنا آخر الرجال هؤلاء..
- اسمعني يا شريف.. كوثر وصباح لا أغار منهما ولكن أنا كوم ونادية كوم..
- لا أفهم..
- طلق نادية لتكون لي وحدي..
- إنها تحمل لي المعنى والمثل لقد ظلت معي تلازمي الرأي والمشورة من أول يوم نزلت فيه الإسكندرية وحتى الآن..
- كلماتك تقتلني.. ألم أكن لك المفضلة والأولى..
- وبعد ما حدث.. هل تبقى الأحوال على سيرتها الأولى..
- لقد دافعت عن نفسي ولم أكن أقصد قتله، ولو لم أقتله فكان سيعدني على أخته.. احكي للناس جميعًا حكايتي..
- رجل لا يعرف أخته وأخته تعرف أنه أخوها..

.. هذا الأخ الضال الذي اتخذ من الاعتداء على النساء قانوناً له وصل به الأمر أنه سيعتدي على أخته فقتلته في اللحظة الأخيرة.. إن ما فعلته يا شريف كان أفضل الأعمال التي قمت بها في حياتي، وعليك أن تحييني على فعلتي، إن أية امرأة من حقها أن تفعل أي شيء في سبيل الدفاع عن عرضها وشرفها وهذا ما فعلته..

- المحاكم عندنا تأخذ بالفعل النهائي ويخضع كثير من الأحكام لتقدير القاضي.. مما قد يجعل كثيراً من الأحكام تخضع للهوى الشخصي للقاضي.. لقد وضعتني في حيرة..

- دعني ألبأ إلى محكمة الله.. فأنا من الناحية الإنسانية والشرف والخلق قمت بأفضل الأعمال في مدينتي.. خلّصت المدينة من وكر يصب كل يوم على المدينة وباءً، ودافعت عن شرفي.. قل للناس جميعاً إن هذه المرأة قتلت أخاها؛ لأنه كان سيعتدي على شرفها.. ماذا سيقول جميع الناس.. سوف يكونون جميعاً معي.. هذا ما وصلت إليه ولا أأخذ نفسي بهذا الإقتناع..

- سوف أترك الأمر الله.. إنني في حيرة من أمرك وقناعتك سوف يؤيدها الناس جميعاً، ولكن القانون يشهد أنك قتلت..

- فكرّ قليلاً لماذا قتلت؟ ولو كنت أستطيع أن أمنعه من الاعتداء علىّ دون قتله لفعلت.. قتلته؛ لأنني لم أكن أملك غير أن أقتله لكي أنقذ من تحته وعرضي سليم..

- بدأت أشعر أنك بريئة وكنت محقة في قتله..
- المهم أنت إذا شفعت لي رغم أنني لم أفعل شيئاً فكأن العالم كله برّاني، لا يهتمني من هذا العالم إلا أنت، عد كما كنت تحبني خذني كما كانت سيرتي الأولى معك.. ما زالت الدنيا تفتح لنا آفاقها لكي نتمتع بالحياة، لا بد أن تلقاني كما كنت تلقاني حتى أحمل منك بولد جميل يرث أباه في سعة صدره وحبه للنساء..
- إذا لا تطلبي مني طلاق نادية..
- هذا شرطك..
- هذا شرطي..
- اتفقنا يا شريف..
- هكذا تذوب نفسي معك كما كانت..
- إذا أدخل الحمام واستحم حتى تغسل مابك من شوائب مضت تعكّر صفونا من اليوم..
- وعليك أنت أيضاً..
- سنبدأ من جديد الليلة..
- ولم لا..
- .. ثلاث ليال قضاها مثل ليالي العشق الأولى معها، وعندما غادر بيتها إلى بيت نادية استقبلته في بهجة، ولما استراح من عنائه ولقاها في ود وسلام قالت له:

- أنا حامل يا شريف..
- نعم؟
- أنا حامل..
- تأكدت من هذا..
- تأكدت من الطيببة أمس.. حامل في شهرين..
- أن يمنحني الله ذرية منك لمن أجمل الأشياء التي تزيّن حياتي..
- عندما ألد لأبدي من أشياء مهمة نسأل عنها..
- مثل ماذا..
- الكثير عن الطفل..
- من سنسأل ينادية..
- علينا أن نذهب إلى شارع النبي دانيال..
- إلى المقهى..
- لا .. ليس المقهى..
- .. ومرّت الأيام والشهور سعيدة وأنا بين نادبة وسعاد.. وكنت أذهب إلى كوثر وصباح قليلاً، ولم أستطع العدل بين الأربعة.. ومرّت أيام أخرى فيها ولدت نادبة ولداً جميلاً.. ولدت أجمل النساء ابناً من أجمل ما ولد في أرض الوطن.. وكانت نادبة تصر على أن تسميه إبراهيم.. ولما قلت لها ولماذا إبراهيم؟ قالت:
- إبراهيم ليكون حجّة لنا..

انتهت بحمد الله وعونه،،

صدرت للكاتب روايات :-

- . المرأة وآلهة الحب .
- . السطح الأملس .
- . المدينة الحافية .
- . قصور العبيد .
- . نساء وجياد .
- . العجرية .
- . ساقطة محترمة .
- . الزلزلة .
- . ايام الكراهية والكلاب .
- . الشيخ وعيال البحر .
- . امرأة من دخان .
- . حانة البقر .
- . مقهى النبي دانيال .
- . تحت الطبع / رواية جسر بولاق .

